

رواية من التراث

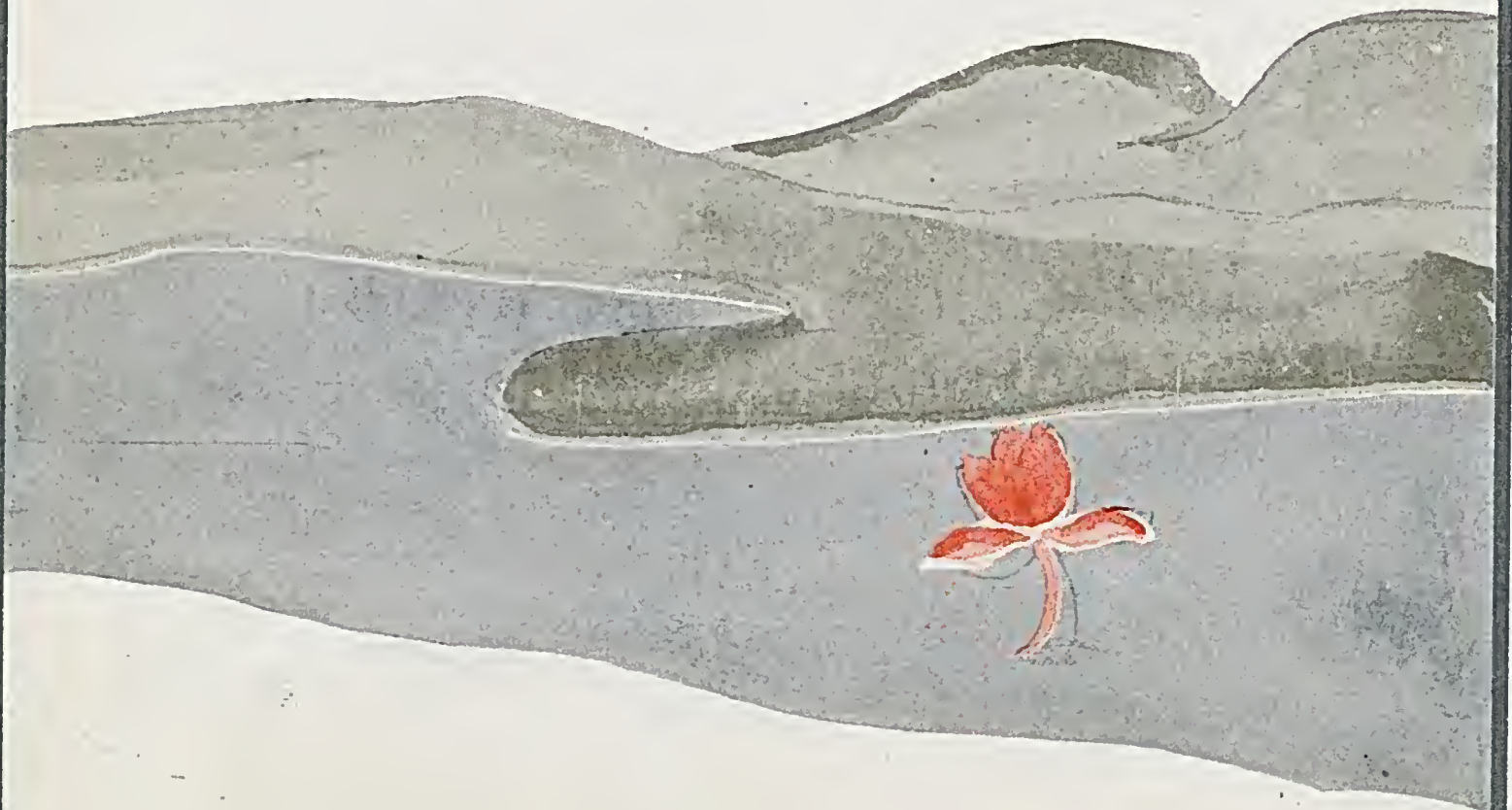


ياسوناري كوابانا

ترجمة
بسّام حجّار

بلد الثلوج

أصديقه



١٠٩٥٠
٢٠

بلد الثلوج

نور الدين بن العلاء

ياسوناري كواباتا

بلد الثلوج

ترجمة
بسّام حجّار



١٩٩٣

سلسلة روايات من العالم / ٨

الرواية	بلد الثلوج
المؤلف	ياسوناري كواباتا
الترجمة	بسام حجار
الناشر	دار الفارابي - بيروت - لبنان ص.ب. ١١/٣١٨١ - ت: ٣٠٥٥٢٠/٠١
التنفيذ	شركة المطبوعات اللبنانية ش.م.ل.
الطبعة العربية	الأولى ١٩٩٣
	جميع الحقوق محفوظة

نفقٌ طويل بين المنطقتين وها قد حَلَلْنَا في بلدِ الثلوج . كان الأفقُ
قد ابيضَّ تحت عتمةِ الليل . أبطأَ القطار من سرعته وتوقف عند مركز
التوجيه .

نهضت الصبيّة التي كانت تجلس في الجهة المقابلة من الممشى
وجاءت تفتح النافذة أمام شيامورا فدلف صقيع الثلج إلى العربة .
مالَت الفتاة بجسمها إلى الخارج بقدر ما استطاعت ونادت على ناظر
المحطة بملء صوتها .

كان الرجل يقترب مُتمهلاً يُعيقه الثلج الكثيف ، وفي يده مصباح .
كانت لفّاعته تغطي وجهه حتّى أسفل العينين وطية قبعة الفرو تغطي
أذنيه .

«أيعقل مثل هذا البرد منذ اليوم؟» قال شيامورا في سرّه وراح
يُمعن النظر في الخارج فلا يرى سوى بضعة أكواخ عند سفحِ الجبلِ ،
هناك حيث تبدّد بياضُ الثلجِ في كنفِ الليل . لا بدّ أنّها مساكن
مستخدمي السكّة الحديد . «هذه أنا، أيّها الناظر . كيف حالك .

- آه ! هذه أنت يا يوكو . . . ها قد عدتِ إذن؟ . . . لقد حلّ البردُ
مجدّداً .

- لقد بلغني أنّ شقيقي قد تدبّر له عملاً هنا، وكنتُ أودّ أن أعبّر لك عن امتناني لاهتمامك بالأمر.

- لكنّك تعلمين جيّداً أنّه، في ناحية نائية مثل هذه، لن يلبث أن يشعر بوطأة الوحدة.

- بأية حال لا يسعني أن أقول سوى أنه مجرد صبيّ كبير. فهل لي أن أتكل عليك في تلقينه ما يلزم؟

- أوه! صدّقيني، إنّهُ يتدبّر أمره جيّداً. ثمّ لدينا الكثير لنفعله بسبب غزارة الثلوج وغيرها. لقد تساقط الثلج في العام الماضي بغزارة لم نشهدها من قبل، حتّى إنّ القطارات كانت غالباً ما تحتجزها الأجراف الثلجية. وكان سكّان المنطقة في حركة لا تهدأ لتهيئة الطعام للمسافرين المحتجزين.

- يبدو لي أنّك تتقي البرد جيّداً. لقد أخبرني شقيقي في رسالته الأخيرة أنه لم يرتدّ صدره الصوف بعد.

- أنا أحتاج لأربع منها، أرتديها واحدة فوق الأخرى لكي أشعر بالدفء. أمّا أولئك الفتيان فهم يقاومون البرد بالكحول... هذا كلّ ما يحتاجونه لحين عودتهم إلى هناك! قال الناظر وأشار بحركة من ذراعه التي تحمل المصباح إلى أكواخ الخشب... وفي السرير مع قليل من «الروم» الجيّد! إنّها الوسيلة الأنجع.

- وشقيقي هل يشرب هو الآخر؟ قالت يوكو الشابة بشيء من القلق.

- لا، ليس في حدود علمي.

- هل تغادر في مثل هذه الساعة؟ سألت بدهشة.

- أجل، عليّ أن أذهب لاستشارة طبيب... أوه! الأمر لا يستحق: مجرد خدش بسيط.

- آه! عليك أن تعتني بنفسك إذا!

كان الرجل الغارق حتّى أذنيه في معطفه الفضفاض الذي يرتديه فوق الكيمونو يتعد وقد تجمّدت أوصاله فيغادر بخطى سريعة.

«وانت أيضاً، اعتني بصحتك جيّداً!» قال متابعاً سيره.

واصلت يوكو كلامها مجبلةً أنظارها على طول الرصيف المغطى بالثلوج. «أيها الناظر! ألا يُصادف أن يكون شقيقي في الخدمة في مثل هذا الوقت؟ راقبه جيّداً، أرجوك!»

كان مُفعماً بجمال ذلك الصوت الذي لا مثيل له والذي كان يتعدّ قوياً ورجراجاً، فيتدحرج كالصدى على الثلج وفي أنحاء الليل. صوت له سحر الكآبة المقلق فيخترق القلوب. كانت الصبيّة لا تزال منحنية إلى الخارج عبر النافذة عندما عاود القطار سيره.

«ليأت إلى المنزل في الإجازة! قل له أن يفعل! صدح صوتها الرائع لحظة مرور القطار بقرب الرجل الذي كان يتابع سيره بمحاذاة الخط الحديدي.

- حسناً» قال ناظر المحطة.

رفعت المسافرة الشابة زجاج النافذة وقبل أن تعود إلى مقعدها مسّحت براحتيها خديها المتوردين من البرد.

من تلك الناحية من السفح، وفي ذلك الموقع بالذات، كانت تقف كاسحات الثلج الثلاث التي استدعيت تحسباً لما قد يسببه

تساقط الثلج الغزير في الأيام المقبلة . كما جُهِّزت المنطقة بنظام إنذار كهربائي تُبَّتْ عند مدخلي النفق للكشف عن أي جرف ثلجي محتمل قد يؤدي إلى طمر الخط الحديدي . وتم إعداد الأيدي العاملة التي تكفي لخمسة آلاف يوم عمل ووضعت في حالة تأهب دائم : عمال مياومون ينتظرون إشارة التدخل لفتح الخط الحديدي ، إضافة إلى الألفي يوم عمل التي يؤمنها المتطوعون من الفتيان في صفوف رجال الإطفاء .

« . . . ليست سوى محطة صغيرة لن يلبث أن يتلعبها الثلج . . . هنا سيعمل إذا شقيق الفتاة الشابة التي تدعى يوكو » . هذا ما راود شيمامورا وقد استغرقه انشغاله المتزايد بالفتاة . وإذا كانت أفكاره تقول له ، دون أن يقصد ، إنها فتاة عازبة فلأنه ، ببساطة ، كان يرى فيها شيئاً يدفعه للإعتقاد بأنها غير متزوجة . والحقيقة أن الفتاة كانت في صُحبة رجلٍ آخر ، ولم يكن في وسع شيمامورا بالطبع أن يعرف بالضبط من عساه يكون . بدا من تصرفاته ، للوهلة الأولى ، أنه زوجها . غير أن الرجل كان يبدو وكأنه مصاب بمرض عضال وشأن المرض دائماً أن يوقف الصلة بين رجلٍ وامرأة . فأي امرأة شابة تحيط رجلاً يكبرها سناً بعناية أم ولا تترك انطباعاً لدى من يراها من بعد بأنها زوجته ؟ بلى ، ومهما كانت الظروف . وكلما ازدادت العناية التي تتطلبها المريض ازداد اليقين بكونها زوجاً وزوجة . . .

وانطلاقاً من هذا الشعور العام الذي أثارتها المظاهر الخارجية في روعه ، رأى شيمامورا أنه من الأفضل إذاً أن يفكر في الفتاة بمعزلٍ عن وجود الرجل . وكان هذا الشعور ، لفرط ما طال به التأمل ، قد

اغتنى بانطباعات شخصية وبرود فعل ذاتية شديدة ولا تخلو من غرابة .

لقد حدث هذا قبل ثلاث ساعات، بينما كان شيامورا، دفعاً للضجر الذي يعانیه، يتأمل بشرود راحة يده اليسرى، ويحرك أصابعه محدثاً نفسه بأن لا شيء سوى هذه اليد، ولمسة أصابع هذه اليد، يحفظ التذكار الحسي المتوقّد، والذكرى الدافئة الشهوية للمرأة التي كان في طريقه لملاقاتها. ذلك أنها كانت تفلت من ذاكرته وتتبدّد كلّما حاول أن يتذكرها ولا تترك لها أثراً يتشبث به أو شيئاً يقدر أن يحفظ ذكراه. وفي الغشاوة التي اكتنفت كيانه لم يكن سوى هذه اليد اليسرى التي تحفظ التذكار الجليّ، كما لو أنه مائل الآن، للمسها الذي أفسح لشيامورا أن يستعيد الماضي. وأحس شيامورا بغتة بالحرارة المتوقّدة تحت ملمس يده، وكاد أن يقلقه واقع هذا الحضور الغريب أو ربّما استهواه قليلاً فأدنى يده من وجهه، وبإصبع ممدودة راح يرسم خطأ على الزجاج المغبش بحركات خاطفة وفي سرّه كان طيف عين أنثوية يترأى له، فيكاد أن يصرخ لهول المفاجئة. غير أنها لم تكن أكثر من حلم داخل حلمه، وأدرك المسافر بعد أن تمالك نفسه أنها لم تكن سوى صورة الفتاة الشابة قبّالته، وقد انعكست على زجاج النافذة. كان الظلام قد حلّ في الخارج، وأضيئت الأنوار داخل عربات القطار، فأصبح زجاج النوافذ أشبه بالمرايا؛ فقد حال الغبش الذي كان يُغطيها قبل ذلك دون استمتاعه بالرؤيا التي تراءت له عبر الخطّ الذي رسمه بإصبعه.

كانت العينُ التي رآها شيامورا على قدرٍ غير عاديٍّ من الجمال،

لكنه تظاهر بسقام السفر مُتضَجِّراً، وأدنى وجهه من النافذة كأنه يريد أن يتأمل منظر المساء، وَمَسَحَ الغبش عن زجاج النافذة.

كانت الفتاة جالسةً وقد حَنَتْ جذعها قليلاً إلى الأمام لكي يتسنى لها أن تراقب بانتباه حالة الرجل المتهالك على المقعد المواجه. وعندما لاحظ شيامورا هذا القدر من الانقباض في انعكاس وجهها على الزجاج، أدرك أن تيقظها الشديد هو الذي يُبقي عينها ثابتة ويُضفي على نظرتها ذلك البريق المفعم بالقسوة المنفرة خَلَلَ جفنين ثابتين. كان الرجلُ ممدداً وقد اتكأ رأسه إلى حافة النافذة ومدَّ ساقيه لِيُسند قدميه إلى المقعد حيث تجلس الفتاة. كانت العربية لمسافري الدرجة الثالثة، ولم يكن الزوجان يحتلان في الجهة الثانية من الممشى، مقعدين موازيين لمقعد شيامورا: فقد كان يجلس في الصف التالي أمامهما لذلك لم يكن في استطاعته أن يرى، في انعكاس النافذة - المرأة، سوى الملمح الجانبي من وجه الرجل حتى أسفل الأذن.

أما المرأة الشابة التي كانت تجلسُ قبالته على زاوية انحراف، فقد كانت في حقلِ نظره مباشرةً. ولكن حين صعد هذان المسافران الحديدان إلى العربية لم يستطع إلا أن يُغضي طَرْفه وكأنَّ إحساساً بالخفر قد انتابه فجأة لجمالِ المرأة الشابة ومسحة البرد المتحفّظ التي كانت ترسم على وجهها، ولم يقدر أن يرى حينذاك إلا أصابع المريض المعروقة الشاحبة مُمسكةً بذراع رفيقته. كان شيامورا قد أشاح ببصره عنها ودون أن يعي سبباً لما يفعله، لم يجرؤ بعد ذلك على النظر ناحيتها.

ما أصبح يراه من وجه الرجل في المرأة التي جعلها من زجاج

النافذة، سمة الاسترخاء ليس أكثر، والملاح التي تنعم باستسلام هادئ لدعة الطمأنينة، فيُخِيل إليه أن علة ما يراه هي نظرات الرجل المثبتة على نحر المرأة والساهمة فيه. كان شيامورا يرى في صورة الزوجين شيئاً من الانسجام المستمدّ ممّا في ظلّيهما الرهيفين من رقة واتزان. كان الرجل مُستلقياً باسترخاء متوسّداً طرف لفأعته فيما كان الطرف الآخر منها مُسدلاً على خدّه وفمه كقناع. وكان طرف القماش ينزلق أحياناً فيغطي أنفه أو ينحسر فيتكشف عن وجهه، وعندئذٍ تسارع المرأة الشابة، الساهرة المتيقظة، حتّى قبل أن يحرك ساكناً، فتدنو منه وتعيد كلّ شيء إلى حاله السابقة. ولفرط ما تكرر هذا الأمر متبوعاً بالحركة الآلية ذاتها أمام ناظري شيامورا لم يتمالك هذا الأخير ما استيقظ في روعه من شعورٍ بالضيق. وكانت المرأة ما أن تنتهي من أمر الوشاح حتّى تنهمك بذيل المعطف الذي يُغطي قدمي المريض، فينحسر ويتدلّى طرفه فلا تلبث المرأة أن تعيده إلى مكانه بحركة خاطفة شبه آلية. وكلّ ذلك كان يبدو تلقائياً، وهذان الشخصان يبدوان بمنأى عن أي إحساس بالزمان أو المكان، وكأنهما أعدّا العُدّة لمواصلة رحلتهما إلى الأبد والتوغل في بُعد المسافة إلى ما لانهاية. ولهذا السبب ربّما لم يُبد شيامورا، من جهته، أي إحساسٍ بالتعاطف أو الإشفاق أو الحزن التي قد يستثيرها مثل هذا المشهد المؤثر: كان يرى كلّ هذا دون انفعال وكأنّ الأمر لا يعدو كونه لعبة صغيرة داخل حلمٍ لن يلبث أن يتلاشى - وكان ذلك بالتأكيد تحت وطأة ما خلّفته فيه مرآته من أثرٍ غريب.

في الخلفيّة البعيدة جداً كان منظر المساء يرتسم متوالياً كأنه أصبح، على نحو ما، طبقة قصدير متهاوجة لهذه المرأة. وكانت

الوجوه البشرية التي تعكسها أكثر وضوحاً إذ تتداخل كصور مُضاعفة في شريط. لم يكن هناك بالتأكيد أي رابط بين الصور المتوالية في الخلفية المعتمة وتلك، الأكثر وضوحاً، للشخصين الجالسين. ومع ذلك كان الكل مُتناغماً في وحدة رائعة، فكم كانت الشفافية الأثيرية للوجوه تبدو مُلائمة ومُترجمة بالتشوش المُعتم للمنظر الذي يكتنفه الليل، ليشكلاً معاً كوناً واحداً وحيداً، ضرباً من العوالم التي تفوق الطبيعة، العوالم الرمزية التي لا تنتمي إلى هذه الأرض. عالم الجمال الذي لا يطول إليه وصف والذي كان يعصف بكيان شيامورا ويخرقه حتى القلب. شيامورا الذي أحسّ بالاضطراب كلما لاح ضوء في البعيد، هناك في الجبل، والتمتع بغتة على وجه المرأة الشابة فيُصبح آية لا توصف لجمال لا يوصف.

في السماء المعتمة، فوق الجبل، كان الغسق قد خَلَف بعضاً من مَسَحاته القرمزية ولا يزال في وسع الناظر أن يرى، في البعيد البعيد، ظلال القمم المستوحدة عند الأفق.

أما هنا، أقرب منها، فقد كان المنظر الجبلي نفسه يتوالى وقد أصبح مُطفأً فاقداً كل لون. ليس فيه ما يغوي العين. يتوالى كسيل من الرتابة ويزدادُ حياداً وانحاءاً ووهناً ما تتوالى عبوره على مقربة من ملامح المرأة الشابة وخلف هذا الوجه المثير الذي بدا أنه يبتسّم في الأرجاء المكفّهة مثله. صحيح أن صورة هذا الوجه نفسها كانت تبدو أقلّ حسيّة مما ينبغي فالأحرى أن تكون شفافة هي أيضاً. وفي سعيه لأن يتبين إذا كانت كذلك فعلاً حَسِب شيامورا لبرهته أنه يرى المنظر مقلوباً غير أن الصور كانت تتوالى بسرعة خاطفة فاستحال عليه

أن يتمالك هذا الانطباع .

كانت الإضاءة ضعيفة داخل العربة وما كان يراه شيامورا مجرد انعكاس لم يكن بوضوح ونقاء الصورة في مرآة حقيقية . وهكذا استطاع دون كبير عناء أن ينسى حقيقة أنه يتأمل انعكاس صورة على زجاج النافذة، وسرعان ما تنامي في داخله الشعور بأنه يرى هذا الوجه الأنثوي في الخارج عائماً يُودي به السيل المتدفق للمنظر الوحشي المدهم .

في تلك اللحظة بالذات التمع ضوءٌ بعيد وتألّق على الوجه . لم تكن الصورة، في لعبة الانعكاسات على المرآة، ترتسم بالثبات الكافي لكسف التماعة الضوء، ولكنها أيضاً لم تكن خاطفة إلى حدّ التلاشي خلفها . وتتبع شيامورا مواضع تنقل الضوء البطيء على الوجه دون أن يثير فيه اضطراباً . التماع بارد مبدّد في المسافة . وعندما اتّقد لمعانه الخافت في حدقة المرأة الشابة، وعندما تقاطع بريق النظرة والتماع الضوء المنبعث من البعيد وامتزجا، كان ذلك أشبه بمعجزة جمال يُشرق في كنف الغرابة، وتلك العين المشرقة التي بدت وكأنّها تبحر في أوقيانوس الجبال وموجها المتسارع .

كيف فطنت يوكو إلى حقيقة أن هناك من ينظر إليها؟ كانت لا تسهر لحظة واحدة عن رفيقها المتوَعك . وحتى لو أنّها رفعت عينيها ونظرت إلى شيامورا لما كان يسعها، على الأرجح، أن ترى انعكاس صورتها على الزجاج، لذلك لم يخطر لها أن تلتفت إلى ذاك المسافر الذي يمكث هناك، ببساطة، ويُطيل النظر من النافذة .

أما شيامورا فلم يخطر له، من جهته، أنه قد يكون من غير

اللائق أو حتى من الوقاحة أن يرمق بمثل هذه النظرات المرأة الشابة التي يحرص أن لا يدعها تغيب عن ناظريه، لشدة ما أسرته تلك الفتنة الخرافية والخارقة للوحة المائلة أمام عينيه، مسحوراً بالبهاء الغريب لذلك الوجه العابر في المنظر الليلي. لقد سها عن نفسه إذ تملكته فتنة تلك اللعبة حائراً فيما إذا كان يحلم أم لا.

عاوده إحساسه هذا عندما رآها تنهض، عند توقف القطار، وتدنو منه لتنادي ناظر المحطة، دون أن تفارقها علائم الرصانة والنبل، فدفعته أولى مشاعره نحوها لا أن يراها هي بل أن يرى فيها إحدى بطلات العصور السحيقة أو إحدى شخصيات عالم الأساطير.

كان الليلُ ومنظرُ الليل كله قد احتلَّ النافذة التي فقدت سحرها كمرآة عند توقف القطار. وكانت مسحة البرود في ملامح يوكو، وبرغم العناية الدافئة التي أحاطت بها رفيقها المريض قد تسرّبت، منذ بعض الوقت، إلى كيان شيامورا وجعلته يحسّ بالخيبة. وحين عاود القطار سيره لم يكلف نفسه عناء مسح الغبش عن الزجاج مجدداً.

وكم كانت دهشته عظيمة حين لاحظ، بعد نصف ساعة، أن المرأة الشابة ورفيقها سينزلان في المحطة نفسها! ولم يستطع أن يتمالك نفسه من الالتفات إليهما كأنه يرغب في التأكد أنه لا علاقة له شخصياً بهذه المصادفة الغريبة. غير أنه ما إن وطىء رصيف المحطة حتى أحسّ بقرصة برد مباغته أيقظته وأحسّ بالخجل من سلوكه اللفظ في القطار. ودون أن يلتفت إلى الوراء عبر الخط الحديدي أمام الحافلة.

حاول الرجل المريض وقد تشبّث بكتف المرأة النزول من الجهة الأخرى حين رفع أحد العاملين ذراعه محذراً.

وفي اللحظة نفسها انبثق قطار البضائع الطويل من العتمة فجأة وعبر أمامهما ببطء فحجبهما عن الرؤية.

كان حمال الياكويّا(*) حيث سيقيم، يُشبه واحداً من رجال الإطفاء بالزي الذي يرتديه من واقى الأذنين وجزمة الكاوتشوك. وبدأت في ردهة الانتظار امرأة ترتدي عباءة زرقاء ومُعتمرة تراقب ناحية الخطوط.

هل كان البرد قارساً حقاً؟ لم يكن في استطاعة شيامورا الذي غادر لتوه القطار المجهز بتدفئة جيدة أن يعلم. وكان ينظر بإعجاب إلى الأزياء الغريبة التي ارتداها سكان المنطقة كأنها المرة الأولى التي يأتي فيها لقضاء فصل الشتاء في بلد الثلوج.

«أهو موسم الصقيع قد حل؟» سأل شيامورا الرجل.

- ذلك أننا على أبواب الشتاء تقريباً. وعندما تنجلي السماء بعد تساقط الثلج لا بد أن يكون الليل بارداً جداً. وكن واثقاً أننا الليلة سنشهد موجة صقيع.

- تقول: صقيع؟

ولاحظ شيامورا وهو يستقلّ عربة الأجرة إلى جانبه أن خطوطاً من الجليد توشّي أطراف الشرفات. وكانت مداخل البيوت المنكفئة تبدو

(*) نزل على الطريقة اليابانية، يختلف عن الفنادق المعروفة في العالم.

في بياض الثلج غارقة في صمتٍ أعمق . وبدا أن كل شيء يكتسي
بصمت الأرض .

«لا يصعب علينا أن نتبين، على الفور، أن البرد هنا يختلف عما
هو عليه في مناطق أخرى . ونستطيع أن نحس بالفارق حتى عن
طريق اللمس .

- أكثر من عشرين درجة تحت الصفر في العام الماضي .

- وهل تساقط ثلجٌ غزيرٌ؟

- متران أو ثلاثة بالمعدل، وكان يحدث أن يصل ارتفاعه إلى أربعة

أمتار أحياناً، هذا ما أستطيع قوله لك!

- هل هذا يعني أن موسم الثلوج قد بدأ الآن؟

- إنها البداية، أجل . لقد بلغت كثافة الثلج حتى الآن ثلاثين

سنتمراً وقد ذاب قسم منه .

- ذاب؟ أيعقل هذا؟ أيحدث أن يذوب الثلج أحياناً؟

- ولكن كما ترى يحدث بين الليلة وضحاها أن يتراكم مثل هذا

القدر من الثلوج، وصدّقي حين أقول ذلك! .

كان شهر كانون الأول لا يزال في أيامه الأولى .

كان شيمامورا يعاني انسداد منخريه لإصابته بركامٍ شديد، إلا أن

البرد اجتاح جيوبه الأنفية ونصف دماغه دفعةً واحدة وكان عليه أن

يتمخّط لينعتق تَوّاً كأنه غُسل من كل ما كان يُعيقه حتى اللحظة .

سأل البوّاب : «أما زالت المرأة الشابة التي كانت تقيم لدى استاذة

الموسيقى في هذه البلاد؟

- طبعاً. إنها هي التي كانت تنتظر في المحطة. ألم ترها إذا؟ كانت ترتدي عباءة زرقاء...
- آه! هي إذا؟ لم أنتبه. ولكن في إمكاني ربما أن أطلب منها الحضور، أليس كذلك؟
- لهذه الليلة بالذات؟
- أجل، هذه الليلة.
- ذلك أنه بلغني أن ابن مدرّسة الموسيقى وصل في القطار الذي كنت فيه. وأنها كانت هناك لاستقباله.

ابن أستاذة الموسيقى! الرجل المريض الذي كان يراه في مرآة الليل، رفيق رحلة يوكو: إنه ابن صاحبة البيت حيث تقيم المرأة التي جاء من أجلها! صُعِقَ شيامورا وشعر بأن ردّ فعله الفاتر حيال هذه المفاجأة الغريبة هو الذي يجعله أقلّ اكترائاً ممّا ينبغي.

كان يراوده سؤال يقرأه بوضوح كمن يقرأ كلاماً مدوّناً في رأسه: ما الذي جرى أو سيجري بين المرأة التي ما زالت راحة يده تحفظ ذكراها الدافئة وتلك التي رأى في عينيها التمايع البريق الجلي البعيد؟ أو ربما أيضاً لا يزال هو نفسه أسير تلك الخيالات السحرية لمرآة الليل وفتنة المنظر الذي تراءى من خلالها... إلّا إذا كان كلّ ذلك لا يعدو كونه الرمز الحيّ لانقضاء الزمن.

كان عدد النزلاء في نزل الينبوع الحار أقلّ ممّا هي العادة خلال الأسابيع القليلة التي تسبق موسم التزلّج. وبعد أن استحم ألفى شيامورا نفسه في دارة أطبق عليها النوم. كان يسير في الرواق الطويل موقظاً في كلّ خطوة صدىً بعيداً ترتجّ له مربّعات الأبواب

الزجاجية لبعض الوقت. ليس أكثر. غير أنه حين استدار عند الزاوية لمح خيال المرأة النحيل واقفاً أمام مكتب الاستقبال وقد ارتدت الكيمونو الطويل الذي بدا له برّاقاً وقائماً بشيائه الكابية التي تسحب على الأرضية المشمعة.

لم يتمالك شيامورا رجفةً انتابته حين رآها مرتدية الكيمونو الطويل. هل أصبحت أخيراً فتاة غيشا؟ لم تتقدّم المرأة الشابة نحوه ولم يبدر منها ما يشير إلى أنها عرفته. وهكذا رأى شيامورا في وقفها الثابتة الصامته نوعاً من الوقار الخالص. فدنا منها بسرعة دون أن ينبس. بادرت إلى الابتسام وقد طالعت بوجهها الذي تغطيه طبقات كثيفة من المساحيق على طريقة فتيات الغيشا، ثم انهمرت دموعها فبلّته. ودون أن يتبادلا كلمة واحدة اتجها نحو غرفته.

برغم كلّ ما جرى بينهما لم يكتب لها ولم يأت لرؤيتها كما أنه لم يرسل إليها الكتب التي تعلم أساليب العزف كما وعدها. كانت لديها كافة الأسباب التي تجعلها تظن أنه أمضى وقتاً ممتعاً معها قبل أن ينساها. ولذلك كان على شيامورا أن يبادر إلى الاعتذار وعليه إذاً أن يبدأ هو بالكلام. إلّا أنها في سيرهما معاً دون أن يتبادلا كلمة أو حتى نظرة واحدة، أدرك شيامورا أنها ليست حاقدة عليه، لا بل إن الغبطة تفعم قلبها وتغمرها السعادة لرؤيته من جديد. فما فائدة الكلام إلّا تأجيج ما كمن في ذات نفسه من اشتياق، وكان شيامورا في استسلامه لسحر اللحظة، يتوغل قُدماً في عالم من الرقة والهناء. وعندما أصبحت في محاذاة الدّرج مدّ ذراعه نحوها وبسط كفّه اليسرى أمام عينيها.

- إنها هي التي حفظت منك أجمل ذكرى.
- حقاً؟ قالت وشدّت بيدها على كفّه كأنها تريد استدراج شيامورا إلى الطابق العلوي.

ظلت اليد الأنثوية تشدّ على أصابع الرجل ولم تفلتها حتى أصبحت أمام «الكوتاتسو»(*) في وسط الغرفة. وفجأة تورّدت وجنتا المرأة الشابة برغم المساحيق، وفي سعيها لإخفاء ارتباكها قالت وهي تشير إلى يد شيامورا:

- أهي التي تذكرني؟
- ليست اليد اليمنى، لا: بل هذه! قال موضحاً وقد مدّ يده اليسرى باسماً كفّها بينما اندست يده اليمنى تحت غطاء الكوتاتسو ليدفنها.

- أجل، أعلم، قالت بابتسامة خفرة وأمسكت يد شيامورا بحنان بين يديها الاثنتين ووضعتها على خدّها برفق.

- «لقد تذكرني؟ همست ساهية وكأنها تخاطب يده.
- آه كم هو بارد! قال شيامورا مبدئاً دهشته حين لمست أصابعه تسريحة شعرها العالية. لم ألمس في حياتي تسريحةً بمثل هذه البرودة.
- أما من ثلوج في طوكيو بعد؟ سأله.

- أوتدرين، قال شيامورا، ما كنت تقولينه في المرّة السابقة لم يكن

(*) وسيلة تدفئة دارجة الاستعمال في اليابان. عبارة عن إطار مغطى بوسادة سمكية. إنها مدفأة كبيرة، نوع من المقعد حيث يستطيع الجالس أن يعرض قدميه ويديه، تحت الغطاء، لحرارة جرم مشتعل.

صحيحاً بالفعل. وإلا كيف يخطر لمن هو مثلي أن يأتي، في نهاية
السنة، مُعرضاً نفسه لأن تتجمّد أوصاله من البرد في بقعةٍ نائية مثل
هذه؟».

... في المرة السابقة. كان ذلك يوم افتتاح موسم التسلق، حين تكون أخطار الإنهيارات الثلجية قد زالت، وحين تُصبح النزهة ممتعةً عند أعلى الجبل الذي استعاد خضرته الوافدة وعطور ربيع الزكية، وحين لا تعود نُبوت الأكبي الطرية توضع على الموائد لتزيّن وجبات الطعام.

كان شيامورا الحائر في عيشه المتبطل كثير الأهواء، يحاول أحياناً أن يهتدي إلى ذاته. وعندها كان يرغب في السفر وحيداً إلى الجبل بمفرده. وهكذا قادته أسفاره ذات مساء إلى منتجع الينابيع الحارة في ختام جولةٍ استغرقت أسبوعاً كاملاً في سلسلة «الأرياف الثلاثة» الجبلية. وطلب عندها أن يأتوا إليه بإحدى فتيات الغيشا. ولكن لسوء الحظ، على ما أخبرته الخادمة، يُصادف اليوم قيام احتفال حاشد لمناسبة افتتاح الطريق الجديدة، واضطروا إلى فتح العنبر الذي يُستخدم أحياناً كقاعة مسرح. وهذا يعني، إذا فهم جيداً، أن الاثنتين أو الثلاث عشرة غيشا اللواتي يعملن في المنطقة لسن متفرّغات في الوقت الحاضر. ولكن ربّما كانت الأنسة التي تقيم في دارة استاذة الموسيقى قادرة على المجيء، قالت الخادمة. إذ يحدث أن

تشارك أحياناً في الاحتفالات، إلا أنها لا تمكث أبداً حتى النهاية، فلا تلبث أن تعود إلى دارها بعد رقصتين أو ثلاث.

ولما كان شيمامورا قد أكثر من الأسئلة حول الفتاة، لم يكن في وسع الخادمة إلا أن تخبره المزيد عنها. فهي ليست فتاة غيشا حقيقية، لا. إنها آنسة تقيم في دارة أستاذة الموسيقى، وهي بدورها أستاذة رقص وعزف على آلة الساميسن(*)، ويتم استدعاؤها أحياناً فلا تبخل بالعون. ذلك أن فتيات الغيشا المحترفات في المقاطعة لم يدرّبن مبتدئة واحدة، ويفضّلن، جميعهن تقريباً، ألا يُرغمن على أداء رقصة ما خشية ألا تسمح لهنّ أعمارهن بذلك... ولذلك كانت مشاركة أستاذة الرقص تلقى ترحيباً واستحساناً. إلا أنها، برغم ذلك، ما كانت لتقبل على الإطلاق أن تأتي بمفردها للترفيه عن أحد نزلاء الفندق. ولكن برغم كونها فتاة غيشا غير محترفة فلا يمكن القول، مع ذلك، إنها تعمل كهواية ولا أن يُنظر إليها على أنها كذلك.

يا لها من حكاية غريبة! ردّد شيمامورا في سرّه قبل أن تراوده أية خاطرة أخرى. وفي غضون ساعة تقريباً عادت الخادمة وفي رفقتها «الآنسة التي تقيم في دارة أستاذة الموسيقى». ولم يتمالك شيمامورا حركةً منه تنمّ عن إحساسه بالمفاجأة.

كانت الخادمة تهّم بالإنصراف حين نادتها المرأة الشابة تسألها البقاء معها.

وكم كان مُذهلاً ذلك الانطباع الذي أشاعته من حولها لفرط ما

(*) آلة موسيقية ذات ثلاثة أوتار، تعزف عليها عادةً فتيات الغيشا حسب التقاليد اليابانية.

أوحت طلعتها بالنظافة والطراوة! وفكر شيامورا لبرهة أن جسدها كله يرفل بنقاء لا يشوبه دنس حتى أدق تفاصيله وأكثرها صميمية، وبلغت به أفكاره إلى حدّ التساؤل عما إذا كان هذا القدر من النقاء ليس أكثر من سرابٍ تختلقه أنظاره المفتونة ما تزال بتلك الروعة الصافية الشفيفة لصيفٍ وليدٍ على الجبل.

لم تكن مُرتديةً الكيمونو ذا الرِّفْل إلا أن شيئاً ما في هندامها يجعلها تبدو كفتاة غيشا. كانت ترتدي كيمونو صيفياً أنيقاً بلا بطانة. إلا أن الأوبي(*) فوقه بدا باذخاً لا يتلاءم والكيمونو، بل يكاد يضيف عليه مسحة من الكآبة.

ما أن لاحظت الخادمة أنها شرعا بالحديث عن الجبال، حتى انتهزت انشغالها عنها لتتصرف. وهكذا أصبحت منفردين وبما أنها لم تكن واثقة من أسماء القمم التي تمكن مشاهدتها من خلال النافذة، كان لا بدّ لمحادثتهما أن تتوقف. لم يكن لدى شيامورا أي رغبة في الشراب. وفي آخر الأمر ارتأت المرأة الشابة أن تحدّثه عن ماضيها وهذا ما فعلته بالفعل وكان حديثها أسراً بطلاقة وحياد نبرته.

هي من مواليد بلد الثلوج هذا؛ وفي طوكيو وقعت عقداً يلزمها بأن تصبح فتاة غيشا وسرعان ما وجدت من يرعاها ويُعيلها فحررها من العقد وراح يُعدّ العدة لأن يجعل منها أستاذة رقص، عندما، واحسرتها، عاجله الموت ولم يمض على لقائهما أكثر من ثمانية عشر شهراً. ولكنها ما أن وصلت في حديثها إلى هذا الحدّ وأصبحت الحكاية أقرب إلى ما تحياه في الوقت الحاضر بدت أكثر فأكثر تكتماً.

(*) زنار عريض يُشدّ فوق الزي الياباني التقليدي.

وبدا بوضوح أنها لا ترغب في مكاشفته بهذا الجانب من حياتها ولعلّه الجانب الأشد اضطراباً. وباحت لشيامورا أن عمرها تسعة عشر عاماً فيما كان يميل للإعتقاد بأنها في الحادية أو الثانية والعشرين.

لم يكن لدى شيامورا ما يدفعه للإرتياب بصحة ما تقول، وعندما باحت له بعمرها ولاحظ أنها تبدو أكبر سناً، أحسّ بشيء من الإرتياح واستعاد ذلك الرغد الذي كان يُمني به نفسه من رفقة فتاة غيشا حقيقية. عندما انتقل بهما الحديث إلى الكلام على مسرح الكابوكي تبين له أنها تعرف الكثير عن الممثلين والأساليب المتنوعة، الأمر الذي أذهله. والحقيقة أنها كانت تبدي قدراً من الطلاقة في حديثها المتدافع المحموم كأنها مكثت زمناً طويلاً في انتظار المستمع المرتقب. ثم سرعان ما تخلّت عن تحفظها مُبديةً بعض ما في دخيلتها من ثقةٍ ويُسر في السلوك يُتيحان، بلا ريب، أن تظهر فيها شخصية المرأة التي اكتسبت دُربةً ومراناً وأصبحت، في الأغلب، على قدر من الدراية المعنوية بأمور الرجال. غير أن هذا كلّهُ لم يُحلّ دون إحساس شيامورا بأنه عاجز عن النظر إليها كمحترفة. أصبح لا يرى فيها صورة المرأة التي جعلته عزلة الأيام السبعة في أعالي الجبل تائقاً لرفقتها. فالمرأة الشابة التي تقف أمامه لا توقظ في أعماقه إلا مشاعر الصداقة الناصعة، وأحسّ بالغبطة إذ وجد أنها، على العكس من ذلك، خليقة بأن تقاسمه النشوة السخية وبعض صفاء السريرة اللذين اكتسبهما جرّاء إقامته في الأعالي.

بعد ظهر اليوم التالي جاءت المرأة الشابة للاستحمام في أحواض المياه الحارة التابعة للنزل فوضعت حاجياتها في الرواق ودخلت بقصد التحدّث إلى شيامورا.

وما كادت تجلس حتى طلب منها أن تستدعي فتاة غيشا.

«غيشا، لله أنت...؟»

- بالطبع... أنت تدركين جيداً ما عنيتُ بقولي!

- لم آت إليك لأسمع منك هذا الطلب! أجابت بنبرة استهجان وتورّد وجهها حياءً. ثم نهضت لا تتمالك انفعالها وسارت نحو النافذة حيث مكثت طويلاً محدّقة في الجبال. ودون أن تلتفت نحوه أردفت قائلة:

- «ليس لدينا هنا هذا النوع من النساء.

- كُفّي عن التفوّه بحماقات.

- ولكنّ ما أقوله صحيح!»

كانت قد استدارت نحوه هذه المرّة ومكثت قبالتها متكئة في نصف جلسة على حافة النافذة.

«في بلدنا هذا تتمتع فتيات الغيشا بحريتهنّ كاملةً وليس في وسع أحد أن يُرغمهن على الإتيان بما لا يرغبن فيه. وكُن على ثقة من أنّ النزل لن يتكفّل بذلك. إلّا أنّ هذا لا يحُول دون استدعائك فتاة غيشا، إذا كنت مصراً على طلبك، على أن تتولّى الاتفاق معها بنفسك.

- لا، لا. بل أنت ستفعلين ذلك لأجلي.

- ولكن عفوك، وما الذي يدفعك للإعتقاد بأنني سأقبل بذلك؟

- ذلك أنني أنظر إليك كصديقة، وأحرص على أن تبقى علاقتنا

على ما هي عليه، وإلّا لما كان هذا سلوكي حيالك.

- وهل تجد أنّ علاقة الصداقة تدفعك للسلوك على هذا النحو؟»

أجابته بتهوّر الطفولة وسحرها التلقائي .

ولم تمض هنيهات قصيرة حتى عاودت تهجمها عليه وقالت مغیظة حانقة :

- لم أكن أحسب أنك قد تجرؤ على مثل هذا الطلب! أوه! إنه أمر رائع! رائع حقاً!

- ليس في هذا الأمر ما يستدعي كل هذا الغضب . قال شيامورا جازماً . فقد عدتُ للتو بعد إقامتي أسبوعاً كاملاً في أعالي الجبل ، وربما هذا ما جعلني أشعر بحيوية مفرطة . ولشدة ما تتجاذبني تلك المخاطر التي تدور في رأسي الحار لا أقوى على التحدث إليك بهدوء ، منفردين في هذه الغرفة كما قد يحلو لي .

لزمت المرأة الشابة صمتها المطبق ومكثت مُطرقةً . وكان شيامورا يعلم جيداً ، وقد قيل ما قيل ، أنه بدا وقحاً ومُتهكماً إذ باح لها ، ببساطة ودون أدنى حرج ، بمتطلبات جسمه كرجل ، غير أنه بحسب من جهة أخرى ، أن للمرأة الشابة ما يكفي من الدراية بمثل هذه الأمور فلا تستهجن إعرافه . تأمل وجهها فرأى فيه دفناً شهوياً قد يكون نابعاً من طول أهدابها الاثيثة الرائعة التي يُبرزُ الاغضاء فتنتها ويزيد .

نَحَتْ برأسها قليلاً وقالت وقد ازداد وجهها احمراراً :

«استدع من تشاء من فتيات الغيشا .

- أليس هذا بالضبط ما أردتك أن تفعل به؟ أنا لم أكن في ناحيتكم من قبل فكيف لي أن أعرف أيهن أمتع رفقة؟

- الأمتع رفقة؟ ماذا تقصد بقولك هذا؟
- أقصد، أن تكون صغيرة السنّ مثلاً. فالصبأ لا يدع مجالاً
للاغترار بالمظاهر. وأن لا تكون ثرثارة، بل نظيفة وغير مُفرطة
الذكاء. فإن رغبتُ في المحادثة ناديتُ عليك، أنتِ.

- لن أستجيب لندائك.

- هيا، لا تكوني حمقاء!

- أقول لك إنك لن تراني بعد الآن. فلأي سبب أعود؟
- ببساطة، لأنني أحرص على أن نكون صديقين. وشرحتُ لك
منذ قليل أن هذا هو سبب سلوكي.
- أوه! كفى!

- لنفرض أنني جاريتك في مُبتغاك، فما الذي يحدث؟ الأرجح أنني
في صبيحة اليوم التالي، سأفقد أي رغبة في التحدّث إليك. وستصبح
رؤيتك، مجرد رؤيتك، مصدر ألم ومشقة. لقد كان عليّ أن آتي وأقيم
في الجبال كيما أستعيد حاجتي لمحادثة الآخرين، أوتدركين ماذا
أقصد؟ ولكي يسعني أن أبادل الحديث معك، ولكي يسعنا أن
نتحدث معاً امتنعتُ حتّى عن لمسك. ثمّ ألا ينبغي أن تكوني أنتِ
أيضاً في الحسبان؟ يبدو لي أنك لست مُرغمةً على مثل هذا الحذر
وهذا التحفظ في صلتك بالسيّاح... فهم ليسوا أكثر من عابري
سبيل.

- بلى، هذا صحيح.

- بالطبع. إذا ضعي ما أنت عليه في الحسبان. فما الذي قد تريه
في رجلٍ على غرار أولئك: أنتِ بالذات مَنْ سيرفض رؤيتي فيما

بعد. لا، لا، من الأفضل بالتأكيد أن تقومي أنت باختيار الفتاة.
- كفى! لم أعد أصغي إليك» قالت وقد أشاحت بوجهها حانقةً.
إلا أنها تابعت كلامها بعد هنيهة من التفكير:
- ربما كنتَ محقاً بعض الشيء في ما تقول.
- إنها مسألة لا تستغرق أكثر من لحظة عابرة، أوتدركين قصدي.
ليس فيها ما يدعو إلى العجب... بلا أهمية، وليدة اللحظة وتزول معها.

- بلى، على الأرجح. هذا ما يراه الجميع، أقصد أولئك الذين
يأتون لزيارة هذه المنطقة. تماماً كما تجري الأمور في ميناء، حيث
ولدت. وبأية حال ليس هذا سوى منتجع للينابيع الحارة: يقضي فيه
الزائرون يوماً أو يومين ثمّ يرحلون».

بدا عليها الاسترخاء التام هكذا بغتةً وبلا مقدمات، كأنها
استعادت تلك العفوية في نبرتها وسلوكها.

- «النزلاء هنا هم في معظمهم من السياح. لست سوى صبيّة
صغيرة، بالتأكيد، إلا أنني أعرف الحكاية لفرط ما ترددت على
مسامعي. إنه الزبون الذي لا يقول لك شيئاً، والذي يبدو محبباً بلا
سبب واضح، الرجل الذي لا يبثك حنانه ومع ذلك لا تملك إلا أن
تنعم بالإحساس به، بلى، ذلك هو بالضبط من تُحفظ له أجمل
ذكرى. فبعد أن يغادر، ولوقتٍ طويل، تحفظ من حضوره متعةً ما
تدوم، أو هكذا تبدو لك الأمور. وإذا كتب لك أحد ما، فلن يكون
سواه».

وبقفزة رشيقة غادرت حافة النافذة وجاءت تقتعد الحصر عند

قدميه . بدت الفتاة مُستغرقةً في ماضيها، ومع ذلك أحسّ شيامورا بأنها أقرب إليه من أي وقتٍ مضى . لقد تناهت إليه براءةٌ مؤثرة في صوتها . نبرةٌ من العفوية أربكته لشدة ما بدت مُباشرة: كان يشعرُ بأنه مذنب قليلاً ولا يفارقه الإحساس بأنه حظي بها بأسهلٍ ما يكون، وعلى رغمهِ تقريباً .

إلا أنه لم يكذب عليها . فقد كان عاجزاً بالفعل عن النظر إليها على أنها فتاة غيشا محترفة، ومهما بلغت شهوته لامرأة ما فهي لا تحيد عن كونها شهوةً تصبو لأن تُشبع ، لا غيرَ ولا أكثر . ولم يكن في مراده أن يستغلّها لمثل هذا الغرض . صفوة ما أراده هو أن يكون الأمرُ عابراً ولا قيمة له فلا يرتب عليه أي التزام لاحق . وكانت المرأة الشابة تبدو في عينيه صورة للنقاء الأنصع . وما أن لمحها للمرة الأولى، شعر بأنه عاجزٌ عن النظر إليها كفتاة بين أخريات .

ثم أن شيامورا الحائر في مشكلة حلول العطلة بحثاً عن المكان الملائم الذي قد يلوذ به وعائلته من قيظ الصيف، كان قد اعتزم العودة إلى هذه المنطقة الجبلية . ويميّز النفس بأن تصبح المرأة الشابة التي تبين، لحسن الحظ، أنها غير محترفة، الرفيقة الملائمة لزوجته . ولماذا لا يطلب منها أن تلقنها دروساً في الرقص للتسرية عنها؟ كان يفكرُ جدّياً في الأمر . وإذا كان يزعم أنه لا يطمع بغير علاقة صداقة معها فلأنّ لديه جملةٌ من الأسباب التي تجعله يؤثر الوقوف على الضفة لا أن يخوض في الغمار .

ولكن خلفَ كلّ هذا كانت فتنة ما تُلقِي ظلالها وتسودُ كسحرٍ لا يُضاهى أشبه بذلك السحر الذي أغواه في القطار قبالة المرأة التي

اتخذت من الليلِ قعراً. وبالطبع كان شيمامورا شديد التوجس من حجم التعقيدات التي قد تثيرها علاقته بامرأة شابة يكتنفُ الغموضُ ظروف حياتها. بيد أن ما كان يستسلم له هو نوعٌ من الوهم، مُنقاداً إلى ذلك الإحساس العجيب بالشفافية الرقيقة الذي أثارته فيه والأقرب إلى شاعرية الإنعكاس الغريب الذي لاح له في المرأة: ذلك الوجه المفعم بإثارة الأنوثة والشباب عندما رآه عائماً على المنظر المنسرب للغسق العابر وللليل.

والحقيقة أن استسلامه لمثل هذا الإحساس بالوهم هو الذي كان يغذي شغف شيمامورا بالرقص الإيقاعي الغربي. فقد ولد وترعرع في أحد أحياء الوسط التجاري في طوكيو حيث اكتسب، ومنذ الطفولة، معرفة وثيقة بمسرح الكابوكي. وفي مرحلة الدراسة الجامعية كان مولعاً بعروض الرقص أو الدراما الإيمائية. ولشدة ما ألح عليه إحساسه بأن شغفه لن يهدأ قبل استنفاد موضوعه على أكمل وجه، دفعته أبحاثه العلمية إلى مطالعة الوثائق القديمة وإلى إقامة علاقات صداقة مع أساتذة المدارس التقليدية الأوسع شهرةً ومع الفنانين الذين يمثلون الاتجاهات الحديثة. كان يؤلف الأبحاث ويدبج المقالات النقدية. ولكنه، في ما توصل إليه من علمٍ ودراية بهذا الشأن، لم يلبث - وأسبابه واضحة - أن استشف، وبكثير من المرارة، انحطاط تقليد جعلته السنوات الطويلة مستنفداً، ولم يستطع في إدراكه هذا أن يلتفت إلى محاولات مجددين ادعياء لم تكن في الحقيقة أكثر من رغبة في المحاباة. وعندئذ وجد أنه أصبح مرغماً على الدخول في هذا المعترك بصفة مباشرة وهذا ما دعت إليه وبإلحاح كل

الأسماء المرموقة والشابة في عالم الرقص . وفجأة أحسّ بتبدّل عميق في اهتماماته وأصبح مولعاً بالباليه الغربي وأقلع نهائياً عن مشاهدة الرقص الياباني . لا بل راح يبحث وينقبّ عن الأبحاث والوثائق، الصور والمقالات وكلّ ما استطاع العثور عليه من معلومات حول فن الرقص في الغرب ومختلف تظاهرات وعروض الرقص الإيقاعي التي جمع ملصقاتها وبياناتها وبرامجها بعناية حتّى لو اضطر إلى طلب بعضها من الخارج، ولم يتمّ له ذلك بالطبع إلّا بعد تجاوز ما لا يُحصى من الصعوبات التي يمكن تخيلها بسهولة . والحقيقة أنّ الأمر كان يتعدّى مجرد الفضول لشغفه بهذا النوع المجهول من الرقص والوافد من بلاد بعيدة: فقد كان شيهامورا يتلذذ بالمتعة الأصفى ويبلغ ذروة اللذات لعجزه عن مشاهدة هذه العروض شخصياً، ولاستحالة أن يرى بأمّ عينيه الراقصين الغربيين يؤدّون رقصة الباليه الغربية . ذلك أنّه رفض دوماً أن يشاهد ما يبتكره اليابانيون في هذا المجال . ولم يكن ثمّ ما يُغبطه أكثر من تدبّيج مقالة حول الباليه أو الكتابة حول فن الرقص التوقيعي، انطلاقاً من معرفته الكتيبة البحثية . وأصبح الباليه الذي لم يره في حياته كأنّه الفن المثالي في عينيه، كأنّه الحلم الوافد من عالم آخر، فردوس التناغم وذروات الكمال، وانتصار الجمالية البحثية . ومهما حاول أن يخفي شغفه هذا بلبوس الدراسة والأبحاث العلميّة، فإنّ مراد شيهامورا إنّما كان السعي وراء حلمه بعيداً عن الصور والكتب الغربيّة . فما الفائدة من أن يدع نفسه عرضةً للخيبة حيال عروضٍ قد تكون مُحبطة إذا ما شاهد رقصة الباليه مُجسّدةً في مشهد، بينما في وسع مخيلته أن تصوّر له الرقصة المشتهاة في مشهدٍ فريد لا ينتهي؟ كانت مُتعة مordاً لا ينضب من الملذّات القصوى على غرار

العاشق المثالي، العاشق الأفلاطوني المتسامي الذي لم يلتق يوماً بموضوع غرامه. غير أن هذا كله لا يستنفد مقادير الغبطة التي كان يحظى بها شيامورا من تلك الحالة الخاصة، ذلك أن مُتَبَطِّلًا مثله، إذا توخينا الصدق، ما كان ليتربّع في عالم الأدب دون كراهية وهو الذي لم يحمل لا أعماله المنشورة بين الحين والآخر ولا كاتبها على محمل الجدّ.

على الرغم من ذلك فقد كانت تلك بلا ريب المرّة الأولى منذ زمن بعيد جداً التي تعينه فيها مؤهلاته على انجاز أمر ما، بما أنها أتاحت له، خلال المحادثة، أن يُقيّم صلة حميمة بالمرأة الشابة التي تعرّف إليها منذ قليل. ولكن أيضاً قد يكون شيامورا وجد نفسه مدفوعاً من غير قصد لأن يرى إليها كما اعتاد أن يرى إلى الرقص.

ما أن أدرك شيامورا حقيقة ما أبدته من الانفعال لدى سماعها الكلام الذي أطلقه جزافاً على السائح الذي لا يأتي إلا ليغادر في اليوم التالي، حتّى أحسّ بالخجل كأنه أفرط في استغلال براءتها أو عبث بمشاعر قلب كتومٍ وصادق. لكنّه لم يبدِ شيئاً ممّا تراءى له وأردف قائلاً:

- قد أعودُ إلى هذا المكان في رفقةِ العائلة، وقد نصبح، جميعنا، أصدقاء.

- أجل، أجل، لقد فهمت جيّداً، قالت بنبرةٍ أرادتها أقلّ جفاءً وارتسمت على شفيتها ابتسامة فيها الكثير من بشاشة فتيات الغيشا. في آخر الأمر، أجد أن هذا أفضل من أشياء كثيرة أخرى، فعندما نلتزم حدود الصداقة نرى أن الأمور تدوم.

- إذاً، أتأتيني بفتاة ما؟

- في مثل هذا الوقت؟

- في مثل هذا الوقت.

- وما الذي ستقوله لامرأة في وضوح النهار؟

- إن انتظاري حتى المساء يعني أن أقع على فتاة لم يرغب بها أحد.

- أنت تحسب إذاً أن منتجعنا هذا لا يعدو كونه أحد الأماكن

العادية! وكنتُ أحسب أن نظرة واحدة على أنحاء البلدة لا بد أن

تكون كافية لإبراز الفرق» قالت بشيء من الحسرة وبنبرة جافة تُظهر

مقدار شعورها بالإساءة.

وحيال الشكوك التي أبدتها شيامورا بشأن إصرارها للمرة الثانية،

وبنبرة جازمة كما في المرة الأولى، على أن فتيات الغيشا في تلك الناحية

لسن من النوع الذي يتخيله، بدرت منها إيماءة غضبٍ لم تلبث أن

تمالكتها. بآية حال، قالت، ليس على الفتاة إلا أن تقرّر بنفسها إذا

كانت ترغب أو لا ترغب في المكوث خلال الليل. فإذا فعلت من

تلقائها عليها أن تتحمل كامل التبعات. أما إذا مكثت بعد استئذان

الدارة التي تنتمي إليها، فيكون على الدارة عندئذ أن تتحمل كافة

التبعات. ذاك هو الفرق.

- التبعات؟ سأل شيامورا.

- أجل، كلّ ما قد يطرأ من تبعات... تحمل أو طارئ صحي».

لم يستطع شيامورا بعد أن أدرك حماقة سؤاله إلا أن يتكلف

ابتسامة مصطنعة. فباعتبار كلّ شيء يبدو أن الأصول المرعية هنا، في

هذه الناحية من الجبل، بين الغيشا وسيدها تجعل علاقتهما مريحة

وخالية من التعقيد . . .

ربما كان شيامورا بحساسية المتبطل الأقرب إلى الأنانية يتمتع بنوع من الحدس يؤهله، من دون سواه، لاكتشاف أعماق ما في طبيعة الأمكنة التي يحلّ فيها. ودون أن تغترّه مظاهرها السطحية كان يهتدي إلى طابعها الحميم والحقيقي الذي لا يعكسه المظهر الخارجي دائماً. وكان أول انطباع لديه بعد أن غادر جباله قاصداً تلك البلدة أنها لا بد أن تكون مليئة بالمباهج وأسباب الراحة التي يُخفيها طابعها الريفى البسيط، ولم يكن مخطئاً في ذلك بالفعل، إذ لم يلبث أن أدرك في النزل فور وصوله إليه أنها إحدى أكثر البلدات ازدهاراً في كافة الأنحاء المجاورة لبلد الثلوج. فحتى تاريخ افتتاح خط السكّة الحديد مؤخرًا كانت منطقة الينابيع الحارة لا تستقبل، ولأسباب طبيّة، سوى أناس من سكّان الجوار. لذلك فإنّ كلّ دارة تستخدم فتاة غيشا تحولت خلف يافطتها الحائلة إلى صالة شاي أو إلى مطعم لا يرتاده الناس إلّا فيما ندر. وما يؤكد هذا الانطباع كثرة الأبواب الجرّارة القديمة الطراز وصفاقة ورقها المزّين والمسود لفرط قدمه. أمّا دكاكين السمان والبزارة وبائع الكعك فربما كان لملكها فتيات غيشا يتولّين أعمالهم إلّا أن لكلّ واحد منهم مزرعته الصغيرة في الجوار بالإضافة إلى الدكان وفتاة الغيشا. فلا يحق لأي غيشا إذاً أن تشعر بالاستياء إذا صادفت، من وقت لآخر، فتاةً ما ليست فتاة غيشا محترفة تشارك بدورها في أمسية ترفيه. فكيف إذا كانت الفتاة المعنية هي الفتاة التي تقيم لدى أستاذة الموسيقى.

- كم يبلغ عددهن بالإجمال؟ سأها.

- الغيشا؟ أوه! اثنتا عشرة أو ثلاث عشرة فتاة.
- ومن منهنّ أختار برأيك؟ ألحّ شيامورا وقد نهض لينادي على الخادمة.

- أرجو المَعذرة، قالت. ولكن إذا سمحت، ينبغي أن أغادرك.
- لا، لن أسمح بهذا، قال شيامورا معترضاً.
- ولكن لا ينبغي أن أمكث هنا، قالت بشيء من الحسرة لأنها تبذل ما بوسعها لكي لا تشعر بالمهانة. سأغادر. ولا تقلق، لستُ غاضبة وسأعود في وقت لاحق».

وعلى الرغم ممّا قالته، ما أن وصلت الخادمة حتّى عادت إلى مكانها على الحصار وكأنّ شيئاً لم يكن. وحاولت الخادمة مراراً أن تسأل عن اسم الفتاة التي ينبغي أن تستدعيها ولكنّ المرأة الشابة رفضت رفضاً قاطعاً أن تسمّي إحداهنّ.

كانت الغيشا التي وصلت بعد ذلك بقليل في السابعة أو الثامنة عشرة من عمرها. وما أن رمقها بنظرة واحدة حتّى أدرك شيامورا أن رغباته قد تبدّدت بغتة. كانت ذراعها بنحولٍ ذراعي فتاة مُراهقة، ويضاعف من رِقَّتِهما بروز التجويف المعتم للإبطين، وبدا من مظهرها أنها ليست سوى فتاة صغيرة لم تبلغ بعد. حاول شيامورا ما في وسعه كيما يخفي خيبة أمله، وكان لائقاً في سلوكه معها برغم استغراقه في تأمل منظر الإبراق المنعش على السفح، خلفها، من خلال النافذة. هل يتبادل أطراف الحديث مع تلك الفتاة؟ هل يتحدث إلى ذلك النموذج المثالي لفتاة الغيشا في الريف؟ لا، مثل هذا الأمر ليس في طاقته واحتّماله!... لذلك كان الصمت الذي ساد لقاءهما كئيماً

وصفيقاً ومُربكاً. وعندما غادرت الأخرى، رفيقته الأولى، ظناً منها
بلا ريب أنها ينبغي أن تفعل بدافع الحصافة واللباقة، أصبح تبادل
الأحاديث بينهما أكثر صعوبة ومشقة.

مع ذلك أفلح شيامورا في أن يمكث نحو ساعة في رفقة الغيشا.
وفي غمرة انشغاله بالبحث عن ذريعة للتخلص منها يتذكر فجأة أن
مبلغاً من المال سيصله بواسطة التحويل البرقي من طوكيو.

«يجب أن أذهب إلى مكتب البريد قبل موعد الإقفال»، قال لها،
وعلى الأثر لم يكن عليهما، واحدهما كما الآخر، إلا أن يغادرا الغرفة.

ما أن تخطى شيامورا عتبة باب النزل حتى أفعمته الجبال ونسيمها
المعطر بروائح النباتات المورقة بسحرها الأسر. وراح يتسلق السفح
ضاحكاً مثل معتوه راكضاً مثل مخبول ولا يعرف سبباً لذلك.

ثم أدركه التعب اللذيد سارياً في أطرافه، ومتالكاً لهائه توقّف بغتةً
واستدار ثم دسّ أطراف الكيمونو تحت زناره وهبط عائداً أدراجه
يسابق الريح. كانت عيناه شاخصتين تتابعان الرفرفة المحمومة
لفراشتين صفراوين ذهباً انبثقتا فجأةً أمامه، ثم أصبحتا ييضاوين
حين ابتعدتا في عمق السماء محومتين عالياً فوق سمت القمم.

«ماذا دهالك؟ لا بدّ أن تكون سعيداً كيما تضحك هكذا من
الأعماق!».

كان ذلك صوت المرأة الشابة الواقفة في ظلّ أشجار الأرز
العملاقة.

«لقد خلّفت كلّ شيء ورائي هناك! قال شيامورا وقد عاودته نوبة

الضحك؛ لقد خلفت كل شيء ورائي هناك!
- أوه!...»

استدارت المرأة وتوغلت على مهل بين الأشجار. وتبعها شيمامورا دون أن ينبس. لقد كانت غيضة الأرز تلك مُلحقةً بأحد المعابد، فجلست المرأة على حجر أملس تحت الأشداق المطحلبة لتسائيل الحفراء - الحيوانات المصطفة عند مدخل الحرم.

«هنا الطقس منعش دائماً. حتى في عز الصيف تهب النسائم اللطيفة.

- أجميع فتيات الغيشا يُشبهنها؟

- أجل، يشبهنها بعض الشيء، على ما أعتقد. ومن بين أكبرهن سنّاً هناك اثنتان أو ربّما ثلاث على قدرٍ من الفتنة والجمال. لكنهن لا يناسبن ما كنت تبحث عنه...»

كان كلامها خالياً من أي ودّ، وكانت مُطرقةً تحدّق في الأرض. وبدا الأخضر الظليل لشجيرات الأرز كأنه ينسكب على مؤخر عنقها. وأسرّ إليها شيمامورا مُسرّحاً أنظاره بين الأغصان الشاهقة:

«إنه أمر مستغرب، لكنه حقيقي، فأنا بالفعل فقدت كل رغبة في ذلك. كأني فقدت كل حمياً.

كان جذع شجرة الأرز خلف الصخرة حيثُ جلست، ينبثق مثل سكبٍ لا شوب فيه ويسق عالياً جداً حتى إنه كان مُرغماً على إمالة جذعه إلى الوراء مُستنداً إلى الصخرة كيما يُتاح له أن يتتبع ارتفاعه بعينه حتى ذراه. وكانت السماء غير مرئية على الدوام بحجبها الستار

المظلم تقريباً لأشجار الأرز المصطفة المتلاصقة شابكةً أغصانها فاردة مسلاتها الخضراء الكثيفة . كان الصمت والدعة يتصاعدان مثل إنشاد . وإذا انتابه إحساس غريب لاحظ شيامورا أنه أسند ظهره إلى جذع إحدى أكثر الشجرات قدماً . جذع لم يبق عليه سوى أغصان يابسة ومقصوفة إلى جهة الشمال دون أن يعرف لماذا، كأنها فروة مقشعة على مدى ارتفاعها بصف من الجذعات العدوانية والحراب المستننة جعلت هكذا لتكون سلاحاً ضارياً في يد إله ما .

«كانت غلطة اقترفتها، أسرَ إليها بابتسامة . لقد رأيتك، أنت، وكنت عائدة لتوي من أيام العزلة التي قضيتها في أعالي الجبل، وظننت أن كل فتيات الغيشا في هذه الناحية يشبهنك!»

لا بل ربما كان الانطباع المذهل بالطراوة والنقاء الخالص الذي أوحى به إليه، فكّر شيامورا متابعاً كلامه، هو الذي أثار فيه تلك الرغبة التي تملكته بغتة في استعجال تحرره من فائض الطاقة التي اكتنزت في جسده خلال رحلته المنفردة في أعالي الجبل؟

كانت المرأة تتأمل تدفق مياه الشلال . هناك، تحت أشعة الشمس التي مالت للمغيب . أما شيامورا فقد كانت لديه الأسباب الكافية لكي لا يكون فخوراً بما فعل .

«أوه! كدت أنسى، قالت بخفة مُصطنعة، لقد حملت معي سهواً علبة تبغك . وعندما أردت أن أعود إلى غرفتك قبل قليل لم أجدها هناك وحرّت في أمري أين عساك تكون، وفي تلك اللحظة رأيتك، من النافذة، تتسلق الجبل بطريقة جنونية! آه! كم بإمكانك أن تكون مضحكاً حقاً! وعلبة التبغ، لقد نسيتها هناك . فأحضرتها لك» .

تناولت التبغ من ثنية كُمّ الكيمونو وأشعلت له عود ثقاب .
«لم أكن لطيفاً جداً في رفقتي لتلك الفتاة المسكينة .
- إنَّ الزَّبون هو الذي يقرّر في آخر الأمر ما إذا كان على الغيشا أن
تغادر أم لا» .

كان خريير المياه المتساقط هناك في المجرى المغطى يتراعى إلى
مسامعها في دعة ذلك الصمت كأنه نغم متواصل وخافت . وهناك في
البعيد عند السفح المجذب للجبل الذي يوغل في ارتفاعه بين الأخيلة
الأنيقة لأغصان الأرز، كانت الظلال تُعتم شيئاً فشيئاً في التجاويف
وتبتعد .

«كلّ ما صنعتُه، إلّا إذا كانت تُضاهيك في كلّ شيء، هو أنني
كنتُ أعرض نفسي للندم بعد فوات الأوان ما أن أعود إلى رفقتك
مجدّداً .

- دُعك من هذا أرجوك، قالت بنبرة حازمة . كلّ ما في الأمر هو
أنك لا تريد الإقرار بغلطك» .

كانت نبرة ازدراء تخالط صوتها إلّا أنّ هذا لم يحل دون قيام صلة
جديدة بينهما . نوع من المودة الأكثر رقة كانت تكتنف حضورهما معاً .

وأدرك شيامورا بما لا يرقى إليه الشك أنه لم يشته في الحقيقة
سواها، هي وحدها ومنذ البداية، ولكنّه سعى، على جاري عاداته،
لافتعال ألف تعقيد وتعقيد، عوض أن يقرّ لنفسه بذلك وببساطة دون
اللجوء إلى الذرائع الواهية . ولذلك كان كلّما ازداد امتعاضاً من نفسه
بدت له المرأة الشابة، في المقابل، أكثر جمالاً . فقد أحسّ منذ أن

خاطبته وهي تقف في ظلّ أشجار الأرز، بأن حضورها أشبه بنسمة منعشة تغلغلت في كيانه .

كانت تبدو مثيرة بأنفها الأفتى الدقيق، بسيماها اليتيم على وجهها ومسحة كآبة لا تلبث أن تمحوها زهرة شفيتها ببرعم الفم المزموم حيناً والمتفتح أحياناً بإيماءة دافئة تخزن نُعمى الحياة الشهوانية النهمة . حتّى عندما تلزم الصمت ولا تقول شيئاً تظلّ شفتاها زاخرتين بالحياة والحركة وكأنّ الحياة والحركة من طبعهما . وسواء كانتا جافتين أو مُتشققتين أو نال منها خبؤ في حرتهما، فإنّ لهاتين الشفتين ما يذكّر بالاعتلال، إلّا أنّ لونها يكثر من ملمس النعومة منتهاه وبريق العافية الحقّة . صفّ أهدابها غير المقوّس أو المرفوع، يقطع الجفنين على سوية خط مستقيم حتّى لبدو غريباً، لا بل مُضحكاً، لو لم يكن، كما كان بالفعل، محوّطاً، لا بل مُكنزاً بحرير حاجبيها المنمنمين الأثيين . لم يكن في وجهها المدوّر جدّاً وذو الأنف الأفتى ما يُلفت في حدّ ذاته . إلّا أنّ لون بشرتها الخزفي الموشح بالوردي الرهيف وعنقها البتولي وكتفها الصبّويتين اللتين تميلان إلى امتلاءٍ وشيك، تجعل من طلعتها منبعاً للنضارة الأشفّ فلا تعوزها مسحة من فتنة الجمال وإنّ كان يصعب القول إنّها آية في الجمال . فهي كامرأة تشدّ خصرها بالأوبي العريض الذي ترتديه فتيات الغيشا تبدو لحيمة الصدر مكتنزة الثديين .

«ها إنّ البعوض يجتاحنا»، قالت وهي تنفض بكفّها طرف الكيمونو لتذبّه عنها .

كانا هائمين في الدّعة الغامرة لذاك المكان، ولا يهتديان إلى ما يقولانه إلّا القليل .

نحو الساعة العاشرة تقريباً من ذلك المساء نادى المرأة الشابة على شيامورا مرّدةً اسمه بأعلى صوتها في الرواق. وما هي إلاّ هنيهات حتى دخلت عليه في غرفته وتهاكت أمام الطاولة مُترنّحة كأنّها دُفعت عنوةً. وبحركةٍ غير مقصودة من ذراعها أوقعت كلّ ما صادف وجوده أمامها. ثمّ سكبت لنفسها كوب ماء وشربته بجرعاتٍ كبيرة.

كان عليها أن تخرج، قالت، لمجالسة بعض السيّاح العائدين لتوّهم من الجبل: ومنهم من التقتهم في شتاء العام الماضي خلال موسم التزلّج. وطلب منها هؤلاء أن ترافقهم إلى النزل حيث راحوا يلهون، بمساعدة فتيات الغيشا اللواتي شاركن في أمسيّتهم الصاخبة، بدفعها إلى الشراب بقصدٍ إسكارها.

كان رأسها ثقيلاً ومُترجّحاً وحين شرعت بالكلام بدا أنّها لن تتوقّف أبداً. ثمّ استعادت وعيها فجأةً وتماثلت نفسها: «سأعود، قالت. ليس من اللائق أن أكون هنا الآن. سيبحثون عني. سأعود فيما بعد».

وسرعان ما غادرت الغرفة مُترنّحةً.

بعد ذلك بساعةٍ واحدة تقريباً سمع شيامورا وقع خطوات مُتعثرة تتقدّم بحذر في الرواق الطويل: مشية مترنّحة تترجّح من جدارٍ إلى آخر، فتعثّرت ثمّ تواصلت تقدّمها.

«شيامورا! شيامورا! أكاد لا أرى بوضوح، صرخت تناديه. شيامورا!»

كان نداؤها خالياً من أي مكر. نداءً حقيقي نابع من القلب،

نداء مجرّد وواضح هو نداء امرأة تلوذُ برجلها بعيداً عن أي اعتبار آخر، وكان وقعه شديد الأثر في روع شيامورا فنهض مُسرِعاً، إذ لا بدّ أن تكون أصداء ذلك الصوت الحاد تتردّد في أرجاء الفندق كلّها.

اخترقت أصابعها ماطورة الورق فيما كانت تسعى للتشبّث بدعامة الباب قبل أن تنهالك عليه.

آه! ها قد جئت أخيراً...»

كانت لا تقوى على الوقوف فتشبّث به وتضمه إليها دون أن تتوقّف عن الكلام:

«لست ثملة. لا، لست ثملة، صدّقني. ولكنني أشعر بطرقٍ في رأسي، آه! طرق، طرق! فقط لو أن ذلك لا يؤلم... أنا أعرف تماماً ماذا أفعل. أعطني كوب ماء. ماء، هذا ما أحταجه الآن. مزج الكحول، هذا ما يسبب الألم. كان عليّ أن لا أمزج الشراب، فهذا ما يضرب رأسك ويسبب الألم. آه! يا رأسي!... كان في حوزتهم زجاجة من الويسكي الرديء. فكيف لي أن أعرف أنه ويسكي رخيص؟...»

كانت تضغط على جبينها بجماع قبضتيها.

وفجأة ازداد وقع انهيار المطر في الخارج.

كان على شيامورا في سعيه لمساعدتها على الوقوف أن يضمّها بشدة بين ذراعيه فقصّعت تسريحتها العالية تحت خدّه. فما أن يُرخي ذراعيه قليلاً حتّى يشعر بأنّها ستقع متهالكة على الأرض. وبينما كان يحاول جاهداً أن يحكم شَبْك ذراعيه من حولها دسّ يده برفق تحت ياقة الكيمونو.

لم تستجب لتحرشاته، لا بل شبكت ذراعيها فوق صدرها وصدّت يد شيامورا عن الاقتراب من نهديةا. وإذ انتابتها بغتة نوبة غضب لعجز ذراعها هي عن الاستجابة لما تريد، راحت تشتمها وتعصّها بضراوة:

«ماذا دهالك؟ ستناين مني ما تستحقين! أيتها الخاملة! عديمة النفع! الويل لك!»

ابتعد شيامورا عنها وقد تملكه الذهول. ورأى على ساعد المرأة الأثر العميق الذي خلفته أسنانها. إلّا أنها كفت في الوقت نفسه عن مقاومته وراحت ترسم علامات بطرف أصبعها: وأكدت له أنها ستخبره من هم الأشخاص الذين تحبهم. وسمّت نحو عشرين أو ثلاثين ممثلاً، ثم شيامورا وشيامورا أيضاً، وتردّد اسم شيامورا إلى ما لانهاية.

تكوّر دفء لذيذ تحت راحة شيامورا. وكان يُردّد بصوتٍ مهدهد ورقيق:

«حسناً! حسناً! لقد انتهى الأمر. انتهى الآن...» وفي غمرة تأثره كان يجدّ لديها شيئاً من مظاهر الأمومة.

لكنّ الألم لم يمهّل الرأس الصغير فعاودها شديداً موجعاً. راحت تتلوى من وطأته وهرعت إلى طرف الغرفة الآخر حيث نهالكت مجدداً لا تكفّ عن الأنين:

«لم ينته الأمر بعد... لم ينته. أوه! أشعر أنني في حالة سيئة... أريد أن أعود. أن أعود إلى بيتي...»

- ليس في وسعك أن تقطعي كل هذه المسافة! ثم اسمعي: المطر
ينهمر بغزارة!

- حافية القدمين، زاحفة، مهما يكن من أمري سأعود إلى البيت.
يجب أن أعود.

- ألا ترين معي أن في الأمر بعض المخاطرة؟ سأصحبك في طريق
العودة إذا كنت تصرّين على الذهاب.

كانت الطريق التي تفضي من النزول إلى البلدة تحاذي الإنحدار
الشديد لسفح الجبل.

«ماذا لو حاولين أن تُرخي زنارك قليلاً وتأخذي قسطاً من الراحة؟
فأنا واثق من أنك ستشعرين بتحسّن بعد قليل ويُصبح بإمكانك
العودة إلى دارك.

- لا، لا. أعرف جيداً ماذا ينبغي أن أفعل. أعرف جيداً كل
هذا».

وفي الأثناء حاولت أن تنهض في شبه وقفة، وأبقت جذعها مُستقيماً
كيما تستنشق الهواء ملء رئتيها ولم تفلح في ذلك إلا بعد عناء كبير
إذ بدا واضحاً أنها تتألم كثيراً. كانت تعاني من غثيان خفيف، كما لن
تلبث أن تسرّ إلى شيامورا، قبل أن تفتح النافذة من ورائها وتنحني
على حافتها نحو الخارج تحاول أن تتقيأ، ولكن عبثاً. كانت تسعى
جاهدة لكي لا تقع متهاكّة على الأرض. لكي لا يُغمى عليها تماماً.
وكلما استطاعت أن تتمالك نفسها قليلاً كانت تواصل تردادها للعبارة
نفسها: «أريد أن أعود إلى بيتي! ينبغي أن أعود إلى بيتي!» - ومكثت
على هذه الحال حتى الثانية فجراً.

«اذهب ونم! هيا اذهب إلى فراشك ما دمت أطلب منك أن تفعل!»
قالت بمزيد من الإلحاح.

- وأنت، ماذا ستفعلين؟ سأل شيامورا بشيء من القلق.
- سأمكث كما أنا. وما أن أشعر بتحسّن أعودُ إلى البيت. سأغادر
هذا المكان قبل بزوغ الضوء».

دنت منه مثاقلةً على يديها وقدميها وجذبتة إليها.

«قلت لك هيا عُد إلى النوم! لا تبالِ بي. ونم نوماً هنيئاً».

عاد شيامورا إلى فراشه. وفي تلك الأثناء أفلحت بعد جهد في
الانحناء فوق الطاولة وابتلعت كوباً آخر من الماء.

«انهض! قالت بلهجة أمرة قبالة السرير. انهض حين يُطلب منك
أن تنهض!»

سألها شيامورا ماذا تريده أن يفعل بالضبط.

- ماذا قلت؟ ليس عليك سوى أن تنام.

- أوتدريين، لا يبدو أنك تدركين جيداً ما تقولين»، قال شيامورا
وجذبها نحوه.

حين استلقت إلى جانبه حرصت في البداية على أن تُشيع بوجهها
عنه. ولم تنقض هنيهات قليلة حتى استدارت نحوه باندفاعٍ وأسلمت
شفتيها.

ثم كم ردّدت بعد ذلك، كأنها استغرقت في هذيان أرادت أن يُعبرَ
عما كابدته من شقاء، الكلام نفسه مراراً وتكراراً:

«لا، أوه لا!... ألم تقل إنه ينبغي أن نظلّ صديقين؟»

لم يدر شيامورا بماذا يجيب. إلا أن ما تراءى إليه من رصانة ووقار جارج في صوتها نال من جذوة اشتهاؤه، حتى إنه فكّر لحظة أن يفني بوعده إذ تراءت له ملامحها المشدودة وجبينها المتغضّن لفرط ما كانت تجهد في استعادة هدوئها وتمالك نفسها من جديد.

«من جهتي أنا، قالت له همساً، لن أندم على شيء. ولن أشعر بالندم على الإطلاق. ومع ذلك لست من ذلك الطراز من النساء... مغامرة عابرة... لا يُكتب لها أن تدوم... أنت قلت لي ذلك بنفسك، أليس كذلك؟»

كان لا يزال نصفها يعوم فوق أبخرة الشراب.

«ليس ذنبي أنا بل ذنبك أنت. أنت من لعب وخسر... أنت الضعيف. ليس أنا.»

وانتابتها في الأثناء رعدة انتشاء فراحت تعضّ كمّها بعنف كأنها تستमित في صدّ السعادة عنها، وفي تبديد الغبطة التي تراءت لها.

مكثت وقتاً طويلاً دون أن تقول شيئاً، مُسترخية وهادئة، وكأنها أفرغت من الأحاسيس كافة. ثم قالت وكأنها بوغتت بخاطرة انبثقت فجأة من قعر ذاكرتها:

«أنت تلهو، أليس كذلك؟ أنت تلهوبي!»

- لا، أبداً.

- في أعماقك، في أعماق قلبك، أنت تلهوبي. حتى لو أن ذلك غير صحيح في هذه اللحظة، ولكن فيما بعد... إنها الحقيقة.»

كانت الدموع تملأ عينيها وأشاحت بوجهها لتخفيه بالسواد. ثم
تمالكت نحيبها، وفي حنانٍ مُسارّةٍ بدا من خلالها أنها ترغب في أن
تكون أكثر صدقاً معه، لا تخفي عنه شيئاً، راحت تروي له كلّ شيء
عنها. وبدا أنها نسيت أوجاع رأسها. ولم تقل كلمة واحدة عما جرى
في تلك الأمسية.

«أه! كم انقضى من وقت! أحكي، وأحكي دون أن أنتبه لانقضاء
الوقت، قالت بابتسامة اعتذار خجولة. لم ينقض الليل بعد، ولكن
عليّ أن أغادر قبل الفجر. فالناس هنا ينهضون في ساعات مبكرة».
نهضت مراراً لتلقي نظرةً عبر النافذة.

«لدي متسع من الوقت. العتمة لا تزال حالكّة فلا أخشى أن
يراني أحد. ثمّ إنّها تمطر: فلن يذهب أحدٌ هذا الصباح إلى
الحقول».

كانت لا تريد أن تغادر. وعندما انبلج الفجر وارتسمت معه قمم
الجبّال التي محتها الأمطار، ثمّ انقشعت زوايا السطوح بين
صفوف الأشجار، كانت لا تزال حائرةً في أمرها. وفي النهاية حان
الوقت الذي تدبّ فيه الحياة في أرجاء النزل عندما تستيقظ الخادّما
ويباشرون أعمالهن. على عجلٍ سوّت تسريحتها قليلاً وتسوّلت بغتةً، لا
بل طارت، ولكن بعد أن صدّت بعناد شيامورا الذي أراد أن
يرافقها إلى الباب.

ينبغي ألا يراها أحدٌ سوياً.

وفي اليوم نفسه، غادر شيامورا عائداً إلى طوكيو.

.....»

- أوتدرين ما كنت تقولينه في المرة السابقة لم يكن صحيحاً وإلاّ كيف يخطر لمن هو مثلي أن يأتي في نهاية السنة، مُعرّضاً نفسه لأن تتجمد أوصاله من البرد في بقعة نائية مثل هذه؟ لا، لم يكن غرضي أن أهو بك».

ترفع المرأة رأسها. تبدو وجنتها متوردة قليلاً تحت العين حيث شدّت براحة شيامورا عليها؛ متوردة برغم مسحوق التجميل الأبيض الذي يُغطي وجهها. ويفكر شيامورا في بلد الثلوج، ببرودة جوه. إلاّ أنه يجد فيه أيضاً شيئاً من الدفء لا بدّ أن يكون مصدره أسود شعرها الحالك.

افتّر ثغرها عن ابتسامة رقيقة كأنها تسطع تحت نور باهر. والمؤكد أنّها تستعيد في الأثناء ذكرى «المرة السابقة» لأنّه يراها تزداد احمراراً كأنّ جسدها كله يلتهب رويداً بحرارة الكلمات التي يقولها لها. ذلك أنّها انحنت إلى الأمام مُطرقةً بشيء من التصلب واستطاع أن يرى ظهرها الذي اصطبغ بالحمرة أيضاً تحت الكيمونو الحاسر قليلاً. وكذلك

العنق وكلّ ما تراه عينه من هذه البَشرة المثيرة والتي يجعلها الشعر
الأسود أكثر فتنةً إذ يبرز محاسن الضدّين . وإذ تتأبه رعشة الحواس
الدافئة يُخَيِّل إليه أنها عارية أمامه . شعرها؟ لا، في الحقيقة ليست
الكثافة المفرطة في شعرها هي التي تجعله كثّاً: بل حيويّته وتلك المتانة
التي تكاد تكون رجولية واللّتان تجعلان من تلك التسيّجة العالية
والمصنّفة حسب الطراز القديم والخالية من أي عيب مَلساء كاللّك
والمرفوعة بوقار كأنها تعتمر قُبعةً من حجر أسود منحوت .

يتأمّل شيامورا شعرها ذاهلاً . ويسأل نفسه الآن عمّا إذا كان البرد
الذي فاجأه كثيراً للوهلة الأولى ليس أحد مظاهر الشتاء في بلد
الثلوج هذا بل مزية من مزايا شعرها . راحت المرأة في تلك الأثناء
تعدّ شيئاً ما على أصابعها وطال بها الأمر .

«ما الذي تُعدينه؟» سألها

ولكنها لم تتوقّق عن العدّ .

«كان ذلك في الثالث والعشرين من شهر أيار، قالت أخيراً .

- كلّ هذا الانشغال في حساب الأيام؟ قال شيامورا مداعباً ليقينه
أنه أصاب التخمين . لا تنسي أن تموز وآب شهران متتاليان من
واحد وثلاثين يوماً!

- هذا يعني أنّ اليوم يصادف اليوم التاسع والتسعين بعد المئة . مئة
وتسعة وتسعون بالضبط .

- هل أنت واثقة من التاريخ؟ وكيف تذكرين أنه كان في الثالث
والعشرين من أيار؟

- يكفي أن ألقى نظرة على ما دَوَّنته في دفتر يوميّاتي. كلّ شيء مدوّن هناك.

- أتكتين يوميّاتك؟

- من الممتع دائماً أن يقرأ المرء يوميّات قديمة. ولكن المشكلة أنني لا أحذف شيئاً ويحدث لي أحياناً أن أخجل من نفسي.

- متى بدأت به؟

- مباشرة قبل سفري إلى طوكيو لتعلّم أصول المهنة. كنت لا أملك مالاً وابتعتُ مفكرة رخيصة سوّدتها من الصفحة الأولى إلى الصفحة الأخيرة بخطّ دقيق وسطور متراصة. وكنت أحرص على الكتابة بقلم مبرّي جيداً لأنّ هذه السطور(*) مقسّمة وفق خطوط عمودية رفيعة ومُسطّرة. فيما بعد وعندما أصبح بإمكانني أن أشتري دفترًا يليق بكتابة اليوميّات تبدّلت الأمور كثيراً. إذ أصبحت لا أجيد سوى تسويد الصفحات وهدرها، كما تراخت عنايتي بالخطّ. في البداية كنْتُ أستخدم ورق الصحف الأصفر أما الآن فأنا أكتب مباشرة على ورق لفافات من النوع الجيّد وبسهولة فائقة.

- وهل انكبت على تدوين هذه اليوميّات بلا انقطاع؟

- أجل. كانت سنّتي السادسة عشرة وهذه السنة أفضلها. وفي العادة أنصرف إلى تدوينها قبل النوم، حين أعود إلى الدار وأحياناً كثيرة يباغتني النعاس أثناء الكتابة: كم أتعرفُ الأمكنة حين أستعيد ما كتبت عنها، إذ يسهل التعرفُ إليها دون عناء. . . ولكنّ هناك أيام تمضي دون أن أكتب شيئاً، فيوميّاتي غير منتظمة. لأنّ ما نفعله كل

(*) كتابة السطر الياباني عمودية وليست أفقية.

يوم هنا في الجبل يكاد يتشابه كل يوم . وفي مثل هذه الحال ماذا أكتب؟ غير أني استطعت هذا العام أن أتدبر مفكرة فيها صفحة لكل يوم، ولكن يبدو أنني أخطأت في اختياري . إذ يكفي أن أبدأ بالكتابة حتى أسترسل كأنني عاجزة عن التوقف» .

إذا كان شيامورا قد فوجيء لسماعه خبر إصرارها على تدوين يومياتها، فإن دهشته الأعظم كانت حين علم أنها تذكر فيها بانتظام قراءاتها منذ أن كانت في الخامسة أو السادسة عشرة وأن مجموع ما سوّدته بلغ عشرة دفاتر كاملة .

«وهل تدوين أيضاً انتقاداتك حولها؟ قال .

- أوه! هذا ما أعجز عنه تماماً، قالت معترضة . أكتفي بذكر اسم المؤلف والشخصيات الرئيسية والعلاقات التي تجمع بينها . لا أكثر .
- ولكن لم تتجشمين مثل هذا العناء؟ ما فائدتك منه؟
- لا شيء، لا شيء على الإطلاق .
- وكلّ هذا الجهد للشيء، جهد ضائع؟
- بلى، بالضبط، إنه جهد ضائع حتماً!» قالت بنوعٍ من الإقرار الذي يخلو من أي شكوى . ومع ذلك فقد راحت ترمق شيامورا بنظراتٍ أسي .

كل هذا الجهد الباطل ! كان في مثل هذا الأمر ما يحث شيامورا، من غير قصدٍ منه، على التوقف عنده قليلاً . ولكن ما أن مال عليها منحنيّاً حتى سرت في كيانه مشاعر دعة واطمئنان، ومشاعر راحة عميقة كأنه استسلم لإلحاح الصوت الخافت المنبعث من تساقط الثلج . ومع ذلك لم يكن الأمر لها مجرد عناء بلا مقابلٍ تماماً ولا بدّ

أن يكون شيامورا قد أدرك ذلك، إلا أن شيئاً ما في مثابرتها بدا أقرب إلى مزايا النقاء، وفجأةً بدت له كل تفاصيل حياة المرأة، لا بل وجودها، وقد سلط عليهما ضوء جديد.

وبرغم ما تردّد في حديثها عن الروايات إلا أن ما جاء فيه لا يمتّ بصلةٍ إلى ما يُسمّى عادةً «بالأدب». إذ تقتصر صلتها على هذا الصعيد بسكان المنطقة على تبادل الكراسيات وبعض المجلّات النسائية الأخرى. وفيما عدا ذلك، كان عليها أن تنمي بمفردها نهماً للقراءة كيفما اتفق ودون أي اختيار أو تمييز، ودون أي هاجس أدبي مُسبق وذلك عن طريق الاحتفاظ بالكتب والمجلّات التي يتركها رواد النزل في غرفهم بعد مغادرتهم. كان شيامورا يجهل عدداً كبيراً من أسماء المؤلفين الذين ذكرتهم في حديثها، فكان يُصغي إليها كأنها تتحدّث عن أدب غريب بعيد المصادر. كانت تتحدّث باندفاع كبير بالطبع، ولكن هذا لم يُخفِ إحساسها بالهوة السحيقة التي تنأى بالسامع عنها، فيتنبأها الكدر جرّاء عزلتها القسريّة: فمثلها مثل شحاذ لا يُجبه إلا باللامبالاة التامة. كائن تذوي في أعماقه كل رغبة. وراح شيامورا يفكّر، في غمرة إصغائه، أن أحلامه الخاصّة حول رقص الباليه الغربي لا تختلف عنها في بعض جوانبها. فهو أيضاً كان يقرأ كل ما يصادفه من المؤلفات المتخصصة، فيجمع إلى الكلمات الغريبة والصور البعيدة، مئات الصور الغامضة والتأملات المجردة التي تهدّد أيامه. - ألا تحدّثه الآن، وبالطريقة نفسها، بكل الحماسة والاندفاع عن أفلام أو مسرحيات لم تشاهدها على الإطلاق؟

نما لا شك فيه أن شيامورا لم يبد طوال الصيف مثيل اللياقة التي

كانت تحته على الإصغاء إليها. ولكن أتراها نسيت أن حديثاً مماثلاً قد أثار فيها، قبل مئة وتسعة وتسعين يوماً بالضبط، ذلك الميل الغريب نحو شيامورا؟ ذلك أنها لا تني تستسلم مجدداً إلى ثرثرتها فيما جسدها كله يلتهبُ احمراراً جرّاء ذلك الدفء.

فالحقيقة أن مرارات الإحساس بالمنفى ما عادت تخالط حسرتها على تركها المدينة. إذ ما عادت هذه سوى حلم كبير وبعيد لا يستدعي اليأس أو نفاد صبر: حلم يقظة رقيق يرضخ طائعاً لواقع الأمر. حتى أنها لا تبدي حياله ما يدعو إلى الأسى أو الاكتئاب. وربما كان ذلك بالذات ما يثير أعرق المشاعر لدى شيامورا الذي بدا، في انفعاله، عرضةً للتأثر الشديد بإحساس الجهد المجاني، والعناء الذي يُبذل عبثاً، حتى كادت أن تتبدى له حياته على صورة ذلك العقم العبي. ولكن لحسن الحظ، كان يرى حياله وجه المرأة الشابة المعبر والزاهر بالحياة، وفي سيماه ملامح العافية تلك ونضارة اللون التي اكتسبها من مناخ الأماكن المرتفعة.

على أية حال كانت نظره إليها قد تبدلت كلياً. وأدرك بشيء من الدهشة أن تصرفه حيالها لم يتبدل بعد أن أصبحت فتاة غيشا فلا يسلك معها بحرية أو تلقائية أكبر. . .

كانت ثملة لا تلوي على شيء، في أمسيتهما الأولى، عندما غرزت أسنانها بضراوة في ذراعها شبه المشلولة لأنها أبطأت في الامتثال لما تريد. «ستالين مني ما تستحقين! أيتها الحاملة! عديمة النفع! الويل لك!»

وفيما بعد إذ نال منها القنوط في صراعها ضد نفسها وضد السكر،

قالت في عبارات موصولة: «لن أندم على شيء... ومع ذلك لست امرأة من ذلك الطراز من النساء! لست امرأة من ذلك الطراز!»...
«إنه قطار منتصف الليل ينطلق في اتجاه طوكيو»، قالت.

كأنها أدركت حيرته ولم تبادر إلى الكلام إلا لكي تبدها. وما أن انطلقت صفارة القطار حتى رآها تنهض بسرعة من مكانها وتتجه نحو الدرف الجارية المطبقة أمام النافذة فتبعدها وتفتحها وتنحنى منها إلى الخارج وقد أسندت ثقل جسمها كله إلى عارضة الحافة. كان القطار يتوغل بعيداً ويحدث في سيره جلبة تترأى كأنها عويل رياح ليلية. ودلف الصقيع إلى الغرفة.

«هذا جنون!» صرخ شيامورا ودنا بدوره من النافذة.

كان الليل ساكناً، راكداً لا تلوح فيه نسيم، فيما المنظر الخارجي يُقيم على ضحالة قسوته. ويسود انطباع بأن هديراً ما في الجوف يتردد صدئاً لصريف الصقيع الذي يرصّ الثلج في الأرجاء وعلى مدى البصر. كانت السماء بلا قمر. أما النجوم فكانت في المقابل كثيرة لا تُحصى حتى يُخيّل أنها غير حقيقية، برّاقة وقريبة كأن الناظر إليها يشهد سقوطها متهاوية في الفراغ. كانت السماء تبدو خلفها بعيدة، مبرّدة في تقعرها وبعدها، هناك، نحو ينابيع الليل المعتمة. أما ذرى السلسلة الجبلية الشاهقة التي بدت كأنها خط قمم وحيد، فقد اعترضت السماء المرصعة بكتلتها الهائلة، راسمة فيها أفقاً حائراً، هائل الاتساع وأسود. غير أن المنظر كله كان غارقاً في مناخ من التناغم بين الصفاء الخالص والسكون العظيم.

ما أن شعرت بدنو شيامورا منها حتى أرخت المرأة الشابة جسمها ودلته أكثر فأكثر مسندة صدرها إلى العارضة. لم تدع جسمها في حالة استسلام تام، لا بل على العكس: فقد اتخذت حيال الليل المظهر الأكثر صلابة وتصميماً. «دائماً تلك الدرع التي ينبغي أن تُحترق»، قال شيامورا في سرّه.

كانت الجبال، مهما بلغت الدكنة التي لفتها، تتألق بوهج الثلوج. لا بل أحسّ شيامورا آنذاك أنها اكتست فجأةً مسحةً من الشفافية، ومن الوحشة التي تعصى على التسمية: فقد اختلّ تناغم التوازن بين السماء وخط الذرى المعتم.

«ستصابين بالبرد! لقد تجمّدت أوصالك»، قال شيامورا واضعاً يده على عنق المرأة الشابة محاولاً اجتذابها إلى الخلف. إلا أنها تشبّثت بعارضة الحافة.

«سأعود إلى بيتي، قالت بإصرار برغم تهديج نبرتها.

- حسناً جداً. إذاً، عودي.

- بعد قليل. أريد أن أمكث هكذا لبعض الوقت..

- أما أنا سأذهب للاستحمام، قال شيامورا.

- لا، لا، لا تركني...

- إذا أقفلت هذه النافذة!

- لحظة واحدة... أود أن أمكث على هذه الحال هنيهة أخرى!

كانت روضة أشجار المعبد تحجب نصف البلدة. وأنوار المحطة (التي لا يستغرق الوصول إليها أكثر من عشر دقائق في سيارة أجرة) تلمع في البعيد كأن الصقيع فرّقها.

شعر المرأة الشابة، النافذة، أكام الكيمونو: كان كلّ ما تمسه يد شيامورا مجمّداً، ولكنّه الجمد الذي ينضج برده: برّد لم يعرف له مثيلاً من قبل. حتّى الحصيرة، تحت قدميه كانت كأنها تسطع بالبرودة.

لم يلبث شيامورا أن تهيّأ لمغادرة الغرفة يريد الاستحمام. «انتظري! سأرافقك»، قالت. وتبعته وقد ارتسمت على وجهها ملامح الخضوع.

وما أن وصلا إلى الطبقة السفلى حتّى راحت توضّب ملابس شيامورا بعد أن ينزعها عنه ويدعها مهملةً على الأرض، أمام الباب. ثمّ دخل عليهما شخصٌ ما. أحد نزلاء الفندق. رجل. وما أن رآته حتّى انحنت طويلاً أمام شيامورا وحجبت وجهها.

«أوه! أرجو المَعذرة! قال الوافد الجديد وقد همّ بالمغادرة. - ولكن لا، تفضّل، أرجوك، قال شيامورا على الفور. سننتقل إلى الحوض المجاور».

حمل ملابسه وتقدّم نحو الحوض المجاور، المخصّص للنساء، فلحقت به كأنهما زوج وزوجة. غطس شيامورا في المياه الحارّة دون أن يلتفت. فقد كان يُغالب نوبة ضحك هستيري انتابته لمجرّد التفكير بأنّها هنا معه. ثمّ سارع إلى وضع رأسه تحت مياه اليوغوشي(*) وراح يغسل فمه فتصدر عنه غرغرة مسموعة.

(*) هو المنهل الذي منه تصبّ مياه ينبوع الحار لتماماً، بعد ذلك، الحوض الكبير.

ثمّ عادا إلى الغرفة . كانت ممّدة إلى جانبه ، ثمّ رفعت رأسها قليلاً عن الوسادة وبحركة خفيفة من إصبعها نقرت أذنها فانزلقت خصلة من شعرها المصفّف وغطّت جبينها .

«أشعر بحزن عميق» قالت . ولم تقل شيئاً آخر . ظنّ شيامورا لبعض الوقت أنّ عينيها مُغمضتان نصف إغماضة ثم أيقن ، أن خط أهدابها الأثيث هو الذي أوهمه بذلك .

كانت عصبيّة المزاج ، مشدودة الأعصاب فلم تنم لحظة واحدة طوال الليل .

لا بدّ أن ضجة خفيفة انتشلتها من سباته العميق فاستيقظ شيامورا ورأى أنها تعقد الأوبي فوق الكيمونو .

«أرجو المَعذرة . لم أشأ أن أوقظك ، قالت . لم تنقشع العتمة بعد . انظر : أيامكانك أن تراني؟» وأدارت مفتاح الضوء .

«أنت لا تراني ، أليس كذلك؟ ليس بإمكانك أن تراني؟ - لا زال الليل في أشدّه .

- لا ، أبداً على الإطلاق . حاول قليلاً . ها هنا ! هل تراني؟ والآن؟ قالت وقد فتحت النافذة على مصراعيها . لا طبعاً ! لا تستطيع . سأغادر» .

رفع شيامورا جذعه قليلاً وأسند ظهره إلى الوسادة . كان البرد قارساً وكأنّ شدّته قد فاجأته مجدّداً . وكانت السماء لا تزال حالكة بلون الليل ولكنّ هناك ، فوق الجبال ، كان الصباحُ في أوّل انبلاجه .

«ستكون الأمور على خير ما يرام. إذ ليس لدى المزارعين ما يفعلونه في هذا الموسم. ولن أصادف أحداً في الخارج في مثل هذه الساعة المبكرة، إلا إذا صادفني أحد المبكرين من هواة تسلق الجبال... ما رأيك أنت؟»

كانت تتكلم دون أن تنتظر جواباً، تذرّع الغرفة جيئةً وذهاباً وتجرجر خلفها طرف الأوبي الذي لم يُعقد كما ينبغي.

«لم يأتِ إلى الفندق وافدون جدد في قطار الخامسة. ولن ينهض أحدٌ من النزلاء القدامى قبل بعض الوقت.»

كانت قد أفلحت أخيراً في عقد الأوبي وشده حول خصرها، إلا أنها لم تكف عن حركتها المتواصلة في الغرفة، إذ تنهض ثم لا تلبث أن تجثو على ركبتيها، ثم تعود وتنهض ولا تنسى في غمرة هذا كله أن تلقي نظرات متوالية في اتجاه النافذة. كانت تبدو في ذروة تشنّجها العصبي، قلقّة ومُستثارة في وقتٍ معاً كمثّل حيوان ليلي يخشى حلول الصباح. مَنْ يراها يخال أنها ممسوسة تستثيرها غريزة برّية غامضة، أو كأن رقية ساحر استحوذت كيائها.

كان الضوء قد أصبح كافياً في الغرفة فاستطاع شيهامورا أن يرى وهج خديها المصطبغين بلون قرمزي فاتحٍ برّاق، ومكث مفتوناً بهما.

«خذاكِ يلتهبان حمرةً. خير دليل على شدة هذا البرد! - ليس البرد هو السبب: كلُّ ما في الأمر أنني أزلتُ المساحيق عن وجهي. ولم يبق إلا أن اندسّ في فراشي لأنعم بالدفء على الفور. الدفء في كل أنحاء جسمي حتى أصابع قدمي.»

إذ مكثت جاثيةً قبالة المرأة، عند طرف السرير، أدركت أن اليوم أصبح في ضحاها وأن ساعة الرحيل قد حانت.

التفت شيامورا نحوها ورمقها بنظرةٍ، لكنّه عاد وألقى برأسه على المخدّة بحركةٍ مباغتة: ذاك الأبيض الذي يُقيم في أعماق المرأة، هو الثلج وفي موضع القلب منه يتألق القرمزي اللامع في خدي المرأة الشابة. كان حسنُ ذلك التضاد من النقاء حتىّ يمتنع على الوصف، ومن القوة حتىّ يفوق الاحتمال لشدة ما كان مُرهفاً وحيّاً.

تساءل شيامورا إذا كانت الشمس قد أشرقت لأنه رأى الثلج يزداد تألقاً في المرأة: كأنّه حريقٌ جليدي. حتىّ الأسود في شعر المرأة الشابة بدا في الضوء المعاكس أقلّ عمقاً، إذ تناوبت عليه خفيةً لعبة الظلال بمسحاتها الأرجوانية.

تحسباً لأي احتقانٍ قد يسببه تساقط الثلوج كان جريان المياه وتدفقها في أحواض الحمامات(*) يتم عبر قنوات محفورة في جدران الفندق. لذلك كان الماء يتجمع أمام المدخل في نقع كبير كأنه مُستنقع. وعلى درج السلم تريت كلبٌ أسودٌ جسيم يشربُ منه. صفٌ من الزلاجات أخرجت على الأرجح من مخزن ما لتعريضها للهواء في انتظار زبائن محتملين، وتفوح منها رائحة عفن خفيفة يُلطف من حدتها، لا بل يُحلي ضوعها البخار المتصاعد من المياه الحارة. أما ندف الثلج المتساقطة من أغصان شجرات الأرز على سطح الحمامات فتُغطيه ببقع غائمة الأشكال، لا بل تكاد تكون متماوجة وفاترة.

لن يلبث مُخطط الطريق أن يخفي تماماً تحت الثلج، قبل نهاية السنة، وقد ابتلعه ركام الثلج. وعندئذٍ ستكون مرغمةً في ارتيادها أمسيات السمر على انتعال جزمة الكاوتشوك العالية وارتداء «البنتال الجبلي» المنفّر فوق الكيمونو، وفوقه العباءة الثقيلة بالإضافة إلى غلالة

(*) الحمامات العمومية التي تزوّد بمياه الينابيع الحارة إياها والتي شيدت الفنادق على مقربةٍ منها.

الوجه للوقاية . وإذ ذاك سيبلغ ارتفاع الثلج عشر أقدام ولن ينقص قدماً واحدة طوال أيام الشتاء . كانت أخبرته بذلك من قبل ، وكان شيمامورا يُعيد التفكير في ما قالته ، إذ يهبط نحو البلد سائراً على الطريق التي تفحصتها بأنظارها ، صباح ذلك اليوم بالذات ، عند بزوغ الفجر من نافذة غرفته في النزول .

كان عدد من الفُوط نُشر على حبلٍ عالٍ محدودٍ بجانب الطريق . ومن خلالها كان المنظرُ الرحبُ للجبالِ يترامى أمام عينيه ، وفي البعيد تنوهج الذرى المكسوة بالثلوج بنور الشمس . أما سويقات الكراث الخضراء النابتة في الحدائق ، فكانت لا تزال باسقة لم تطمرها الثلوج بعد .

وكان صبيةً من أبناء البلدة يتزلجون على ثلج الحقول .

ما أن أفضت به الطريق ناحية البيوت حتى أحسَّ شيمامورا برذاذ مَطر خفيف ، ورأى قطع الجليد الصغيرة اللامعة تزيّن السقائف الأمامية للسطوح : توشية رقيقة وسائلة .

« ما دمتَ بدأت ، قال صوتٌ من ورائه ، فلماذا لا تزيل الثلوج عن سطحنا أيضاً؟ »

كان صوت امرأة خرجت لتوها من الحمام وقد عصبت شعرها بفوطة ورفعت عيناً مبهورةً بأشعة الشمس لتخاطب الرجل الذي يزيل الثلج المتراكم فوق أحد السطوح . قد تكون نادلة ما ، قال شيمامورا في سرّه ، جاءت إلى البلدة قبل موسم التزلج بقليل . كان

المدخل التالي يُفضي إلى مقهى (*) : وهو عبارة عن مبنى قديم بسقفه المتداعي ونافذته التي تقشّر طلاؤها لفرط ما تعرّضت لتقلّبات الجو.

كانت سطوح المنازل المبنية في معظمها من قِدَد القرميد تتماثل في موازاتها الشارع بصفوفٍ متناسقة من الحجارة : حجارة ضخمة مدوّرة وملساء، يُغطيها بياض الثلج ناحية الظلّ فيما تلمع من الجهة الثانية إذ ينعكس عليها نور الشمس . حجارة تشبه في سوادها أسودّ الحبر الذي يُشيعُ بريقاً ليس بريق الرطوبة المتقطّرة منه بل ذاك الذي ينبعث من الذرور المعدني إذ تصقله الرياح والصقيع والمطر.

كانت السقائف الأمامية للمداخل المنحنية حتّى تكاد تلامس الأرض تعبّر، في ذاتها، ورّماً أفضل ممّا تعبّر عنه حجارة السطوح، عن روح المناطق الشمالية بالذات.

صبيةٌ كانوا يلعبون في مجرى الجداول، ويلهون بكسر الجليد ورمي قطعه إلى وسط الطريق، مأخوذون بلا ريب بالتماع كسوره المتناثرة تحت أشعة الشمس . مكث شيامورا لبعض الوقت يتأمل صنيعهم، منتصباً في مساكب الضوء يكاد لا يصدّق أن الجليد بلغ مثل تلك الكثافة .

فتاة في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها كانت تقف على حِدّة تحبك دثار صوف وقد أسندت ظهرها إلى حائط . ولاحظ شيامورا أن قدميها المتدلّيتين من «بنطالها الجبلي» الفضفاض والخشن

(*) ينبغي أن يُفهم هنا بالمعنى الياباني للكلمة التي تطلق، بغرض التحقير، على حانة من الطراز الوضع حيث تجالس النساء الشرب.

كانتا عاريتين في خفيّ الجيتا(*)، ورأى أن بشرتهما تميل إلى الاحمرار وقد تشققت بفعل البرد. وإلى جانبها طفلةٌ ضئيلة الحجم لم تبلغ عامها الثاني وقد اقتعدت، راضيةً مرضيةً، كومةً من الحطب وباعدت ما بين معصميهما اللذين يحملان بصبر وطول أناة ربطة الخيوط ذات اللون الرمادي الداكن، ومنها يصلُ الخيط إلى يدِ الفتاة وقد ازدهى لونه وصار أقلّ دكنة لمجرد انتقاله من ذراعي الفتاة الصغرى إلى يدِ الكبرى.

من مسافة سبعة أو ثمانية بيوت إلى الأسفل، ترمى إليه صوت منجّر النجار الذي يعمل في معمل ألواح التزلج. وفي الجهة الأخرى من الشارع وقفت خمس أو ست فتيات غيشا يثرثرن تحت سقيفة مائلة. «أنا واثق من أن كوماكو إحداهن» فكّر شيامورا الذي أصبح يعرف اسم المرأة الشابة منذ صباح ذلك اليوم بالذات حين أخبرته إحدى نادلات النزل. وبالفعل كانت كوماكو هناك. وبرغم المسافة التي تفصله عنها استطاعت هي أيضاً أن تتعرف وجهه: كان التجهم في ملامح وجهها لا يُفسح في المجال لأي خطأ بهذا الشأن. «سوف تصطبغ وجنتاها بالحمرة حتى الأذنين، لن تستطيع أن تداري خجلها ما لم تتظاهر بأن شيئاً لم يكن...» ولم تكد تخطر له تلك الخاطرة حتى رأى وجهها بالفعل يحمرّ خجلاً حتى أعلى عنقها. كان أجدر بها أن تشيح بوجهها ولا تلتفت إليه، غير أنها على العكس من ذلك راحت تقتفي مشيته بعينيها كأن شيئاً ما يُرغمها على ذلك وإن أبقت عينيها خفرتين ينتابها إحساس مؤلم بالضيق.

(*) صندل خشبي يُرتدى مع الزي الياباني التقليدي.

أحسّ شيامور هو أيضاً بحرارة تلهب خديّه وحثّ خطاه كيما
يبتعد عنها ولم تلبث كوماكو أن لحقت به .

«كان يجدر بك ألاّ . . . إنه لمُربك حقاً أن أراك ماراً في مثل هذه
الساعة .

- مُربك لمن؟ ألا تعتقدين أنّ الأمر يربكني بالمقدار نفسه لمجرّد أن
أراك واقفةً على هذا النحو كأنك تنتظرين مروري بهذا المكان
فتعترضين طريقي؟ لقد تردّدت كثيراً قبل أن أعقد العزم على متابعة
طريقي! أتجري الأمور دائماً على هذا النحو؟

- بلى، على الأرجح . . . في أوقات ما بعد الظهيرة .
- إحمّار وجهك بهذه الطريقة ثمّ اللحاق بي، ينبغي أن أقول لك
إنّ مثل هذا السلوك يُضاعف من ارتباكِي .
- أوه، لا! لا أحسب أن ذلك يبدّل من الأمر شيئاً .

كان كلامها واضحاً ولكنّ هذا لم يُحلّ دون اضطباع وجهها
بالحمرة للمرّة الثانية . ثمّ توقّفت وطوّقت بذراعيها جذع شجرة كاكي
عند حافة الطريق .

«لقد خطر لي أن أدعوك لزيارتي . وهذا ما دفعني إلى اللحاق بك .

- وهل منزلك في هذه الناحية؟

- إنه على مقربة .

- أقبل دعوتك على أن تأذني لي بقراءة دفتر يومياتك .

- في نيّتي أن أحرقه قبل ممّاتي .

- للمناسبة أخبريني أليس في منزلك رجل مريض؟

- كيف علمت بذلك؟

- لقد ذهبتِ أمس لانتظاره في المحطة وكنت ترتدين عباءة كحلية .
لقد كانت بيننا رفقة سفر وكان يجلس قبالي تقريباً وترافقه فتاة
أحاطته بعناية لا توصف لشدة رقتها ولطفها. . . أهى زوجته؟ أم أنها
من فتيات المنطقة أوفدت لاصطحابه معها؟ أو هى من سكان
طوكيو؟ كم أحاطته بالعناية والانتباه. . . كانت بمثابة أم له . وقد أثر
في ذلك أبلغ التأثير.

- لماذا لم تذكر شيئاً حول هذا الموضوع مساء البارحة؟ لماذا هذا
الكتمان؟ قالت كوماكو بانفعال مباغت.

- أهى زوجته؟

غفلت عن الإجابة لانشغالها بالسؤال الذي طرحته عليه .
- ولكن لماذا كتمت عني مثل هذا الأمر مساء أمس؟ . . . يا
لطباعك الغريبة!

لم يكن شيامورا ليستحسن تلك الفظاظه في نبرة من يُخاطبه وعلى
الأخص إذا صدرت عن امرأة. إذ لا شيء مما رآه، في الظاهر، قد
يبرّر اللجوء إليها لا في مناسبة السؤال ولا في تصرفاته الشخصية. أو
تكون تلك أمانة على مكنون طباع كوماكو؟ ومع ذلك كان لا بدّ له
من الإقرار في سرّه بأن إلحاحها على السؤال قد استشار فيه مكن
حساسيته: صبيحة ذلك اليوم بالذات، وصورة كوماكو في المرأة،
أحمر خديها إذ ينعكس على بياض الثلج، فلا بدّ أنّ هذا كلّه قد أعاد
إلى مخيلته صورة المرأة الشابة في القطار وانعكاسها على زجاج نافذة
العربة. . . فلماذا إذا لم يأت على ذكر ما جرى؟

في تلك الأثناء كانا قد تقدّما في سيرهما.

«وما الأهميّة في أن يكون هناك رجلٌ مريض . إذ لا أحد يدخل إلى غرفتي على الاطلاق». قالت كوماكو وقد سلكت المعبر الذي يُفضي عبر جدار وطيء .

إلى الجهة اليمنى ، حقل صغير تغطيه الثلوج . وإلى الجهة اليسرى صفٌّ من أشجار الكاكي أمام السور الفاصل . أمام المنزل جُنيّة لا بدّ أن تكون حديقة ترفيه ، وفي بُركة اللوتس حيث نُزع الجليد المُحطَّم وُجّع عند الحافة ، كان في وسع العابر أن يرى عدداً من الأسماك الضخمة الحمراء . كان المبنى في ذاته يبدو قديماً ومُصدّعاً أشبه بجذع أجوف لشجرة توت مُسنّة . أكوام من الثلج تجمّعت هنا وهناك على سطحه المنفتل بعوارضه الملتوية وكأنها تزيّن الأفاريز بكشاكش .

ما أن يطأ المرء أرضيّة المدخل الموحلة حتّى يُطالعه بردٌ قارّ . ثمّ اقتيد شيامورا إلى أسفل سلّم حتّى قبل أن تعتاد عيناه على الظلمة المفاجئة . سلّم حقيقي يُفضي إلى عليّة حقيقية .

«كانت هذه عليّة خاصة بتربية دود القزّ . قالت كوماكو . ألم يفاجئك الأمر؟

- إنه لمن حسن طالعك حقاً أنك لم تقتلي نفسك حتى الآن إذ تتسلقين هذا السلّم وقد أفقدك السُكّر رشذك!
- لقد وقعت عنه مراراً . ولكنّ في العادة حين أشرب كثيراً أفضل أن أندسّ في الكوتاتسو هنا في الأسفل حيث أنام» .

وفيما كانت تسرّ له بذلك دسّت يدها داخل الكوتاتسو لتتحسّس درجة سخونته ثمّ لم تلبث أن هبطت السلّم لإحضار بعض الجمر .

تفحص شيامورا الغرفة بعناية ولاحظ أن ليس فيها سوى نافذة واحدة تطل على الجهة الجنوبية، لكنه لاحظ أيضاً أن ورق تلك النافذة ذات المصراع الجرار جديد ونظيف ويُتيح دخول أشعة الشمس بالقدر الكافي للإضاءة. كان ورق عجينة الأرض يُغطي الجدران فتبدو الحجرة وكأنها علبة من الورق المقوى القديم. ومن فوق كان السطح العاري هو السقف الذي إذ يميل منحدرًا حتى أعلى النافذة يولد انطباعاً بالعزلة الكثيرة. وسرعان ما تساءل شيامورا في انقياده إلى نوازعه الفطرية عما يوجد وراء الجدار الفاصل لهذه الحجرة الضيقة، وانتابه احساس مُنفّر أشبه بمن يجد نفسه على شرفة مقفلة الجوانب معلقة في الفراغ. غير أن الأرضية والجنبات بدت، برغم قَدَمها، مذهلة في نظافتها.

لُبَّه راقَت لشيامورا فكرة أن يخترق الضوء جسد كوماكو الحي في حجرتها المخصصة لتربية دود القز كما يخترق الأبدان الضئيلة الشفيفة لتلك اليرقانات الناشطة.

كان غطاء الكوتاتسو مصنوعاً من القماش القطني المخطط إياه الذي يستخدم عادة في خياطة «البناطيل الجبلية». أما الصُوان بأدراجهِ العديدة فقد بدا قطعة أثاث جميلة بخشبه الدقيق والمعرق باتقان والصقيل؛ - ربما كان تذكّار الأعوام التي عاشتها في طوكيو، قال شيامورا في سرّه. في المقابل، كانت قطعة الأثاث الأخرى، وهي منضدة زينة رخيصة، تشيع لمسة من التنافر بطابعها الريفّي فيما تُبرز علبة الخياطة المزخرفة مسحة من الدفء المكنون الذي يصنع فتنة الملك ذي النوعية الفاخرة. وعلى إحدى جنباتها صف من العُلب الصغيرة المترصّفة خلف ستارة من الصدف الخفيف يحجبُ الموضع

الذي تستخدمه، في الأرجح، كمكتبة.

كان الكيمونو المخصّص لأوقات الخروج والذي كانت ترتديه ليلة البارحة معلقاً هناك على الجدار وبدأ من فتحته حرير الأحمر الجارح للثوب الداخلي.

تسلّقت كوماكو السلم برشاقة حاملةً معها ما تحتاجه من الخطب.

«لقد أحضرت الخطب من غرفة المريض، قالت. ولكن اطمئن: يُقال إنّ النار تلتهم كلّ الجراثيم».

انحنت لتضرم لهب الجمر ومالت في انحنائها حتّى كاد شعرها المصفّف بعناية أن يلامس حافة الكوتاتسو. «إنّه سلّ الأمعاء الذي يُضني ابن أستاذة الموسيقى، أوضحت له. ولم يعد إلى المنزل إلّا ليموت هنا». في الحقيقة هو نفسه لم يولد هناك، إنه منزل والدته. لقد واصلت تدريس الرقص في المناطق الساحلية حتّى بعد أن كفّت عن العمل كفتاة غيشا. ولكنها أصيبت بنوبة قلبية على مشارف الأربعين وعادت إلى متجرّ الينابيع الحارّة بقصد العلاج. أما ابنها الذي كان مولعاً بالميكانيك منذ نعومة أظفاره فقد مكث هناك لينهي تدريبه على يد ساعاتيّ ماهر. وفيما بعد ذهب للإقامة في طوكيو حيث يتاح له أن يتابع دراسته في معهد ليلى دون أن يتوقّف عن العمل، وكان أن أفسد الإرهاق صحته وهو لا يزال في الخامسة والعشرين.

أفضت كوماكو إلى شيامورا بهذه الشروحات دون تردّد. ولكن لماذا أغفلت ذكر الفتاة التي كانت ترافق الرجل المريض؟ ولماذا لم يسمع منها أي تفسير لإقامتها هي في ذلك المنزل؟

على آية حال كان شيامورا يُصغي إليها بشيءٍ من الضيق . وبدا له أن المرأة الشابة بثت من أعلى شرفتها برنامجاً إذاعياً موجّهاً إلى نواحي العالم الأربع .

وما أن عاد إلى المدخل حتّى لمحت عيناه البياض الغائم لشيءٍ لم يره من قبل : علبة آلة الساميسن التي أذهله حجمها . بدت له العلبة أطول وأعرض مما تكون عليه عادةً ، لذلك كان يصعب عليه أن يتخيل كوماكو في إحدى الأمسيات التي تستدعى إليها وقد حملت معها تلك الآلة المربكة . وفي تلك الأثناء عمد شخصٌ ما إلى فتح الباب الداكن الذي يُفضي إلى الداخل .

«ألا يزعجك يا كوماكو أن أعبر من فوقها؟» سأل الصوتُ المثير بوضوحه وبنبرته الشجيّة التي تبثُّ السامع شجناً لا يُضاهى : صوت يوكو الذي يتردّد في مسامع شيامورا منذ أن سمعها لأوّل مرّة ، في تلك الليلة ، تنادي ناظر المحطّة عندما توقّف القطار عند طرف النفق . وأصغى في انتظار الجواب الذي سترامى إليه كالصدى .

«لا، أبداً، هلمّي!»

تخطّت يوكو بقفزة رشيقة علبة الساميسن واتجهت نحو الباب الخارجى حاملةً بين يديها مبلوّةً من زجاج . ولم تلبث أن ابتعدت بخطوات صامتة ، بعد أن رمقت شيامورا بنظرة خاطفة وحادة .

مما لا شكّ فيه أنها بنتُ تلك المنطقة ، بلد الثلوج : يكفي أن يرى طريققتها في ارتداء الهاكاما(*) الجبليّ أو أن يتذكّر نبرة الألفة في حديثها مع ناظر المحطّة غير أنّ الزركشة المرفهة التي تزين زنارها العريض

(*) لباس جبلي ، عبارة عن سرولة فضفاضة تصل حتى أعلى الركبتين .

والتي لا يُرى منها سوى نصفها الأعلى فوق السرولة الفضفاضة المشقوقة، كانت تُبرز تخطيط القماش الخشن البني والأسود وكذلك كميّ الكيمونو الطويلين وكأنّهما يكتسبان منها أناقة أشدّ إثارة. حتّى الهاكاما، المشقوق عند أعلى الركبة والمُتفخ كثيراً عند الوركين، كان يُضفي على قامتها مسحة من الليونة والرقّة ويبدو خفيفاً برغم غلظة القماش والخشونة المعتادة لمثل تلك الألبسة القطنية السميكّة.

حتّى بعد أن غادر المنزل ظلّ شيامورا مأخوذاً بتلك النظرة الحادّة التي خلّفت على جبينه أثراً كأنه حريق. وكانت الفتنة أيضاً قسماً من ذلك البهاء النقيّ الذي لا يوصف بيّنه نورٌ قصيّ وبارد، روعة تلك البقعة الملتزمة التي تلالأت على وجه المرأة الشابة ومن تحتها كان ينسربُ الليل، مُنعكساً على زجاج نافذة العربة، ذلك الوميض الذي انبثق لثوانٍ وأضاء نظرتها بنور مفارق كأنه تهلّل خرافي وغامض لم يستطع قلب شيامورا إلّا أن يستجيب له، في تلك الأمسية، بخفقانه المتسارع، وها قد امتزج به في ذلك الصباح سحر الثلج في لألّاته، والمدى الشاسع لبياضٍ يتألّق في كنفه، لامعاً وحاداً، كلّ القرمزيّ في وجنتي كوماكو.

أسرع في المشي. لا لرشاقةٍ في ساقيه، فقد كان، على العكس من ذلك، أقرب إلى السمنة. غير أنّ شيئاً من الخفّة كأنّها حيويّة مُستجدة لا يعرف مصدرها بالضبط، حلّت في بدنه لرؤية جباله المحبّبة. وكان لا يصعب عليه أن ينسى، في ميله الفطري إلى تصديق الأحلام، أن عالم الأنس يُقحم نفسه في لعبة الانعكاسات الغائمة والصور الغريبة التي تفتنه. لا، لم تكن نافذة العربة التي جعلها الليلُ مرآة، ولا المرأة

التي أفعمها بياضُ الثلج، أشياء صنعتها يدُ إنسان: فقد كانتا، في جزءٍ من تكوينهما، من طينة العناصر المكوّنة للطبيعة نفسها، وفي الجزء الآخر أقرب إلى عالم مغاير وبعيد. كون قائمٌ في مكان آخر وإليه تنتمي أيضاً الغرفة التي كان غادرها للتو.

وإذ انتابته تلك الأحاسيس، سرت رعدةٌ في أوصال شيمامورا وألحّت عليه رغبةٌ في العودة إلى أشياء العالم المادي. واستوقف مدلّكة عمياء عند أعلى المنحدر، وسألها أن ترافقه لتدلك له جسمه.

«لنر كم الساعة الآن»، قالت وهي تدس عصاها تحت ذراعها لتسحب ساعة جيب من زئارها وتفتح غطاءها مُحسّسة ميناءها بأنامل يدها اليسرى: «الثانية والنصف. لدي موعد عند الثالثة والنصف. هناك أبعد بقليل من المحطة. ولكن لا بأس إن وصلت متأخرة بعض الشيء.

- إنه لمذهل حقاً أن تكوني قادرة على قراءة الساعة، قال شيمامورا بإعجاب.

- ليست لها غطاء زجاجي ولذلك أتحسّس العقارب.

- والأرقام؟

- لا، الأرقام غير ضرورية». قالت وهي تسحب ساعة الجيب مجدّداً وتفتح غطاءها. كانت ساعة من الفضة أكبر بقليل من الساعات التي تحملها النساء عادة. وبعد أن وضعت ثلاث أصابع لاعتلام مواضع الثانية عشرة والسادسة والثالثة قالت: «باستطاعتي أن أعرف كم الساعة بالضبط، وإن أخطأت فبدقيقة أقلّ أو أكثر. وفي أبعد الاحتمالات ليس أكثر من دقيقتين على الإطلاق.

- وماذا عن انحدار الطريق، ألا تكبدك المشقة؟ سأله شيامورا قلقاً.

- عندما تمطر، تأتي ابنتي إلى البلدة وتصحبني إلى هذا المكان، أما في المساء فلا أعمل إلا في محيط البلدة ولا أصعد إلى هنا. حتى إن الأمر أصبح موضوعاً للتنادر عليّ من قبل نادلات النزل: إذ يزعمون أن زوجي هو الذي يرفض السماح لي بالخروج مساءً.

- ألك أولاد كبار؟

- ابنتي البكر في الثانية عشرة من عمرها.

تابعاً ثرثرتهما حتى وصلا إلى غرفة شيامورا، وعندما شرعت العمياء في التدليك توقفوا عن الكلام. وراى صمت لم يعكّره سوى عزف بعيد على الساميسن.

«عجباً! مَنْ التي تعزف؟ سألت العمياء مُصغية».

- أيامكانك دائماً أن تعرفي الغيشا من عزفها؟

- بعضهنّ، بلى، وبعضهنّ الآخر لا. لك جسم مَنْ ليس في حاجة لأن يعمل. ألا تتحسّس مقدار الليونة والارتخاء في أطرافك؟

- أما من تشنّج عضلي في أي موضع؟

- تشنّج بسيط، هنا، عند أسفل القفن. ولكنّ جسمك على التمام كما ينبغي أن يكون، لا مفرط السمّنة ولا شديد الهزال. أنت لا تحتسي المسكرات، أليس كذلك؟

- لأنك قادرة على التخمين بهذا الشأن أيضاً؟

- لديّ ثلاثة زبائن آخرين، ممّن اعتادوا خبرتي، يتمتّعون بمثل قوّتك البدنية.

- باه! إنها مزية عادية مثل أي صفة أخرى.

- ربما تكون على حق، ولكن إذا كنت لا تتناول المسكرات فهذا يعني أنك تحرم نفسك مُعينَ الهناءة: أن تقدر على النسيان، والقدرة على النسيان لذة حقّة!

- وزوجك، أيشرب زوجك؟

- بل يفرط في الشراب!

- ولكن بشأن عازفة الساميسن تلك، فهي، كائنة من كانت، عازفة رديئة.

- أجل، إنه عزف رديء.

- وأنت هل تحيدين العزف؟

- كنتُ أمارس العزف في صباي، منذ أن كنتُ في الثامنة وإلى أن بلغت التاسعة عشرة. ولكنني توقفت عن العزف منذ أن تزوجت أي منذ خمسة عشر عاماً.

ما أن سمعها شيامورا تبوح له بعمرها حتى راوده السؤال عما إذا كان العميان يبدون دائماً أصغر سنّاً ممّا هم عليه بالفعل. لكن سرعان ما أردف قائلاً:

«مَنْ تَمَرَّسَ على العزف في صباه الباكر يستحيل أن ينسى.

- في المهنة التي أزاوها اليوم، صدّقني، ما عادت يداي كما كانتا في السابق. لكنني ما زلت أمتلكُ أذنّاً لا بأس بها، وكم سيثني سماع عزفهن. ولكن أحسب أيضاً أن طريقة عزفي في صباي ما كانت لترضيّني الآن».

أصغت لشوانٍ

«ربّما كانت فومي، من فتيات الايزوتسويا. ذلك أن بإمكاننا دائماً

أن نتعرف دون مشقة على الأسوأ وعلى الأبرع من بينهنّ .
- وهل يوجد حقاً مَنْ هُنَّ بارعات في العزف؟
- كوماكو، عازفة ممتازة. لا تزال شابة بالطبع، ولكنها تحسّنت كثيراً منذ بعض الوقت.
- كوماكو؟ حقاً؟
- للمناسبة، أنت تعرفها أليس كذلك؟ بلى، أرى أنها ممتازة.
ولكن عليك ألا تنسى أيضاً أننا، هنا في الأرياف، أقلّ تطلباً.
- لا أعرف عنها إلا القليل لذلك لا يسعني القول، أوضح شيامورا. لقد صادفت أيضاً أثناء رحلتي في القطار أمس ابن مدرّسة الموسيقى .

- وهل هو في حالة أفضل؟
- لم يبد لي في حالة أفضل .
- آه؟ يبدو أن هذا المسكين قد كابد المرض طويلاً في طوكيو. حتّى إنّ البعض يقول إنّ كوماكو قرّرت، في الصيف الماضي العمل كفتاة غيشا محترفة لكي توفر له جزءاً من تكاليف العلاج. ولستُ واثقة من جدوى ما فعلته! . . .

- كيف؟ كوماكو؟
- كانا مجرد خطيين. ولكن أحسب أن المرء لا يشعر براحة الضمير إلا إذا بذل كلّ ما في وسعه. فعندئذٍ لا يبقى لديه على الأقلّ ما يلوم نفسه عليه.
- كانت خطييته؟

- هذا ما يقال. أنا لا أعرف أكثر ممّا يقال بالطبع. لكن مثل هذه الأمور لا تعرف عادةً إلا بالقليل والقال.

أليس من الأمور العادية جداً أن يسمع ثرثرة مدلكة في أحد المنتجعات تنمّ على فتيات الغيشا من بنات الناحية؟ غير أن هذه الأخبار فاجأت شيامورا وربما لأنها ترامت إلى مسامعه عبر قناة عادية، ولذلك بدت له مذهلة وغير معقولة. كيف؟ هي ذي كوماكو تتحوّل إلى فتاة غيشا لتهبّ إلى نجدة خطيبها؟ حديث خرافة! ألا يُشبه هذا أن يكون مشهد الميلودراما الأكثر ابتذالاً! فما استطاع أن يصدّق. حتّى في ميله إلى قياس تصرفها وفق ما تعلمه عليه قيمه الخاصة: فقد كان يودّ فعلاً لو أنّ المرأة قد اختارت بملء إرادتها أن تمارس حقّها في بيع نفسها كفتاة غيشا! وقصارى القول إنه أحسن برغبة عارمة في معرفة تفاصيل تلك الحكاية واستيضاح جوانبها الغامضة. ولكنّ المدلكة كانت قد أنهت عملها.

في غمرة انشغاله بما يجول في رأسه ويعتمل كانت تلحّ عليه دائماً فكرة «الجهد المبذول عبثاً» والتي سبقت أن راودته بشأن دفتر يوميات كوماكو. فإذا كانت كوماكو خطيبة ذلك الرجل فعلاً ويوكو الحبيبة الجديدة لذلك الخطيب الذي يكابد بدوره سكرات الموت الوشيك، أفلا يكون كلّ ذلك عبثاً مطلقاً وسدى؟ إذ كيف لا يكون هدرًا عندما تصل كوماكو إلى حدّ القبول ببيع نفسها لكي يتسنى لها أن تفي بالتزاماتها كاملة وأن توفر له تكاليف العلاج؟ سدى. جهد ضائع. عبث.

كان شيامورا يرى أنّ من واجبه أن يحدثها بالأمر في لقائهما التالي، ويقول لها كيف يرى من جهته إلى الأمور، ويحاول إقناعها. ولكن في الوقت نفسه كان لا يسعه إلّا الإقرار في سرّه بأنّ ما اكتشفه للتوّ من جوانب حياتها المكتومة جعلها في عينيه أكثر شفافية ونقاءً.

بلى، لقد كانت خشيته من كذبة ما، وإحساسه بفراغ ما وبقدر من الغرور في كل ذلك أقرب إلى توجس غامض ومقلق يدفعه إلى الحذر، كأن في الأمر ما فيه من أخطار خفية. ولبت شيامورا وقتاً طويلاً بعد مغادرة المدلّكة العمياء يُحاول استيضاح ما يخالجه، حتى أحسّ بالصقيع يُجمّد أطرافه. ليس فقط لأنه كان على تلك الحال بل أيضاً لأن نوافذ غرفته تُركت مُسرّعة.

كان أسفل الوادي الذي اكتنفته باكراً عتمة الظلال، قد اكتسى تماماً بمروحة ألوان المساء. والجبال، بأسقّة خارج الغور المُظلم، هناك، متوهجةً بأنوار المغيب، بدت أقرب بتضاريسها المجسّمة بفعل الظلال التي تفوقها تجويفاً وإظلاماً، وبياضها المتوقّد قليلاً تحت السماء الملتهبة بالحمرة. وهناك، أقرب منها، كانت غابة الأرز، عند ضفة الشلال، تحت ساحة التزلّج، تبسط رقعة ظلالها السوداء حول حرم المعبد.

كان شيامورا يزداد إحساساً بالوحشة والشقاء وقد أعيته مشاعر اللاجدوى والخواء الباطل. وعندما دخلت عليه كوماكو كأن شعاع نور حار أضاء ليله.

كان الفندق يستضيف اجتماعاً لوضع برنامج محلي لموسم الشتاء، وقد دُعيت إلى الأمسية التي ستعقب الاجتماع، قالت له فيما كانت تسارع إلى دس يديها الاثنتين داخل الكوتاتسو. وبعد ثوانٍ كانت كفّها تتحرّس وجنته في رقّة.

«كم أنت شاحب هذا المساء!.. غريب!..» قرصت خدّه قليلاً بين إصبعين وشدّت على البشرة اللينة كأنها تنزع عنها قناعاً.

«دعك من مزاجك العبثي، هيا! كأنك تُقلق نفسك» . . .

وحسب شيامورا أنها ثملة قليلاً.

ولكن حين عادت، بعد انتهاء الأمسية، تهالكت أمام المرأة وبدت عليها ملامح من يُفرط في تظاهره بالسكر:

«لا أفهم شيئاً. لا شيء على الإطلاق... أوه! رأسي.. رأسي المسكين! أشعر بألم.. ألم فظيع... يجب أن أشرب. آه! أحضر لي كوب ماء».

كانت تضغط صدغيها بيديها الإثنتين مُرجحةً رأسها غير مكترثة لتسريحتها العالية. ثم نهضت وراحت تفرك وجهها، بلمسات خفيفة متأنية، بمزيل المساحيق لتمسح عن وجهها طبقة الذرور البيضاء الكثيفة. كانت وجنتاها مُلتهبتين. ومع ذلك فقد بدت كوماكو كأنها أصبحت راضيةً عن نفسها أمام ذهول شيامورا الكبير إذ كان عاجزاً عن الاقتناع فعلاً بأن السكر قد يتبدد بسرعةٍ مماثلة. ورأى كتفيها ترتعشان لشدة البرد.

بهدهوءٍ ورويةٍ خالية من أي انفعال، أسرّت إليه أنها كادت تُصاب بانحيار عصبي خلال شهر آب.

«كنتُ أشعر بأنني سأفقد عقلي! كنتُ أستسلمُ لهواجسٍ كثيفة وأقلبُ أفكاراً قاتمةً ولا أعرف سبباً لما أعانيه. كانت حالة مُرعبة، لا أقوى على النوم ولا أتمالك نفسي إلا حين أغادر البيت. كانت أحلامي من كلِّ صنفٍ ونوع، وفقدت شهيتي للطعام. وكان يحدث لي أن أمكث ساعاتٍ أضربُ الأرض بكفي، جالسةً في موضعٍ لا

أفارقة، إلى ما لانهاية، في أشد أوقات النهار قيظاً.

- متى بدأت تزاولين مهنتك كفتاة غيشا؟

- في حزيران وحسبتُ لبعض الوقت أنه ربما كان علي أن أذهب إلى هاماماتسو.

- بغرض الزواج؟

أجابت بنعم. فقد كان الرجل مُصرّاً على الزواج منها، ولكنها لم تستطع أن ترغب نفسها على القبول به. وقد سبب لها قرارها النهائي بعض المتاعب.

- إذا كان لا يُعجبك فلماذا أبطأت في القرار؟

- ليس الأمر سهلاً كما تظن... فالأمور ليست بالبساطة التي تبدو عليها.

- الآن الزواج، في ذاته، يبدو لك مليئاً بالمغريات؟

- كفّ عن خبثك هذا! يحقّ للمرأة أن تحلم ببيت لها حيث تُعنى بترتيبه والحفاظ على نظافته».

أجاب شيامورا بغمغمة غير مفهومة.

«أوتدري، أن التحدّث إليك ليس مُمتعاً على الإطلاق!

- وهل كانت تربط بينكما علاقة، أنت ورجل هاماماتسو؟

تدفّق جوابها على الفور:

«أوتظن أنني كنت لأتردّد لحظة واحدة لو كانت تربطني به أي علاقة؟ لا، غير أن إصراره بلغ به حدّ السعي لعرقلة زواجي من أيّ كان حتّى هنا. ويؤكد أنه سيبدل كلّ ما في وسعه للعرقلة.

- ولكن، مهلاً. ألا ترين أن هاماماتسو بعيدة جداً ولا يستطيع أن يفعل شيئاً من هذا القبيل؟ ومع ذلك كنت قلقة؟».

إذ استسلمت لدعة الدفء الذي سرى في جسدها، تمطت كوماكو طويلاً، بانتشاء أرادت أن يدوم. وعندما أجابته أخيراً، كان كلامها ينم عن عدم اكتراث:

«ومع ذلك كنت أحسب أنني سأرزق مولوداً. أليس منتهى السخف؟...»

وضعت قبضتيها على ياقة الكيمونو وانطوت على أطرافها مثل طفل يريد أن ينام. ومرة أخرى انطلت على شيامورا خدعة أهدابها الكثيفة الناعمة، إذ حسب أن عينيها تنامان في نصف إغماضة.

عندما استيقظ شيامورا في الصباح رأى كوماكو مُستندةً بمرفقيها إلى الكوتاتسو، وبدأت مُنهمكةً بخربشاتِها على غلاف مجلّة قديمة.

«لن أستطيع العودة إلى المنزل، قالت له. لقد استيقظت حين أحضرت الخادمة الجمر. وكنا أصبحنا في وضوح النهار. وأشعة الشمس متوهجة عند الباب. لقد أفرطت قليلاً بالشراب ليلة البارحة و نمت نومة أهل الكهف.

- كم الساعة الآن؟

- الثامنة.

- حسناً إذاً سنذهب للاستحمام، قال شيامورا وقد نهض قافزاً من فراشه.

- أنا لن أذهب: فقد يلمحني أحد عند المدخل...»

كانت كأنها جُبلت بمشاعر الرضوخ سواء في سلوكها أم في نبرة صوتها.

وما أن عاد شيامورا من الحمام حتّى وجدها مُنهمكةً بتنظيف الغرفة بعناية بالغة وقد عصبت شعرها بمنديلٍ أصفى على مظهرها مسحةً

أناقة . كانت تنفض الغبار بروية عن قوائم الطاولة والهياشي(*) ، ثم
تضرم بيدها الحاذقة والخفيفة ، نيران الجمر .

كان شيامورا مسترخياً في جلسته المريحة يدخنُ بلا مبالاة وقد
دسَ قدميه داخل الكوتاتسو . وعندما سقط رماد سيكارتته على
الأرضية تناولت كوماكو منديلاً لتلممه وأحضرت له منفضة سكاثر
فأطلق ضحكة ابتهاج صباحي وضحكت كوماكو بدورها .

«لو أن لك زوجاً، قال لها، لما أقلت لحظة عن تأنيبه .

- أوه! لا أبداً! الأحرى أن يسخر هو مني حيال إصراري على طي
كل شيء حتى الثياب الداخلية المتسخة . فلا حول لي في ذلك : لقد
ترعرت على تلك الخصال!

- يستطيع المرء أن يعرف كل شيء عن امرأة ما بمجرد أن يلقي
نظرة واحدة على دُرج صوانها» .

كانا يتناولان طعام الفطور وأشعة الشمس تملأ الغرفة ببهجة
أنوارها :

«إنه نهار رائع! قالت . كان ينبغي أن أعود إلى داري لأعزف على
آلة الساميسن : فموسيقاها في طقسٍ مثل هذا تبدو مختلفة جداً» .

رفعت عينيها نحو السماء التي بدت صافية كالبلور . وفي البعيد
كان الثلج الذي يكسو الجبال متألّقاً بألوانه الزبدية ورقيقاً كأنه
يحتجب خلف غلالة من دخان أبيض .

(*) مدفأة صغيرة (مصنوعة من الخزف أو الخشب) تُستخدم لتدفئة اليدين .

لم يتردد شيامورا، بعد ما أسرت به إليه المدلّكة، في أن يدعوها
للغزف على آلة الساميسن، في غرفته. فسارعت كوماكو إلى الاتصال
هاتفياً بمنزلها وطلبت أوراق موسيقاها والآلة وشيئاً ترتديه لتبذل
ثيابها.

هكذا إذاً، قال شيامورا في سرّه مُتكاسلاً، إنّ الدارة القديمة التي
رآها ليلة البارحة مجهزة، برغم قدمها، بهاتف خاص. . . وتراءت له
عينا الفتاة الأخرى، نظرتها: يوكو الشابة.

«أهي تلك الفتاة الشابة التي ستحضر لك ما تحتاجين؟

- ربّما جاءت هي بالفعل.

- والابن، إنه خطيبك؟

- كفى! ولكن متى علمت بالأمر؟

- أمس.

- يا لك من رجلٍ غريب الأطوار. . . إذا كنت تعلم بالأمر
منذ البارحة، فلماذا لم تقل لي شيئاً بهذا الشأن؟».

كانت تردّد تقريباً كلام البارحة نفسه، سوى أن نبرتها لم تكن
عدوانية، لا بل على العكس من ذلك: فقد خالطت صوتها لكنة
استرخاء ومازجته ابتسامة عريضة.

«لو كنتُ أقلّ حرصاً على احترام الآخرين لكان أسهل عليّ أن
أطرق مثل هذه الأمور، قال شيامورا بلهجة واثقة.

- وأنا، كم أودّ أن أعرف حقيقة الأفكار التي تراودك في أعماقك.
آه! أترى، لذلك لا أحب أهل طوكيو!

- أرجوك، لا تبدلي الموضوع، وتعلمين جيداً أنك لم تحببي بعْد عن سؤالي.

- ولم أسعَ لتجنّبه. وهل صدّقت ما قيل لك؟

- أجل، صدّقت.

- إنها كذبة أخرى. فأنت لم تصدّق بالفعل، أليس كذلك؟

- الحق يُقال أنني لم أصدّق كلّ ما قيل. ومع ذلك فإنّ الرواية التي سمعتها تؤكد حقيقة أنك أصبحت فتاة غيشا لتوفير تكاليف العلاج.

- من يسمع كلّ هذا يحسب أنّها رواية مبتذلة. ولكنّ هذا غير صحيح. لم أكن يوماً خطيبته وإن شاء الناس، كما يبدو، أن يصدّقوا. ولزيت من الدّقة أخبرك أنني لم أصبح فتاة غيشا بقصد إعانة أحد. غير أن هذا لا يعني أنني لست مدينة لوالدته بالكثير، ومن اللائق بالطبع أن أبذل كلّ ما في وسعي.

- أهو لغزٌ أم ماذا؟

- لا بالطبع، وسأطلعك على كلّ شيء. فما من خفايا أو أسرار. يبدو من المؤكد الآن أنّ فكرة زواجي منه قد راودت الأمّ ذات يوم. إلّا أنّها لبثت فكرة ليس أكثر ولم تطلع أحداً عليها على الإطلاق. وكنا، أنا والابن، نرتاب بما يدور في خلدها، وفي آخر الأمر ظلّت الأمور على حالها. والحقيقة أن شيئاً آخر لم يحدث. هذه كلّ الحكاية.

- يمكن القول إنّها صداقة طفولة.

- بالضبط. ثمّ ترعرعنا منفصلين. ومع ذلك لم يرافقني أحدٌ سواه إلى المحطة عندما أرسلوني إلى طوكيو كي أصبح فتاة غيشا. لقد دوّنت ما حدث في ذلك اليوم في أول صفحةٍ من دفتر يوميّاتي.

- لو أن الحياة لم تفرّق بينكما لكتتما الآن زوجاً وزوجة .
- لا ، لستُ واثقةً ممّا تقول .
- ومع ذلك ، أحسبُ أن زواجكما كان ليتمّ .
- من جهته هو لا جدوى من إحساسه بالأسى لأنّ زواجنا لم يتمّ .
أيامه أصبحت معدودة .
- ألا تعتقدين ، برغم ذلك ، أنّ من الخطأ أن تقضي لياليك خارج البيت ؟
- الخطأ هو أن تطرح عليّ السؤال . ثمّ كيف لرجلٍ مُحترّ أن يشينني عن التصرف كما أشاء ؟» .

لم يجد شيامورا ما يردّ به عليها . ولكنّ لماذا تتكتم كوماكو إذاً بخصوص يوكو وتُغفل أي ذكر لها؟ يوكو التي رآها في القطار تحوط المريض بعناية أمومية . يوكو تلك التي اعتنت به كما تُعنى أم بطفلها ، تُرى كيف تكون أحساسيتها لو كانت هي من سيحضر الكيمونو والآلة لكوماكو ، كوماكو التي تربطها صلات لم يعرف حقيقتها بعد ، بالرجل الذي عادت به إلى بلدته .

عندئذٍ غرق شيامورا ، كعادته في معظم الأحيان ، في لجّة أفكاره الغامضة .

«كوماكو! كوماكو!»

رصين وعميق وواضح ، كان ذلك صوت يوكو الرائع .
«شكراً لك ، بالفعل ، شكراً جزيلاً! قالت كوماكو بينما كانت تهرع لتلاقيها عند ردهة المدخل . لقد أحضرته بمفردك ، أليس كذلك؟ لا بدّ أنّه كان ثقيلاً عليك» .

ولم تلبث يوكو أن عادت أدراجها دون تريث.

عندما أرادت كوماكو أن تنقر أوتار آلتها للتثبت من صحة الدوزان انقطع وتر النغمة الحادة مباشرة. ولم يسع شيامورا لمجرد أن رأى براعتها في تبديل السوتر ودوزنته إلا الإقرار بحسن دربتها ودرايتها كعازفة. كانت قد وضعت رزمة من كراسات الموسيقى على حافة الكوتاتسو: مجموعات من الأغاني في طبقات رائجة، وبجانبتها نحو عشرين كراسة لتلقين الموسيقى وفق أساليب كينيا ياشيتشي القديمة وبعض المقطوعات الحديثة لتلقين العزف دون معلّم، وكان شيامورا يقلّبها ويتفحصها بفضول كبير.

«هل تعتمدين في عزفك على هذه الكراسات(*)؟»

- وما حيلتي؟ لا أجد هنا من يستطيع تلقين العزف على الساميسن.

- وأستاذة الموسيقى التي تقيمين في دارها؟

- إنها مشلولة.

- ولكن ألا يسعها أن ترشدك بنصائحها إذا كانت قادرة على النطق؟

- إنها عاجزة عن النطق. ولم تبق لها سوى قدرة قليلة على استخدام يدها اليسرى، وبها ترشد تلاميذ الرقص إلى أخطائهم. ولعلّ أشدّ ما يؤلمها أن تسمع عزف الساميسن ولا تقدر على أي شيء آخر.

- وهل توصّلت فعلاً إلى العزف على الساميسن باتباعك هذه

(*) إن الكتابة الموسيقية اليابانية الكلاسيكية تتميز بدرجة عالية من التعقيد.

الطرائق المكتوبة؟

- أنا أقرأ الموسيقى جيداً.

- أحسب أن غبطة ناشر هذه المقطوعات ستكون كبيرة عندما يترامى إلى سمعه أن فتاة غيشا محترفة - وليس مجرد مبتدئة في عالم المهنة - تعمل هنا، في هذه الجبال، انطلاقاً مما درسته من موسيقاه.

- خلال إقامتي في طوكيو كنت أود أن أصبح راقصة وتابعتُ تدريباً متواصلاً على الرقص: تمارين، دروس نظرية، وكل شيء. أمّا الساميسن فلم أحظ من أصول العزف عليه إلا بالمبادئ الأولية لا بل عَرَضاً. ولو حدث أن نسيت هذه المبادئ الأولية لما وجدتُ هنا مَنْ يقدر على تلقيني مجدداً. ولذلك أحفظ بهذه المقطوعات.

- والغناء؟

- لا أحب الغناء على الإطلاق. لقد اتقنتُ بعض الألحان التقليدية بالطبع خلال تدريبي على الرقص، وبإمكاني أن أودّيها بالطريقة الصحيحة. أمّا الألحان الجديدة فلا أعرف منها إلا ما أسمعه عبر الإذاعة، ولست واثقة من معرفتي الصحيحة بالفروقات بينها. آه! أعرف جيداً أن ادائي الشخصي لهذه الألحان قد يدفعك للسخرية مني! والحقيقة أن صوتي يخذلني دائماً عندما أغني لمن أعرفه جيداً. أمّا أمام الغرباء فيبدو أفضل بكثير ويصبح قوياً واثق النبر.

بدت حائرة قليلاً فأغضت بشيء من الارتباك، ثم رمقته بنظرات مَنْ ينتظر، كأنها تقول له إنها أصبحت مستعدة لسماعه وليس عليه إلا أن يبدأ، هو، بإنشاد الأغنية التي يشاء.

كانت نظراتها تلك قد أربكت شيامورا الذي لا يمتلك لسوء الحظ

أي موهبة غناء. فهو من المهتمين بقضايا المسرح والرقص ويعرف كل ما يتعلق بموسيقى ناغوتا ويكاد يحفظ غيباً كل العروض الغنائية على مسارح طوكيو، إلا أنه لم يسبق له أن درس الغناء، وفي ظنه أن ترتيل «القصائد الطوال» ينتمي إلى فن الإنشاد المسرحي الموقع ويتلاءم وأداء الممثلين أكثر بكثير مما قد يتلاءم وفن الترفيه، الأكثر صميمية، الذي تمارسه فتيات الغيشا.

«الآن السيد يتمنع عن الغناء؟ قالت كوماكو في شبه دعابة إذ مطّت شفتها بمشاكسة محببة فيما أسندت الساميسن إلى ركبته واستغرقت بنظرات ثابتة، كأنها استبدلت بشخص آخر للتو، في تفحص كراس النوبة المفتوح أمامها.

- هذه هي المقطوعة التي أنكبّ على دراستها منذ موسم الخريف» قالت.

وراحت تعزف لحن كانجينشو.

وعلى الفور سرت رعشة في جسد شيامورا، حتى حسب أن تياراً كهربائياً قد مسّه فتفشّت به قشعريرة حتى خديه. وبدأ له أن أولى النغمات تجوّف أحشائه وتفسح فيها فراغاً حيث يتردد، واضحاً وصافياً، رنين الساميسن. كان ما ينتابه أشدّ من الدهشة: إنه الذهول الذي كاد أن يودي به، أن يفقده الرشد مثل ضربة محكمة. كان مذهباً في ما يشبه الإجلال الخالص، مُستغرقاً، لا بل غارقاً في لجة بحر من الحسرات، مُشفقاً، تائهاً، عاجزاً عن المقاومة، ولا يجديه إلا أن يلوذ بتلك القدرة التي تتقاذفه وأن يستسلم أعزل ومغتبطاً لأهواء كوماكو، ولها أن تفعل به ما تشاء.

ولكن مهلاً؟ فهي ليست في آخر الأمر سوى فتاة غيشا ريفيّة،
إمرأة لم تبلغ بعد عامها العشرين: ولا يُعقل أن تكون بمثل تلك
البراعة! لم تكن الحجرة حيث يجلسان واسعة ولكنّ أما كانت تعزفُ
بالأدعاء الذي قد يُرافق عزف المحترف في صالة كبيرة؟ وإذ تملكه
سحرُ الأشعار الريفيّة، استسلم شيامورا لحلمه. كانت كوماكو
تواصل إنشادها بنبرة أرادت رتيبة، مردّدة بعض المقاطع ببطء
متعمّد، غافلة عن بعضها الآخر لصعوبة مطالعها أو رتابتها. ولكن
سرعان ما استسلمت بدورها لمثل ذلك الاسترسال، مستغرقة في نوع
من ثالة الافتتان. وكان إنشادها الجسور يُغرق شيامورا في ما يُشبه
الدوار، فيقاوم استسلامه له إذ لا يعرف إلى أين ستفضي به
الموسيقى، فيتظاهر باللامبالاة والبعد وقد أسند رأسه إلى راحة يده.

استعاد طلاقة أفكاره بعد أن توقف الغناء. «إنها تحبني، هذه المرأة
واقعة في غرامي». إلا أن تلك الخاطرة قد أزعجته.

سَرّحت كوماكو أنظارها في السماء الصافية فوق الثلج. «إن النعمة
تكون مختلفة تماماً في مثل هذا الوقت». وبالفعل، فقد كان بذخ
الرنين ومرتبته النغمية على أفضل ما يكون كما ألمحت. وكم كان
الإطار مختلفاً أيضاً، في تلك العزلة الحميمة بعيداً عن معوقات المدينة
وزخارف الخشبة، بعيداً عن جدران المسرح والجمهور، في صحو
ذلك النهار الشتوي، في قلب شفافية البلّور تلك، حيث كان بلّور
الموسيقى وكأنّه يبتث إنشاده الرنان الصافي حتّى يصل إلى ذرى الجبال
المكسوة بالثلوج، هناك، في البعيد، عند حافة الأفق!

وكوماكو المستوحدة في انكبابها على دراسة الموسيقى في ذلك الركن

النائي من منطقتها الجبلية، ألم يتشبع كيائها، ألم يغتذ من تلك
الينابيع الساحرة والطاقات الكامنة لطبيعة باذخة الفضائل تتواصل
معها ولو من غير قصد؟ الطبيعة البرية الهائلة لمنطقة أعلى الوادي. ألا
تعثر عليها في عزلتها بالذات، في قوة إرادتها التي لا تلين والتي تمنحها
القدرة على تحمّل المشقات؟ على الرغم من معرفتها بالمبادئ الأولية
للعزف، فإن الاعتماد على النوطة المكتوبة لعزف تلك الموسيقى
الصعبة، والإنكباب على دراستها كما فعلت والتوصّل إلى عزفها
غيباً، لا بدّ أن تكون أمانة على صنيع الإرادة التي لا تلين.

جهدٌ ضائع تلك الطريقة في الحياة. طاقةٌ تبدّد هدرًا. عبث.
تلك كانت قناعة شيامورا، ولكن من أعماق ذاته كان يُصغي إلى
النداء الصامت المُلحّ الذي يستثير تعاطفه من عمق ذلك الاشفاق.
ومع ذلك، كان شيامورا يودّ أن يقول في سرّه، إن تلك الطريقة في
الحياة لم تبدّد شيئاً من مسحة القداسة، لا بل التألّه، التي تستمدّها
من الساميسن.

وربّما كان شيامورا، في حساسيته المفرطة للانفعال الموسيقي
وجهله المطبق بالبراعات التقنيّة البحتة، السميع المثالي لعزف كوماكو؟
على أية حال كانت بدأت معزوفتها الثالثة، المياكادواي.
وشيامورا الغارق في عذوبة تلك الموسيقى المبهجة والرقيقة، شيامورا
الذي تراخت في كيانه رعشة المسّ الكهربائي واستحالت دفقاً داخلياً
شهياً الدفء، شيامورا المُكتنف بإحساسٍ عميق بالالفة الحسيّة،
رفع رأسه ونظر إلى كوماكو مُستغرقاً في تأمل وجهها.

بدا أنفها الدقيق الأَقنى، برغم مسحة اليُتم التي تلازمه عادةً،

كأنه استعاد في ذلك اليوم بعضاً من بهجته إذ يكتنفه لون الخدين
المشرق والحرار. كأن الأنف يقول: «أنا هنا أيضاً!» وعلى طرف
شفتيها اللحيمتين المطبقتين بروعة كأنها برغم زهرة، كانت تتلألأ
قبسات نور، وعندما تنفرجان لينطلق الغناء فإنما هنيهة ثم سرعان ما
تطبقان مجدداً كبرعم. لقد كانت حركتهما المشيرة التي لا تنقبض إلا
لكي تُرخى بمزيدٍ من الاستسلام والفتنة، أفضل ما يُعبر عن حركة
جسدها بالذات، إذ يتصلّب لشوانٍ لكي يستعيد على الأثر الأنوثة
الشهوانية لصباها الجميل. وكان بريق نظراتها، الرقاقة البراءة،
اللامعة، يبدو صبيانياً. ولا تزال عيناها عيني فتاة صغيرة، لا بل
عيني طفلة، ولهما إشراق اللون الطبيعي لفتاة جبلية وساذجة، تحت
قناع الوجه الصقيل لفتاة الغيشا من أهل المدن. أما بشرتها فكأنها
أملس من رقيقات البصل المقشر للتو، أو، بالأحرى، هي أشبه
ببصلة الزنبق تخالط رقتها مسحة من لون زهري يفشو حتى النحر.
وكلّ هذا يفوح بضوح الهففة.

كانت كوماكو التي حافظت على استقامة جلستها فبدت أصغر سناً
بكثير، قد بدأت بمعزوفة لم تحفظها غيباً بتمامها فراحت تستعين بقراءة
النوطة. وعندما انتهت منها دسّت الريشة بين الأوتار ببراعة عازف
محترف. ولم تلبث أن تبدّلت حركاتها فاستعادت ليونتها الفاتنة، وتلك
التلقائية الخفية التي تُكسبها مسحة من الإغواء.

كان شيامورا يحاول عبثاً أن يجد ما يقوله، إلا أن كوماكو بدت
وكأنها لا تبالي كثيراً بمعرفة رأيه حول طريقتها في العزف. وكانت
تُبدى بوضوح إحساسها بالرضى عن نفسها دون أن يخالطه أي
تواضع زائف.

«أبإمكانك أن تعرفي، معرفة قاطعة، ولمجرد السماع، أيّاً من فتيات الغيشا هي التي تعزف، عندما تسمعين لحناً من ألحان الساميسن؟»

- الأمر ليس صعباً: لا يوجد هنا سوى عشرين فتاة غيشا أو بالكاد. ومع ذلك فإنّ هذا الأمر مرهون قليلاً بالمعزوفة نفسها: فبعض الألحان تكشف، بطبيعة أسلوبها عن شخصية العازف أكثر من سواها وهكذا...».

وعندئذٍ وضعت آلتها على الأرض ومدّت ساقها جانباً بحيث أسندت طرفه الأبعد إلى ربلة ساقها وقالت في لهجة مُداعبة:

«هكذا يُمسك الصغار بالآلة». قالت له موضحةً وقد انحنت على الساميسن كأنها فتاة صغيرة جداً. وانشدت كطفل، بصوت حاد مرتجف: «سوا - وا - وا - والشعر».

- «أهي أوّل أغنية تعلّمتها؟»

- «أشّل (*) - أشّل»، أجابت مواصلةً لعبتها في تقليدها البارع للفتاة الصغيرة التي كانت عندما كانت لا تزال عاجزةً عن الإمساك كما ينبغي بالآلة الكبيرة ذات الأوتار الثلاثة.

أصبحت كوماكو لا تحاول المغادرة عند الفجر عندما تمضي ليلتها في غرفة شيامورا. وما لبث أن ترمى إلى سمعها صوت طفولي يناديها: «كوماكو! كوماكو!» بنبرة عذبة: إنها ابنة مالكي الدارة، طفلة (لم تبلغ العامين بعد) كانت كاماكو تلهو معها في الكوتاتسو ثم تصحبها إلى الحمام عند الظهر.

في ذلك الصباح كانت كوماكو تسرح لها شعرها بعد الاستحمام وتثرثر:

«كلما رأت فتاة غيشا تناديها «كوماكو» بصوتها الطفولي ولهجتها المضحكة. وعندما ترى صورة امرأة ذات تسريحة تقليدية عالية، فهي أيضاً «كوماكو». الأطفال لا يخطئون أبداً: إنهم يعرفون من يُحبهم! «تعالى بسرعة يا كيمي، سنذهب لنلعب عند كوماكو!».

كانت جاهزة للرحيل وابتعدت عن الكوتاتسو، إلا أنها توقفت على الشرفة، متكاسلة، وراحت تنظر إلى الخارج.

«يا لمخبولي طوكيو أولئك! يتزلجون في مثل هذه الساعة!»

كانت الشرفة تطل على حقول الثلج ناحية السفح الشمالي للجبل.

التفت شيامورا الذي لم يغادر الكوتاتسو ليرى: مساكب من الثلج تتوالى على ساحة السفح المنحدر، وخيال خمسة أو ستة أشخاص في ثياب التزلج ينحدرون بخطوط متعرجة من حقل إلى حقل إذ بدت الحيطان الوطيئة التي تفصل بين الحقول مكسوة بطبقة رقيقة من الثلج. كأن المتزلجين دمي غريبة ومثيرة للضحك.

«أ يكون اليوم الأحد؟ أحسب أنهم طلاب، قال. أتراها رياضة مُسلية...»

«هم ليسوا من المبتدئين بأية حال، قالت كوماكو وكأنها توضح هذا الأمر لنفسها. إن سيّاحنا لا يخفون دائماً دهشتهم عندما تبادرهم فتاة غيشا بالتحية في ساحات التزلج: كأنهم لا يتعرفونها تحت هالة الثلوج. فهم لا يرون الغيشا إلا وقد غطت وجهها بالمساحيق البيضاء، عند المساء.

- أترتدين البنطال والسترة الخاصين بالتزلج؟

- لا، أرتدي الهاكاما الفضفاض. كم هو مُرهق موسم التزلج هذا! إذ يلحّ الزبائن الذين نلتقيهم ليلاً في النزول على اصطحابنا في اليوم التالي لممارسة التزلج. أعتقد أنني سأرفض دعواتهم هذا الشتاء... والآن، هيا، ينبغي أن أغادرك. هلاً أتيت يا كيمي؟ يبدو أن الثلج سيتساقط بغزارة هذا المساء فالبرد شديد. هنا، يُصبح البرد شديداً في الليلة التي تسبق تساقط الثلوج».

كان شيامورا قد جاء إلى الشرفة ليشاهد كوماكو وهي تعبر الدرب المنحدر بشدة أسفل الحقول المكسوة بالثلوج وتقود الصغيرة بخطواتها الحذرة المتأنية.

كانت الغيوم تزداد كثافةً في السماء وخلفَ الجبال التي أصبحت غارقةً في الظلال انبسقت جبال أخرى لا تزال مكلّلة بهالة ضياء . وكان الترجُّح في لعبة الظلّ والضياء يتكشف عن مشهدٍ جليديّ، وسرعان ما اكتنفت العتمة كلّ الساحات المخصّصة للتزلُّج . كانت مسلات الجليد تحت طنّف السقف لا تزال تقطر ماءً، ولكنّ شيامورا لاحظ حين نظر نحو الأسفل، أنّ تلك القطرات لا تلبث أن تتجمّد على الأقحوان الذي أذواه الصقيع تحت نافذته .

لم يأت المساء بالثلوج بل باعصار برّديّ أعقبه مطر متواصل وبرّديّ.

عشية رحيله استدعى شيامورا كوماكو لقضاء الأمسية الأخيرة معه . كانت ليلة مقمرة برّدها قارس . ولكنّ كوماكو ألحّت عليه نحو الساعة الحادية عشرة لاصطحابها في نزهةٍ وأرغمته على ترك الكوتاتسو.

كان الدربُ صلباً تحت الجليد والبلدة غارقةً في سباتها تحت سماء الصقيع . وكانت كوماكو قد رفعت أطراف الكيمونو ودسّتها تحت الأوبي؛ وبدأ القمر كنصل مغروز في كتلةٍ من الجليد يشع ببريق فولاذي أزرق .

«لتتابع السير حتّى المحطة، اقترحت كوماكو بحماسة لا تقبل التردّد .

- ويحك، هذا جنون مطبق! المحطة تبعد تقريباً كيلومترين ذهاباً!
- ولكنك ستغادر قريباً إلى طوكيو، أليس كذلك؟ سألت بإلحاح.
إذاً لا بأس من الذهاب لمشاهد المحطة قليلاً» .

سارا وأحسّ شيامورا بلسع البرد من مؤخر عنقه حتّى أصابع القدمين.

وما أن عادا إلى الغرفة حتّى تهالكت كوماكو في مكانها، صامتةً، مطرقةً ينتابها القنوطُ وقد دسّت ساعديها داخل الكوتاتسو. ولسبب ما رفضت أن ترافق شيامورا إلى الحمام.

عندما عاد ألفاها مكتئبةً مُرهقةً تقتعد الأرض بجانب الفراش الذي وُضع بحيث يكون طرفه، عند قدمي النائم، داخل الكوتاتسو. ولم تنفّوه بكلمة واحدة.

«ما الأمر؟»

- أريد أن أعود إلى البيت.

- إنّها نزوة سخيّة!

- استلق على فراشك. سأمكث جالسةً بعض الوقت هنا.

- ولكنّ لماذا تريدان العودة إلى بيتك؟

- لن أعود. سأمكث على هذه الحال حتّى الصباح.

- هيّا لا تكوني معقّدة على هذا النحو!

- لست معقّدة، على الإطلاق، لا، لا.

- إذا؟

- ذلك أني... حائض.

ضحك شيامورا

«أهذه هي المشكلة؟ فليكن، سأدعك تنامين دون أن أتحرش بك.

- لا، لا أريد.

- أوتحسين أن المشكلة تزول حالما تغادرين عذواً إلى طرف البلدة الآخر.

- سأغادر. . . أنا عائدة إلى بيتي.

- لا أجد سبباً لذلك.

- آه! ليس بإمكانني القول إن الأمور بمثل هذه السهولة! عليك أن تغادر إلى طوكيو. ولا أستطيع أن أرضخ لهذا الأمر بسهولة! قالت وقد حنت رأسها فوق الكوتاتسو.

أهو شجن الإحساس بالولـه أو الارتباط العميق حين لا يتعدى الأمر مجرد علاقة بسائح؟ أم هي قسوة الكتان، حين لا يكون البوح ممكناً في مثل تلك الحال؟ المهم، تلك كانت حالها! فكّر شيامورا الذي مكث صامتاً هو أيضاً.

«أتوسّل إليك: عد إلى طوكيو!

- في الحقيقة كنت عازماً على الرحيل صباح الغد.

- ماذا؟ أوه كلاً! . . . لن ترحل، ليس هناك ما يدعوك إلى الرحيل، أليس كذلك؟»

كانت قد انتفضت في جلستها كمن يستيقظ مذعوراً من النوم، وارتسمت في عينيها بوارق ذهول لا يخلو من الزيف.

- ما الذي يسعني لأجلك أكثر من أن أطيل إقامتي هنا ما استطعت؟»

حدّجته كوماكو بنظرة ثابتة، ثم صرخت في وجهه بغتة:

«لا يحق لك أن تخاطبني بمثل هذا الكلام! أوه، لا! ما الذي يدفعك إلى قول هذا؟»

ونَهَضَتْ بحركة مفاجئة وطَوَّقَتْ عنقه بذراعيها.

«لا يليق بك أن تقول مثل هذا الكلام! هيا، انهض! قلتُ لك انهض!»

كان سيلٌ من العبارات المبهمة يتدفَّق من شفتيها بعد أن أرخت ذراعيها وارتمت إلى جانبه وقد غفلت تماماً، في غمرة انفعالها، عن العائق الطبيعي الذي ألمحت إليه قبل ذلك بقليل.

وبعد قليل فتحت عينيها مجدداً وطالعتَه بنظراتٍ دامعة ودافئة.

وإذ بدت منهمكةً بجمع الشعيرات التي سقطت منها على الفراش، بحركة آلية من يدها قالت بنبرة واثقة:

«ينبغي أن ترحل غداً، بالفعل».

وكان صوتها رائقاً ونبرتها مطمئنة.

في صبيحة اليوم التالي، كان شيمامورا الذي سيغادر في قطار الساعة الثالثة، مُنهمكاً في تبديل ملابسه، ما بعد الظهرية بقليل، عندما نادى صاحب النزل كوماكو عند الباب وحدثها في الرواق.

«ويحك! . . . سنقول إنَّ المجموع بلغ إحدى عشرة ساعة».

كان ذلك صوت كوماكو، وأدرك أن حديثهما يدور حول أتعابها كفتاة غيشا والتي بلغت في الحقيقة ست أو سبع عشرة ساعة، وذلك ربّما ما وجده صاحب النزل كثيراً. وفي آخر الأمر اتفقا أن يتمّ الحساب على أساس التوقيت: «من يُغادر في الساعة الخامسة» أو «من

يغادر عند منتصف الليل» ولم تُحتسب كل الخدمات الليلية غير المعتادة.

ثم رافقته كوماكو إلى المحطة وقد ارتدت عباءة وغلالة وجهه بيضاء.

وبعد أن تسوّق عدداً من الهدايا الصغيرة ليحملها معه إلى طوكيو لم يبق أمامه سوى عشرين دقيقة قبل انطلاق القطار، فراحا يتنزّهان في الساحة قبالة المحطة وغرق شيمامورا في أفكاره مُستغرقاً في تأملها وفي ضيق ذلك الوادي الصغير في وسط الكتلة الهائلة للجبال المكسوة بالثلوج. كأنه جيب ظلال، حفرة مستوحدة بين العزلات الريفية! وشعر كوماكو الذي يدجّيه السواد كان يوقظ في كيانه رعشة من الاثارة والحزن الهين.

كانت الشمس تُلقي أشعةً باهتة، هناك، على أحد سفوح السلسلة الجبلية، صوب تدفق مياه الشلال الموغلة في البعيد.

«لقد تعاضم ذوبان الثلوج منذ أن حللتُ هنا، قال شيمامورا مُسرحاً أنظاره الساهية صوب الجبال.

- أوه! يكفي أن تُثلج ليومين وستبلغ كثافة الثلوج المترين وأزيد! ثم لا بدّ أن تُثلج مجدداً، وسرعان ما يغطي الثلج تلك المصابيح التي تراها هناك. أما أنا فسأواصل نزّهاتي في هذه الناحية يستغرقني التفكير فيك، وسيعثر عليّ وقد شنقتُ نفسي بإحدى هذه الخطوط!

- أحقاً تبلغ كثافة الثلوج هذا المقدار؟

- يُحكى أنّ تلاميذ إحدى المدارس، في البلدة المجاورة، يقفزون

عراً من غرف النوم في الطبقات العليا وبإمكانهم أن يسيروا تحت طبقات الثلج المتراكم، يحجبهم علوها كأنهم يسبحون تحت الماء. آه! انظر إنها طرّادة ثلج!

- كم أودّ أن أرى ثلوجاً بهذا العلو، قال شيامورا بنبرة إسرار. ولكن أحسب أنني عندئذ لن أجد غرفة شاغرة في النزل، كما قد تُقطع الطريق بسبب الأجرف الثلجية.

- أنت لا تعاني أيّ مصاعب مالية، أليس كذلك؟ ولطالما استطعت أن تنفق المال الذي تنفقه؟ سألته وقد توقفت عن السير بغية تأمل وجهه. لماذا لا تبقي على شاربيك؟

- لقد فكّرت مراراً في الأمر، قال شيامورا بعد أن لامس براحة يده ظلال لحيته الحليقة الزرقاء فبدأ أثر الشاربين أعلى شفته كأنه يُبرز نعومة خديّه. أهذا ما يُثير كوماكو؟ قال في سرّه، ثم مازحها قائلاً: «أنت أيضاً تبدين حليقة الذقن عندما تزيلين قشرة المساحيق والذرور عن وجهك.

- آوه! اسمع! الغربان(*)... كم تستطيع الغربان أن تكون مفاجعة!... ترى أين هي. برّررر! يا للبرد!...»

كانت ترتعد وتحتضن كتفيها وأنظارها تسعى في قبة السماء.

«لندخل إلى ردهة الانتظار ونجلس قرب المدفأة؟ اقترح شيامورا، وفي الأثناء رأيا طيفاً بالهاكاما الفضفاض يهرع في اتجاههما على الجادة الموازية للطريق المؤدية إلى المحطة.

- كوماكو! يوكيو. كوماكو! نادى يوكو لاهتة ثم تشبّث بها كما

(*) سماع الغربان: نذير موت.

يتشبث طفل مذعور بأمه . كوماكو! أسرعي ، أسرعي إلى البيت! على الفور! يوكيو في أسوأ حال! أسرعي!»

أغمضت كوماكو عينيها جرّاء صدمة ذلك الجسم الذي ألقي بنفسه عليها مُتشبثاً بكتفيها والذي ربّما أوجعها . وامتنع وجهها . ومع ذلك هزّت رأس الفتاة بيديها وقالت في صلابة مذهلة :

«لا أستطيع أن أذهب الآن . أنا في صحبة زبون» .

مكث شيامورا مذهولاً .

- ليس محتمّاً عليك أن تمكثي معي حتّى انطلاق القطار، قال مُعترضاً .

- ولكنك تغادرني ، ومن يدري متى أراك مجدّداً؟

- سأعود . من المؤكد أنني سأعود . أعدك بذلك» .

ودون أن تصغي إلى حديثهما ، قاطعتهما يوكو بصوت متهدّج :

«لقد اتصلت بالنزل على الفور . فقل لي إنك في المحطة فهرعتُ إلى هنا بأسرع ما أمكنني لا ألوي على شيء . يوكيو يريد أن يراك . إنّه يسأل عنك ، قالت بإلحاحٍ وقد تشبّثت بكوماكو التي صدّتها بنفاد صبر:

- دعيني وشأني!»

ولكن هي التي ترنّخت وقد انتابتها نوبة فواق مفاجئة استطاعت أن تتمالكها بعد أن أبقت شفّتها مطبقتين . وترقرقت عيناها بالدموع واقشعرت بشرة خديها .

كانت يوكو، مُتصلّبةً وساكنة، تحدّج كوماكو بنظرات ثابتة، وكان

وجهها الجامد كقناع يتَّسم بوقارٍ يصعب القول فيه أنه وقار الذهول أو القلق أو الغضب. وجه رأى فيه شيامورا صورة النقاء والبساطة المدهشة.

ودون أن تبدل شيئاً من تلك الملامح التي ارتسمت على وجهها، استدارت يوكو وتشبثت بشيامورا:

«أرجو منك المَعذرة، ولكن دعها تعود إلى البيت، أرجوك؟ قالت بصوت مكتوم كأنه حشرجة، دعها تعود!

- بالطبع، هيا! صرخ شيامورا. كوماكو! يجب أن تعودي إلى البيت حالاً. لا تكوني حمقاء!
- وما شأنك أنت؟» قالت كوماكو محاولة إبعاد يوكو التي كانت لا تزال متشبثة بذراع شيامورا.

كانت سيارة أجرة تقف أمام بوابة المحطة وحاول شيامورا أن يلفت انتباه السائق بإشارة من يده إلا أن يوكو كانت تشبث بذراعه وتشدّ عليها حتى أحسّ بتنمّل في أصابعه.

«ستعود في سيارة الأجرة، قال مخاطباً يوكو. هلاً ذهبت أنت الآن؟ لقد بدأ المارة يتساءلون عما يدور بيننا».

وافقت يوكو بإشارة من رأسها ودون أن تتفوّه بكلمة راحت تبتعد بخطوات متسارعة بينما مكث شيامورا مذهولاً، حائراً في أمر تلك الفتاة التي طالما بدت له عاقلة ورصينة، وحائراً في أمر نفسه إذ تراوده أفكار مماثلة في مثل ذلك الموقف.

وخيل إليه أن ذلك الصوت لطالما تردّد في أذنيه بجماله المذهل حتى

الكآبة، وأنه يسترجع صده الحَيّ من كنفِ الجبال البعيدة، المكسوة بالثلوج.

«ماذا تفعل؟ إلى أين تذهب؟ قالت كوماكو محاولةً صدّ شيامورا الذي أوقف سيارته الأجرة وحاول الاقتراب منها، لا، لا، لا أريد! عبثاً تحاول: لن أعود إلى البيت».

للحظات أحسّ شيامورا، حانقاً، ببعض النفور الجسدي حيالها.

«أجهل تماماً ما حكايتمكم أنتم الثلاثة، قال. ولكنّ هذا الرجل قد يكون على الرمق الأخير في هذه اللحظة بالذات. ألم تأت لاصطحابك لأنه سأل عنك؟ لأنه أراد أن يراك؟ إذاً كوني لبقّة قليلاً واذهبي إليه. وفكّري جيّداً قبل أن تتصرّفي فربّما راودتك مشاعر الندم طوال حياتك لأنك رفضت العودة! فقد يلفظ أنفاسه في هذه الأثناء... هيا، لا تكوني عنيدة. إنسي واغفري!

- «إنسي واغفري»؟ ما الذي تحسب أنك تعرفه؟ أنت لا تعرف شيئاً. لا تعرف شيئاً على الإطلاق.

- حسناً. ولكن حين غادرت إلى طوكيو لم يصحبك إلى المحطة أحدٌ سواه. ألسن أنت من أخبرني بذلك؟ والآن أوتحسين أنه من اللائق أن ترفضى الوداع الأخير لمن دوّنت اسمه في الصفحة الأولى من الدفتر الأوّل من يومياتك، كما أخبرتني أمس؟ من جهته لا بدّ أنه الآن في السطور الأخيرة من الصفحة الأخيرة في حياته!

- بلى، ولكن لا أريد أن أراه. لا أريد أن أرى رجلاً يموت».

أكان دافعها إلى ذلك مجرد قسوة قلب أم، على العكس، هوى مفرط؟ بين تفسيرين مكث شيامورا حائراً.

«لن أقوى بعد الآن على متابعة تدوين يومياتي. ولم يبق لي إلا أن أحرقها»، قالت في شبه همس، كأنها تحدّث نفسها. ثم أردفت وقد اصطبغ وجهها بحمرة مباغته: «أنت رجل عطوف، أليس كذلك؟ رجل طيب وبسيط بالفطرة، أليس بلي؟ لأنك لو كنت هذا الرجل بالفعل لما تردّدت في ارسال دفاتر يومياتي إليك. ولكن لا تسخر مني... لا، أعلم يقيناً أنك صاحب قلب نبيل، ومخلص وغير مخادع».

اعترت شيامورا مشاعرُ عطف وبدا عاجزاً عن فهم ذلك الانفعال الذي تملك كيانه. لم يشكك لحظة واحدة باستقامته المثلى، وبسماحة قلبه التي لا تنضب: ولا ريب في أنه يرى إلى نفسه على أنها الشرف مجسداً قلايسعه إلا أن يكون الرجل الأكثر استقامة في العالم. أما عن رغبته في إقناع كوماكو، فقد نسي الأمر تماماً، وأصبح لا يبالي سواء عادت إلى البيت أم لا. أما كوماكو فقد لزمت، من جهتها، الصمت.

دنا منها أحد مستخدمي النزل ليقول لهما أن في استطاعتهما الانتقال إلى الرصيف.

وهناك كان أربعة أو خمسة قرويين، في ثيابهم الشتوية الداكنة والكثيبة، يصعدون إلى القطار أو ينزلون منه.

«لن أصحبك إلى الرصيف. إلى اللقاء!».

ومكثت كوماكو هناك، تنظر إليه من خلال زجاج النافذة المغلق في ردهة الانتظار. وبدت، عبر زجاج نافذة المقطورة، كأنها فاكهة غريبة تُعرض، لسبب غامض، في واجهة أحد الحوانيت المحلية البائسة، وعندما انطلق القطار لاحت لثوانٍ خاطفة انعكاسات صورة غائمة

على نافذة ردهة الانتظار: وجه كوماكو الذي لاح كومبض ثم سرعان ما تلاشى. وكان لعقيق خديها، وقد أصبح وهماً، بريق مماثل لذاك الذي التمع في مدى الثلج الباهر في المرأة الصباحية. ومرة ثانية كان ذلك في عيني شيامورا حلول اللون الذي يأذن بوداع العالم الحقيقي.

سار القطار صُعداً صوب السفح الشمالي للسلسلة الجبلية ثم توغل داخل النفق الطويل. وعندما غادر النفق من الجهة الأخرى كانت الضياء الغائمة لبعده ظهيرة ذلك اليوم الشتوي قد غارت في جوف الأرض المعتم. أما عربات القطار المقعقة فكأنها خلّفت في عبورها النفق خلعتها من الملاح والثلج. كان القطار يواصل سيره انحداراً نحو الوادي حيث الظلمات التي وشّاهها الأصيل تملأ الوهاد إذ تلوح بين القمم الشاهقة المتراصفة. وما من أثر للثلوج بعد على ذلك المقلب من الجبل.

تواصل الدرب على امتداد النهر ليصل إلى السهل بعد حين. وإذا ارتسم مشهده الجانبي ذو الهندسة العجيبة من أبراج وسهام ومتاريس على خطّ الذرى، كان الجبل باذخاً يبسط منحدراته الجميلة متعرجة حتى خواصره الأبعد حيث يتألق القمر بضياء الساعات الأخيرة من النهار. كانت تلك نقطة ارتكاز النظر الوحيدة ولا شيء سواها على مدى الرتبة المضنية للسهل القاحل. ومن السماء المتناسق ذهبها ينبثق، كاملاً ومميزاً، ذلك الطيف الهائل للجبل المنقوش في كتلة الأرجوان الحاد. وكان القمر الذي فقد خفوت إضاءته أوان النهار لا يزال، مع ذلك، باهتاً فلم يلتمع بذلك البريق المرتعش الذي تُضيفها عليه شفافية الليالي الشتوية الدامسة. كانت السماء مدى

راكداً ليس فيه رقة جناح. ولا شيء، ناحية اليمين أو ناحية اليسار،
يُعكّر صفو الأفق المرسوم بظلام الجبال البعيدة، وحتى آخر
التموجات الدقيقة التي تختتم مداه رشيقة ومتطاولة حتى النهر الذي
يُباغتُ النظر بالمبنى المربع الأبيض على ضفافه: إنها بالتأكيد محطة
لتوليد الطاقة الكهربائية. كان ذلك المبنى آخر الأشكال التي تجمع
إليها كل ما يخلفه النهار من فضلات في ثنايا المشهد الكابي، تماماً كما
يرتسم، كثيباً، في إطار النافذة في ذلك القطار الشتوي.

ثم شيئاً فشيئاً راح غبش التدفئة يغطي زجاج النافذة وكلما ازداد
الغبش كثافة تلاشت في الخارج خطوط السهل المتوالية. وعادت
لعبة المرأة كما تعاود الأشياء إلى الأبد، عاكسة، هذه المرة، على
صفحتها غير الصقيلة أخيلة المسافرين القائمة. لم يكن القطار،
بعرباته الثلاث أو الأربع المقعقة التالفة، من طراز تلك القطارات
السريعة التي تُسير على الخطوط الرئيسية الكبرى: والمسافر فيه
يحسب أنه يستقل قطاراً من بلد آخر، غريب. أما الإضاءة فكانت
صفراء خافتة.

مستسلماً لأحلام اليقظة وضباب مخيلته، كان شيامورا يحسب نفسه
مُسافراً في الخرافة، تدفعه المقادير نحو «الفراغ» الأبدي الكبير، خارج
الزمان والمكان، تقله عربة خارقة. وعلى وقع العجلات المقعقة
الرتيب، ترمى إلى سمعه ويبدأ صوت المرأة التي غادرها للتو. وبرغم
نبرته المتقطعة المتهذجة، كان كلامها يعني على الأقل أنه صوت حي
وممتلىء وحقيقي. وأدرك شيامورا لفرط ما كان يؤلمه سماعه، أنه لم
يستطع أن ينساه. ولكن في أذن الرجل الذي يتعد عنها في تلك

اللحظة، في أذن شيامورا المسافر، كان الصوت إياه يتبدّد في مسافة البعاد ولا يوقظ فيه سوى المزيد من كآبة الأسفار.

من يدري إذا كان يوكيو قد لفظ أنفاسه الأخيرة؟ ومن يدري إذا استطاعت كوماكو التي كانت لها أسبابها الخاصة لرفضها العودة إلى البيت، أن تصل، برغم كل شيء، في الوقت المناسب؟

كان المسافرون قلّة في عربة القطار فأحسّ شيامورا بشيء من الضيق. كان لا يرى، إلى جانبه، سوى رجل على مشارف الخمسين وقبالته تجلس قروية شابة تحدّثه منحنيةً وكأنها تحرص على أن لا يفوتها شيء من حديثه إليها ومن أجوبتها عليه. كانت تغطي كتفها اللحيمتين القويتين بشالٍ أسود وكان لخدّيهما حمرة برّية، رائعة. فقال شيامورا في سرّه: إنهما زوجان على سفر طويل.

ولكن ما أن توقّف القطار - وكان يمكن للناظر أن يرى من المحطة مداخن مصانع الغزل الشاهقة - حتّى نهض الرجل على عجل ولم يحمل من شباك الأمتعة سوى سلّة رمى بها عبر باب العربة إلى الرصيف.

«إلى الملتقى! صرخ مخاطباً القروية الشابة ومُسرِعاً نحو الباب، قد نلتقي ذات يوم!».

كان شيامورا يودّ لو يبكي. لقد فاجأه الموقف المستجدّ في غمرة ما ألمّ به من حيرة وشتات وأعادته كلام الرجل إلى رشده: لقد ودّع كوماكو وما هو القطار يعود به إلى طوكيو.

مجرّد لقاء، بمحض المصادفة، في القطار. أحد الاحتمالات التي لم تخطر له للحظة واحدة. فقد يكون الرجل من الباعة الجوالين.

فيما كان يُعدّ العدة لمغادرة طوكيو بغية قضاء عطلة جديدة في الجبل
مطلع الخريف، سمع شيامورا زوجته توصيه بأن لا يدع ملابسه
معلقة على حائط أو مشجب، وأردفت قائلة: «في مثل هذا الموسم
تبيضُ فراشات الليل».

فراشات الليل. لقد رأى الكثير منها في النزول فعلاً: جاثمة على
المصباح الذي يزين طنف السقيفة عند المدخل. أحصى ستاً أو سبعة
منها، فراشات كبيرة الحجم ولونها يميل إلى صفرة الذرة. وفي الردهة
صادف واحدة أخرى أضال حجماً ولكنها منفوخة البطن وثقيلة حتى
بدت بجناحيها الضعيفين بائسة مثيرة للضحك.

كانت النوافذ لا تزال مجهزة بشبكيات الصيف التي تصدّ
البعوض. وعندما دنا منها شيامورا رأى فراشة على إحداها، ساكنة
من غير حراك كأنها علقّت في الدبق. كان زبانياها منتصبين مثل
خيطين دقيقين من الصوف ولونها بلون قشرة الأرز أما جناحاها فكانا
شبه شفاين يميلان إلى الخضرة الباهتة، وطويلين كأصبع امرأة. كان
حجاب الجبال، في الخلفية البعيدة، قد أسدل مروحة ألوانه الخريفية
الوفيرة تحت أشعة الشمس المائلة للمغيب. توشيات من الصُهبَة

والصدأ لم يرَ شيامورا حيالها في تلك المسحة من الأخضر الحي إلا صبغة الموت إيّاه. ولم يلبث الأخضر أن أصبح كثيفاً حين أرخي الجناحان المزدوجان على جانبي الجسم الضئيل المرتعش في نسائم الخريف مثل أوراق خفيفة.

اقترَب شيامورا مُتسائلاً عما إذا كانت الحشرة ميتة ونقر بأنملة شبكية المنخل الرقيقة، ولكن الحشرة لم تتحرك، وعندما ربت قليلاً عليها سقطت الفراشة كما يسقط ورق الشجر اليابس، خفيفة ومترجحة في سقطتها، تهبط وتعلو قبل أن تلامس الأرض.

قُبلاً، أمام صفّ أشجار الأرز، كانت غمامة من العاسيب تراقص مع الريح وتتقاذفها النسائم مثل قنازع ثمرة الهندباء. والمياه المتدفقة من الشلال كأنها تنبجس من أعلى أغصان الأرز.

أما بساط الورود المفضضة التي فرشها الخريف على سفوح الجبل، فلن يرتوي النظر منها حتى لو مكث العمر في تأملها.

عندما عاد من الحمام صادف عند المدخل إحدى أولاء الروسيات البيض اللواتي يمارسن البيع الجوال «أنصادهنّ في كل مكان، حتى هنا في الجبال؟» قال مندهشاً ودنا منها.

كانت في الأربعين من عمرها بالتأكيد. لها وجه مجعد ومترب، ولكن ما عدا الوجه، أي عند العنق والنحر، وكذلك الذراعين واليدين، كانت بشرتها رقيقة صقيلة البياض نقية.

«من أين أتيت؟ سأها شيامورا.

- من أين أتيت؟ من أين أتيت؟» ردّدت في حيرة من أمرها كأنها لا تعرف بماذا ستجيب. ثم راحت تقلّب بضاعتها الرخيصة: بضائع

يابانية رخيصة الأثمان، مستحضرات تجميل، أمشاط زينة ومشابك شعر مبتذلة.

لم يكن في ثوبها الذي بدا كقطعة قماش مُتسخة، اكتفت بلفه حول جسمها، ما يجعله شَبه الثوب الغربي بل، على العكس لعلّه اكتسب، مع الوقت، شيئاً من طابع الزيِّ الياباني. إلا أن ذلك لم يُجَلِّ دون انتعالتها الحذاء الغربي.

جاءت زوجة صاحب النزل ووقفت بجانب شيامورا إلى أن غادرت المرأة الروسية، ثمَّ صحبته إلى غرفة المكتب. أمام المدفأة كانت تقف امرأة وقد أولتَهما ظهرها فلم يرَ منها سوى منكبيها العريضين وما لبثت أن استأذنتَهما بالمغادرة وخرجت من الغرفة ممسكةً بيدها طرف الكيمونو الأسود الباذخ الذي ترتديه. ومع ذلك استطاع شيامورا أن يتعرّف وجهها: لقد تذكّر أنها فتاة غيشا وسبق له أن شاهد صورتها، في صحبة كوماكو، على ملصقٍ دعائي؛ كانتا تتعلان أحذية التزلّج وترتديان الهاكاما الجبلي فوق كيمونو المناسبات. ولاحظ أنها تقدّمت قليلاً في السنّ إلا أنّ قوامها الممتلئ تحت الكيمونو كان يضيف على مشيتها مسحةً من النُضج والعدوبة.

كان صاحب النزل مُنهمكاً بتسخين قطع كبيرة من الكعك فوق جمر المدفأة، فالتفت نحو شيامورا قائلاً:

«أترغب في بعضٍ منها؟ لقد جاءت بها فتاة الغيشا التي غادرت للتوّ احتفاءً بانتهاء مدة عقدها.

- إنها تعزل المهنة إذاً؟

- أجل.

- تبدو فتاة لطيفة، أليس كذلك؟

- لقد كان الجميع يحبّها. وها هي اليوم تقوم بجولتها الوداعية».

بعد أن نفخ عليها قليلاً قضمَ شيمامورا بشهية ظاهرة قطعة الكعك التي فتت قشرتها الحامضة قليلاً وخلفت في فمه رائحة عفنٍ خفيف.

كانت حمرة ثمار الكاكي الناضجة تبدو، عبر النافذة، متألقة في أنوار الغروب. وكان ألقتها مثل وهج حريق يتعاضم انعكاسه على قصب الجيزايكاجي (*) المعلق فوق المدفأة.

«آه! ما أطول هذا الخيزران! صاح شيمامورا تعجباً، عندما رأى عجوزين تسيران على الدرب المنحدر وعلى ظهر كل منهما حزمة من الخيزران الذي يبلغ طوله ضعف قامتهما وتبدو حروفه المدببة كأنها قنازع أعوادٍ مُستقيمة.

- إنه خيزران بلادنا، قال صاحب النزل، خيزران الكايا.

- الكايا الحقيقي؟

- أجل. لقد قامت إدارة السكة الحديد، لمناسبة معرض منتجات الينابيع الحارة بتشديد نزلٍ ريفي على الطراز القديم، وقد قُصِلت جدران مقصورة الشاي فيه من كايا جبالنا. وأعتقد أن رجلاً من طوكيو قد اشتراه كما هو.

- الكايا الحقيقي؟ تعجب شيمامورا مُجدّداً بصوتٍ خفيض. هذا إذاً ما يجعل سفوح الجبال مفضضة على هذا النحو؟ لقد ظننت أنها أنواع من الورود...»

(*) معلاق للمدفأة ذات الشكل المربع المركوزة في الأرض حيث تُضرمُ نيران متوقدة.

ذلك أن أول ما استلفته فور نزوله من القطار كان ذلك البساط الأبيض المفضض الرائع إذ يتألق على السفوح تحت أشعة الشمس، حتى إن الناظر إليه يحسب لشدة تألقه أن سيول الضياء الخريفي تندفق على سوية الأرض. وكانت بهجة منورة تنبثق من تلك الروعة، فأينع شيء ما في داخله خفية: كأنه صوت تبريك يهمس في روعه قائلاً: «آه! ها قد وصلت أخيراً!»

ومع ذلك بدت له أعواد الخيزران المحزّمة فوق ظهر العجوزين مختلفة جداً، حتى كاد لا يصدق أنها نفسها تلك النبت المدهشة التي تزين البساط السحري. كانت أعواد الخيزران مجموعة في حزمات كبيرة تكاد تحجب الجسدين الضامرين، أما أطرافها المدببة فتجرجر فوق حصي الدرب الوعر وتكنسه من غير عناء، بقنازعها الأثينة الصلبة.

عندما وصل إلى غرفته كانت الشمس تميل للمغيب. ولم يبق من الضياء سوى غبش بصيص يُنير الردهة فرأى، على اللك الأسود لعلاقة ملابسه، الفراشة ذات البطن المنتفخ وهي تضع سُبحة بيضها. سمع صوت ارتطام حشرات بالمصباح المعلق تحت السقيفة. وكان إنشاد حشرات الخريف الألف متواصلاً لم يكتمه غروب الشمس.

وصلت كوماكو متأخرة قليلاً.

تردّدت قليلاً عند العتبة محدّجة شيامورا بنظرات ثابتة:

«ما الذي أعادك إلى هذه الناحية؟ ولماذا تأتي للإقامة في مكان مماثل؟
- جئتُ لأراكِ.

- ما تقوله لا يعبر عما يجول في رأسك . إن أهل طوكيو يكذبون دائماً ولذلك لا أطيق رؤياهم» .
ثم جلست وقالت بنبرة أرق :
«لن أصحب أحداً إلى المحطة بعد اليوم . ولا أريد أن أخبرك بما حلّ بي عندما رأيتك تغادر!
- هذه المرة سأرحل دون أن أعلمك برحيلي .
- ولكن لا . كنت أقصد أنني لن أصحبك إلى المحطة .
- وهو ، ماذا حلّ به ؟
- لقد مات بالطبع .
- مات أثناء وجودك في رفقتي ؟
- هذا ليس هو السؤال . لم أكن أعلم أن وداعاً مماثلاً قد يكدرني إلى هذا الحد» .

مكث شيمامورا صامتاً وأجابها بحركة من رأسه .
«أين كنت في ١٤ شباط؟ لقد انتظرت قدومك . ولكنني أعرف الآن ما قيمة وعودك . . .»

يوم ١٤ شباط يوافق يوم «صيد الطير» ، وهو عيد للأطفال تعدّ له العدة باتقان تعبيراً عن الروحانية السائدة في بلد الثلوج . قبل حلول العيد بعشرة أيام يعمد صبيان البلدة إلى تكديس الثلج تحت جراميقهم المصنوعة من القش حتى يصبح كثيفاً وصلباً فيُصار إلى تقطيعه مكعبات يبلغ ضلع الواحد منها ذراعين ، ثم يستخدمون تلك المكعبات في تشييد «قصر الثلج» الذي يبلغ ارتفاعه عشر أقدام وضلع مربعه ثمان عشرة قدماً . وبما أن أهل الوادي يحتفلون بعيد رأس السنة في الأيام الأولى من شهر شباط تكون أبواب المنازل

الخارجية لا تزال إذذاك مزينة بشرائط القش، وفي يوم ١٤، ينزعها الأولاد عن الأبواب ويجمعونها ليضرموا فيها نيران الابتهاج أمام قصر الثلج. وهكذا يمشون في صياحهم وتدافعهم ويرقصون متحلّقين على السطح منشدين أغنية «صيد الطير» تحت وهج النيران الأحمر. ثمّ يختتمون ليلتهم داخل قصرهم على ضوء شمعة. وعند بزوغ الفجر يستأنفون حلقة رقصهم وانشادهم على السطح، ولا ينتهي الاحتفال بعيد «صيد الطير» إلّا في صبيحة ١٥ شباط.

ولأن العيد يُصادف في أوج موسم الثلوج، كان شيمامورا قد وعدّ كوماكو بالعودة في ذلك اليوم لمشاهدة الاحتفال.

«لقد كنت في إجازة طوال شهر آب، لازمت خلالها البيت. وتعمّدت أن أكون هنا في ١٤ منه لاعتقادي أنّك ستأتي... لو علمت أنك لن تأتي لمكثت هناك إلى جانبها!

- مريض آخر؟

- أستاذة الموسيقى، هناك ناحية الساحل، لقد أقعدها التهاب الرئة. استلمت برقيتها أثناء إجازتي وأشفقت لحالها، فذهبتُ لأمكث في جوارها هناك.

- وهل تعافت؟

- لا.

- إنه أمرٌ مؤسف، قال شيمامورا دون أن يتضح إذا كان كلامه يُعبّر عن أساه لمرض الأستاذة أم عن أسفه لعدم إيجاد العبارات الملائمة لموقف مماثل.

عند سماعها تلك العبارة أطرقت كوماكو قليلاً. ثمّ تناولت منديلاً ومسحت الغبار عن الطاولة. «إنّه غزو الحشرات!» قالت. وبالفعل

فقد مَسَحَتْ بمنديلها عدداً هائلاً من الحشرات الضئيلة المجنحة .
وحول المصباح كان عددٌ من فراشات الليل يُحَوِّم ويدور . أما شبكية
النافذة المعدنية فقد كانت مكسوةً بالفراشات من كلِّ نوع كأنها تعوم
في ضياء القمر الشاحب .

«آه، معدتي! تأوّهت كوماكو ودست يديها تحت حزام الأوبي
وانحنت تسندُ رأسها إلى ركبة شيامورا . معدتي تؤلّني» .

دنت حشرات أضال حجماً وقواماً مِنْ أضال بعوضةٍ وحطّت على
مسحوق الزينة الأبيض الذي يكسو عنقها . ورأى شيامورا عدداً منها
يموتُ على الفور .

لاحظ شيامورا أنّ كتفيها قد أصبحتا أكثر استدارة وبدا عنقها
أكثر امتلاءً ، وتذكّر أنها أصبحت في مطلع العام الواحد والعشرين
من عمرها . وأحسّ فجأةً كأنّ دفئاً رطباً يسري في ركبته .

«اذهبي يا كوماكو لإلقاء نظرةٍ على «غرفة الكاميلية»! وبدوا
مغتبطين في غرفة المكتب . كم أمقت هذه الطريقة في الكلام . كنتُ
غادرت كيكيويو للتوّ طلباً للراحة والنوم عندما جاء من يُبلغني أنهم
تلقوا اتصالاً من النزل وأن هناك من يطلب حضوري . لم أكن راغبة
في المجيء : فمساء أمس أقيم احتفال وداعي لكيكيويو وأفرطت في
الشراب . وفي المكتب ضحكوا كثيراً ورفضوا أن يخبروني مَنْ الذي
يطلب حضوري . فأصعد وأجدك أمامي ، أنت ! بعد انقضاء سنة
كاملة . . . أوتكون من طينة أولئك الرجال الذين لا تتاح رؤيتهم إلّا
مرة واحدة كلَّ عام؟

- لقد قدّموا لي قطعةً من الكعك الذي أحضرته .

- لك أنت؟»

استقامت كوماكو في جلستها بغتةً وبدأ أثر احمرار على خدّها في موضع استناده إلى ركة شيامورا، ما جعلها أشبه بطفلٍ أجفله المفاجأة.

لقد رافقت كيكويو، فتاة الغيشا التي اعتزلت المهنة، بعضَ رحلتها في القطار، حتّى المحطة التالية، قالت له. «يا لكآبة حالنا! كنّا في الماضي على أحسن حال، وكنا نتدبّر الأمور فيما بيننا بالتراضي. ولكنّ الحياة تبدّلت هنا! وكلّ واحدة منّا تزداد إحساساً بالأنانية والأثرة. هناك دائماً فتيات مُستجذّات في المهنة فلا يُعنى أحد بأحد. سوف أفتقد كيكويو كثيراً. فلولا حضورها لما سارت الأمور هنا على خير ما يرام. حتّى صاحب النزل كان يكنّ لها كلّ المودة ولكن بعد انتهاء مدّة العقد كان لا بدّ لكيكويو أن تعود إلى ديارها.

- هل عادت إلى ديارها بقصد الزواج أم أنها عازمة على افتتاح نزلٍ أو مطعمٍ لحسابها الخاص؟ سأل شيامورا.

- إن حكايتها كثيية! لقد تزوجت في البداية وكان زواجها فاشلاً، وبعد ذلك جاءت إلى هنا»، روت كوماكو ثمّ توقّفت عن الكلام كأنها تسأل نفسها إلى أيّ حدّ يمكنها أن تسترسل في رواية التفاصيل دون أن تخون عهدَ الكتان. ثمّ راحت تقلّب نظرها، لبعض الوقت، بين السماء المقمرة وحقول الثلج المترامية عند سفح الجبل. «ألم يستلفتك من قبل ذلك النزل المشيّد حديثاً عند منتصف الدرب المنحدر؟ سألته.

- إنه مطعم، أليس بلى؟ ويُسمّى الـ «كيكومارا» على ما أذكر.

- بلى، صحيح. لقد شيّد خصيصاً من أجل كيكويو التي بدّلت رأيها في اللحظة الأخيرة. وقد حضرت أقنية خاصة لجرّ المياه الحارة من هنا. كانت تعمل آنذاك لدى رجلٍ أراد أن يبني تلك الدارة

خصيصاً من أجلها. ولكن حين أنجز البناء وأصبح جاهزاً للانتقال إليه، تخلّت عن كلّ شيء! كانت قد أحبّت رجلاً وأرادت أن تتزوجه ولكنّ الرجل غادر فجأةً وهجرها. أحتمّ على المحبين دوماً أن يُخلّ بهم عندما يتولّون بغرام أحدهم؟... المهمّ، أنها أصبحت لا تستطيع العودة إلى ربّ عملها السابق بغية استرداد المطعم الذي سبق أن رفضت الانتقال إليه رفضاً قاطعاً. وبعد كلّ الذي جرى لها لم يبق أمامها إلّا أن ترحل عن هذه البلدة لشدة ما شعرت بالعار. كان عليها أن ترحل لتبدأ حياتها من جديد في مكان آخر، لتبدأ مجدداً من الصفر. مسكينة كيكويو! كم أشفق لحالها حين أتذكّر!... وفضلاً عن ذلك يبدو أنّ ثمة رجالاً آخرين في حياتها، وإن كانت تفاصيل تلك العلاقات لا تزال طيّ الكتمان ولا أحد يعرفها...

- رجال؟ وكم عددهم؟ خمسة، أو ربّما أكثر؟
- إنه السؤال الذي يراودني دائماً، أسرت كوماكو مغضية قليلاً وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة حرج. لم تكن كيكويو منزّهة عن الضعف... لا بل يمكن القول إنها الضعف مجسداً.
- طبعً مثل طبعها، من يدري؟ ربّما كانت مغلوبة على أمرها...
- ربّما، ولكنّ أيعقل هذا؟ لا يُعقل أن يفقد أحد صوابه لمجرد أنّه أعجب رجلاً ما، قالت كوماكو ساهمة وقد أغضت مُتلهيةً بتسريح خصله من شعرها قبل أن تعيد مشط الزينة إلى موضعه في تسريحها العالية. على كلّ حال، لم أستطع أن أتقبّل رحيلها بسهولة!
- ولكنّ ماذا عن المطعم؟
- لقد تولّت ادارته زوجة الرجل الذي بناه.
- رائع، إنه حقاً رائع: الزوجة الشرعيّة تُديرُ مطعم العشيقّة...
- وهل لها أن تختار؟... كان كلّ شيء معدداً للافتتاح. فكان على

الزوجة أن تنتقل وأولادها للقامة فيه .
- والبيت الذي كانت تقيم فيه من قبل؟
- يبدو أن الجدة هي التي تسكن فيه الآن . أما الرجل فهو مزارع
لكنه يحب اللهو كثيراً . إنه رجلٌ مثير للاهتمام فعلاً .
- لا يصعب عليّ أن أتخيل شخصاً مثله . أهو في سنّ متقدمة؟
- لا أبداً ، فهو لا يزال في ريعان شبابه . قد يكون في الحادية أو
الثانية والثلاثين من عمره .
- إذاً كانت عشيقته أكبر من زوجته؟

- لا ، أبداً : لقد كانتا ، إحداهما كما الأخرى ، في السادسة
والعشرين .

- ألم ترغب الزوجة في تغيير اسم المطعم؟ فأنا أحسب أن
الـ «كيكو» في «كيكومارا» مُشتقة من كيكويو . . .
- بلى ، ولكن بعد الحملة الدعائية التي رافقت الإعلان عن
الافتتاح أصبح الأمر مستحيلاً .

إذ رأت شيامورا يرفع ياقة الكيمونو ، بادرت كوماكو مُسرعة إلى
إغلاق النافذة .

«كانت كيكويو تعرف كل شيء عنك . وهي التي أنبأتني اليوم
بوجودك هنا .

- لقد التقيتها في الطبقة السفلية ، في غرفة المكتب عندما جاءت
لتقول وداعاً .

- وهل حدّثك بشيء؟
- لا ، على الإطلاق .

- أوتدري بَمَ أشعر؟» قالت كوماكو ثم فتحت النافذة التي كانت أغلقتها للتو وارتمت على حافتها كأنها تود أن تلقي بنفسها إلى الخارج.

لاحظ شيامورا، بعد هنيهات من الصمت، أن النجوم هناك لا تشبه النجوم في سماء طوكيو:

«يحسب الناظر إليها أنها تُبحر على صفحة السماء.

- ليس في هذه الأمسية، بأية حال. فضوء القمر ساطع». قالت كوماكو معترضة ثم أردفت قائلة بعد حين: «كم كان الثلج غزيراً هذا الشتاء!

- بلى، أحسب أنه كان غزيراً جداً لأن حركة السكة الحديد قد توقفت لبعض الوقت.

- وفي آخر الأمر أصبحت الثلوج المتراكمة ترعيني. ظلّت الطرقات مقفلة حتى شهر أيار، أي مدة أطول من المعتاد بشهر كامل. وتلك الدارة التي جعلت حانوتاً قرب ميادين التزلج، أتذكرها؟ لقد اجتاحتها جرف وأودى بالطبقة الأولى منها. ظنّ الناس في الطبقة السفلى حيث كانوا مجتمعين أنها غزوة جرذان جائعة اكتسحت مطبخ المبنى إذ بدا الصوت الذي سمعوه غريباً جداً. لكنّ المنطقة خالية من الجرذان، وعندما صعدوا وجدوا أن الجرف الثلجي قد أودى بكل شيء ولم تبق في الطبقة نوافذ أو أبواب. ولحسن الحظ أن الأمر اقتصر على انزلاق ثلجي طفيف ولم يسبّب جرفاً ضخماً. ولكنّ أجهزة الإعلام ضخّمت الحادثة فأثارت زعر هواة التزلج. ولم يأت منهم سوى أعداد ضئيلة. أما أنا فقررت الامتناع عن مزاولة التزلج

وأهديت أدواتي قبل نهاية العام . ومع ذلك لم أتوقف عن مزاولتها
كلياً ، فربما فعلت مرتين أو ثلاثاً . هل تغيرت كثيراً؟

- وماذا فعلت بعد وفاة أستاذة الموسيقى؟

- ولماذا اهتمامك بمشاكل الآخرين؟ عدت إلى هنا وانتظرت
عودتك طوال شهر شباط .

- ما دمت قضيت ردياً من الوقت في المنطقة الساحلية ، لماذا لم
تكتبي لي رسالة؟

- أوه! لم يكن في مُستطاعي ، لم يكن في مستطاعي حقاً أن أكتب
لك ذلك النوع من الرسائل التي ربما وقعت بين يدي زوجتك! لا
أقدر أن أحمل نفسي مثل هذا العبء كما لا أقدر أن أكذب لاعتقادي
بأن هناك ربما من يسمعي» .

لم يسع شيامورا حيال ذلك السيل المتدفق من الكلام إلا أن
يُطرق سَمْعاً . لقد كانت الكلمات تتدفق من فمها مثل سيل حقيقي .
«قد يكون من الأفضل أن تطفئ الأنوار، قالت في النهاية . إذ
لست مجبراً على مكابدة جحافل البعوض . . .» .

كان القمر ساطعاً من ورائها ، وأنواره تهدب أذنيها بظلال واضحة
وتنسكب قُدماً في أرجاء الغرفة ، فتتور الحصائر بمياه خضراء باردة .

«لا . أريد أن أعود إلى داري لو سمحت .

- لا يبدو لي أنك تغيرت» .

وإذ رفع شيامورا رأسه تراءت له مسحة غريبة في ملامحها فراح
يحدق في ذلك الوجه ذي الأنف الأقي .

«يُقال لي دائماً إنني لم أتبدّل منذ قدومي إلى هذا المكان . ولكن ينبغي ألا ننسى أنني كنتُ لا أزال في السادسة عشرة من عمري . وإذا كانت الحياة هي دوماً الحياة، إلّا أنّ الزمن يمضي» .

كانت بشرتها الدافئة تحفظُ من الطفولة الريفية لونها، إلّا أن ضياء القمر كان يوشي المساحيق المتقنة على وجه فتاة الغيشا بلالاءٍ أطيافه .

«وهل أخبروك أنني انتقلت للقامة في مكان آخر؟

- لا، وهل غادرت عليّة دود القز؟ منذ وفاة أستاذة الموسيقى؟

والآن، أقيمين في دارة خاصة بفتيات الغيشا؟

- دارة خاصة بفتيات الغيشا؟ إذا شئت، بلى... فالحانوت لا

يبيع سوى التبغ والسكاكر... وأنا فتاة الغيشا الوحيدة التي تعمل هناك . ولكن هذه المرة أعمل بموجب عقد حقيقي : فعندما أرغب في القراءة حتى ساعة متأخرة من الليل لا أستخدم سوى نور شمعة، لكي لا يُحسب ربّ العمل أنني أهدر التيار الكهربائي» .

انفجر شيامورا ضاحكاً وقد وضع كفيه على كتفي كوماكو .

«أوتدرك ما أقصده، هناك عدّاد... وينبغي ألا أفرط في

استهلاك التيار الكهربائي (*)» .

- لقد فهمتُ ! لقد فهمتُ جيداً!

لكنهم يعاملونني بلطف شديد، فعلاً، ويبلغ بهم حسن المعاملة حدّاً يجعلني لا أصدّق أحياناً أنني أعمل لديهم كفتاة غيشا . حتى إذا علا صوت طفل بالنحيب سارعت الأم إلى حمله إلى الخارج لكي لا

(*) ينذر أن تجهّز البيوت الصغيرة في الجبل بعدّاد كهربائي : والشائع أن تسدّد كلفة استهلاك التيار على أساس عدد المصابيح المستخدمة .

يزعجني صراخه . وبرغم أنّ منامتي هناك ليست أفضل ما تكون
المنامة، إلّا أنني لا يسعني الشكوى من أي شيء . وعندما أعود في
ساعة متأخرة من الليل أجد كلّ شيء معدّاً في انتظاري، وليس ما
يكدرني سوى أنّ الفرش لا تكون مرتّبة والشراشف غير مطوية
بعناية . ومع ذلك أجد أنهم لطفاء للغاية: فكيف لي أن لا أصرّ على
ترتيب فراشي بنفسني؟

- صدّقيني، لو كانت لك دارة خاصة بك لصرفت عمرك في
تنظيفها وترتيبها!

- هذا ما يقوله الجميع . هناك يوجد أربعة أولاد صغار، ولذلك
ترى الفوضى تعمّ المكان . فأقضي نهاري في ترتيب الأشياء، ألّهما
وأضعها في مكانها مع يقيني التام أنّ الفوضى ستستأنف ما أن أغفل
عنهم هنية . ولكن ما العمل؟ لا أستطيع أن أبدّل من خصالي
شيئاً . يجب أن يكون كل شيء مُرتّباً من حولي، أو ما أمكن . كأنها
حاجة ملحة . أتدرك ما أقول؟
- بلى، أدركه جيّداً .

- ... وما الذي تدركه، هلاً أخبرتني؟ قالت فجأة وقد بدت
نبرتها مختلفة، ملحاحاً وشديدة التوتر . لو كنت تفهمني لكنت الأمور
أسهل ما يكون . ولكنك ترى جيّداً أنّك كنت عاجزاً عن الفهم .
كانت كذبة أخرى! كثير المال ضحل القلب، هكذا أنت! أنت لا
تفهم شيئاً ولا تستطيع أن تدرك»

ثم خفضت صوتها لتضيف:

«أحياناً يتسابني شعورٌ بأنني وحيدة . ولكنني لست سوى حمقاء .
يجب أن تعود إلى طوكيو في الصباح الباكر!

- يسهل عليك توبييخي، أجاها شيامورا. ولكن المستغرب أيضاً
رغبتك في أن أفسر لك حقيقة مشاعري!
- وما ضير ذلك؟ قالت في شيء من الأسى. كل ما في الأمر أنه
لمؤسف حقاً أن تكون غير قادر على ذلك».

ولا بد أن كوماكو قد سألت نفسها حين أغمضت عينيها: أيعرف
من أكون؟ أيعرف من أكون حقاً، كما أنا؟ ولا شك في أنها توصلت
إلى جواب إيجابي لكي تقول له ما قالته:

«عُدّ ولو مرة واحدة في السنة! أقسم لي أنك ستعود كل عام ما
دمت هنا، هلاً أقسمت؟

وأضافت أن مدة عقدها أربع سنوات.

«لم أحسب يوماً أنني سأعود إلى مزاولة الغيشا بعد أن عدتُ إلى
داري، أسرت إليه. حتى أنني وهبتُ عدّة التزلج قبل رحيلي.
وأحسب أن النتيجة الوحيدة التي أحرزتها هي امتناعي عن التدخين.

- على ذكر التدخين، أذكر أنك كنتِ مدخنة شرهة.

- أصبحت أجمع السكائر التي يقدمونها لي في كم الكيمونو،
وعندما أعود إلى البيت مساءً أجدُ أنني جمعت منها مجموعة متنوعة.

- أربعة أعوام، قال شيامورا، إنها مدة لا يُستهان بها!

- ستمضي بسرعة».

وما أن دنت منه حتى احتضنها شيامورا بين ذراعيه وقال مدهولاً:

- «يا لسخونة جسمك! . . .

- أنا دائماً على هذه الحال.

- مع هبوط الليل أعتقد أن الحرارة ستخفّض وتنعمين بشيء من الطراوة.

- منذ أن حللتُ في هذه الناحية، منذ خمس سنوات، كنتُ أسأل نفسي دائماً كيف سأعتاد على الحياة في مكانٍ مماثل . . . وخصوصاً قبل افتتاح خط السكّة الحديد. ثم ها قد مضت سنتان منذ مجيئك إلى هنا لأول مرة».

وبالفعل كان شيامورا قد جاء ثلاث مرّات خلال الستين المنصرمتين، وفي كلّ زيارة له كان يلاحظ بعض التغيرات الجديدة في حياة كوماكو.

في الخارج كان جرّاد الكوتسو واماوشي (*) قد شرع يُحدثُ جَلْبَتَه الصاخبة.

«كم أودّ لو أن انشاد الجرّاد أقلّ صخباً!» قالت كوماكو مُشِيحَةً بوجهها عنه.

طارت الفراشات الجاثمة على شبكية النافذة عندما هبّت أولى نسائم الشمال.

كان شيامورا مُصيّباً في ظنّه: إن أثاثه أهدابها توهمُ حين تُغمضُ عينيها، بأنّها لا تزالان مفتوحتين. ومع ذلك فاجأه إصراره على النظر إليهما عن كُثْبٍ لمزيدٍ من التثبّت.

علا صوت كوماكو قائلةً:

«منذ أن أقلعت عن التدخين ازداد وزني».

(*) نوعٌ من الجرّاد الكبير الذي يُطلق عليه اسم (mecopoda elongaha).

وكان لاحظ ذلك : فقدت بدت بعض السمنة عند استدارة
خصرها . لقد مضى وقت طويل على لقائهما الأخير، وبرغم ذلك
سرعان ما استعاد شيامورا في حضورها كل تفاصيل عالم الألفة
والحميمية الذي لم تحبْ جذوته لكنه يتبدد على نحو غامض ما أن
يبتعد عنها فلا يعود قادراً على استذكاره .

وإذ وضعت يديها مكورتين تحت نهديها، قالت كوماكو:
«لديّ واحدٌ أكبر من الآخر .

- لا بدّ أنها عادة لديه : دائماً من الجانب نفسه ! قال شيامورا
مُتهكماً .

- أنت مقرّر فعلاً عندما تتلفّظ بمثل هذا الكلام ! قالت كوماكو
مغيظة فاطمأن شيامورا في سرّه إلى أنه وجدها أخيراً كما يعرفها .

- ليس لك إلّا أن تقولي له في المرّة القادمة إلّا يؤثر أحدهما على
الآخر، أردف قائلاً :

- إلّا يؤثر أحدهما على الآخر؟ أينبغي حقاً أن أوصيه بذلك؟
ردّدت كوماكو قائلة وهي تُدني برويّة وجهها من وجهه .

وعلى الرغم من أنّ الغرفة في الطبقة الأولى، إلّا أنها بدت كأنها
في وسط مأوى للضفادع حيث تنهى إليها صراخُ بائعين مُتجولين أو
ثلاثة وأداء زمارين أشداء الصدور والأنفاس، كأنهم لا يباحون
الجوار أبداً .

بعد عودتهما من الحمام، استرسلت كوماكو في بثّ متواصل وكانت
تحدّث في استرخاءٍ ونبرة هادئة . وتطرّقت إلى تفاصيل حميمة كزيارتها
للطبيب الذي دخلت عليه - لاعتقادها بأن الأمور ستجري كما

اعتادت في مدرسة الغيشا - عارية الصدر فانفجر الطبيب ضاحكاً
فيما راحت هي تنتحب وتذرف الدموع . وأشياء من هذا القبيل وكان
شيامورا لا يتوانى عن استدراجها للتحديث عنها بأسئلته الكثيرة .

«بإمكانى الاطمئنان إلى دقة الروزنامة : بالضبط شهر إلا يومين،
كلّ مرة .

- ومع ذلك أحسب أنك، مع ذلك، لا تفوتين ولو أمسية
واحدة .؟

- هذه أمور تستطيع أن تدركها، أليس كذلك؟

كانت تستحمّ كلّ يوم في مياه النبع الحارّة، وكم هي رائعة تلك
المياه وفوائد سخونتها المنشّطة المتواصلة . وكلّ يوم تقطع المسافة إلى
النبع ومنه والتي تبلغ أربعة كيلومترات تقريباً سيراً على الأقدام سواء
قصدت مجلس النسوة عند أحواض الينبوع القديم أو الجديد . وعلاوة
على ذلك ينذر أن تطول الأمسيات الساهرة في تلك الناحية إلى
ساعات متأخرة من الليل . ويتأتّى عن ذلك أنها تمتلك جسماً متعافياً
وقوياً وإن كان يميل إلى اكتساب القوام الذي يفرضه الزيّ المهنيّ على
فتيات الغيشا: ضيقُ الوركين المشدودين على الدوام، يقابله بروزُ
خفيف للبطن . كان شيامورا يجدُ في صُحبته ما يُفعم قلبه عطفاً، لا
يتمالك تأثره العميق لفكرة أن تلك المرأة استطاعت أن تدفعه إلى
العودة إليها برغم المسافة .

«تراني سأكون قادرة على الإنجاب؟» أسرّت إليه في سياق حديثها
كما تساءلت على مسمعه عما إذا كان إخلاص المرأة لرجل واحد لا
يجعلها في سوية المرأة المتزوجة .

وسمعتها شيامورا تتحدث للمرة الأولى عن ذلك «الرجل الوحيد» في حياتها. تعرّفت إليه حين كانت لا تزال في السادسة عشرة، قالت موضحةً، وسرعان ما تراءى لشيامورا أنه بات يدرك الآن السبب الذي جعلها لا تبدي حياله إلا القليل من المقاومة: ذلك التهور الذي طالما حيّره منذ البداية.

ثمّ قالت له: «لم يكن في هذا الرجل ما يجذبني إليه لا جسدياً ولا عاطفياً، وربما لا تعدو الحكاية كونها نشأت ناحية المنطقة الساحلية ومباشرةً بعد وفاة الرجل الذي سدّد دينها.

»برغم ذلك، عندما تدوم العلاقة خمسة أعوام لا يُمكن القول إنها مجرد صلة، قال شيامورا معترضاً. ففي مثل هذه الحال تكون وثيقة تعاقد.

- لمّرتين فكّرتُ في الانفصال عنه. المرّة الأولى حين جثتُ أعمل هنا كفتاة غيشا. والثانية حين بدّلت مكان إقامتي بعد وفاة أستاذة الموسيقى. ولكنني في المرّتين لم أقدر على ذلك. ينقصني الخزم».

كان ذلك الرجل يقطن الناحية الساحلية، قالت، ولم يستطع أن يقنعها بالبقاء هناك. لذلك أرسل كوماكو في رفقة أستاذة الموسيقى عندما صمّمت هذه على العودة إلى الجبال. وإنّما فعل بدافعٍ من مروءته، أضافت كوماكو. «لطالما عاملني بلطف، وأنا أشعر بالأسى فعلاً لأنني لم أستطع أن أحبه، أن أكون له جسداً وروحاً. وقالت إنه كان يكبرها بسنوات عديدة ولا يأتي لزيارتها إلاّ فيما ندر.

»وغالباً ما كنت أحسبُ أنني لو أردت أن أسوء التصرف لكنت

القطيعة معه أسهل عليّ. صدّقني غالباً ما كنت أحدث نفسي بهذا الأمر.

- ولكنّ الأمور لن تجري أبداً كما تشتهين!
- ذلك أنّي لا أقدر. طباعي لا تسمح لي كما أنّي أحبّ جسدي كثيراً. لو شئت لكان في استطاعتي أن أخفض مدة عقد الأربع سنوات إلى النصف. إلّا أن هذا يتطلّب مني أن أعمل في سبيل ذلك، ولا أريد أن أفعل. تخيّل كم أستطيع أن أجني من المال لو أردتُ. ولكن يكفيني أنّ الرجل الذي تعاقدت معه لن يخسر مالاً في نهاية السنوات الأربع. المطلوب أن يسترّد رأس المال والفوائد والضرائب وتكاليف إقامتي وإعالتني، لقد حسبت ما يترتّب على ذلك من مبالغ شهرية، ولا أبذل أقلّ جهد لأجني المزيد. وما أن أجد أنّ أمسية ما لا تستحقّ العناء حتّى أنسحب منها وأعود إلى الدار. بإمكانهم أن يرسلوا في طلبي دائماً للذهاب إلى النزل ولكنهم لا يفعلون إلّا إذا كان المعنيّ زبوناً قديماً يطلبني أنا بالاسم. لو كانت لديّ أهواء شاذّة لما وجدتُ مشقّة في أن أبذل جهداً أكبر، غير أنّي في الحقيقة لا أعمل إلّا حين يحلو لي أن أعمل. وأجد أنّ هذا يكفي ما دمت قد سدّدت نصف المبالغ المتوجبة في أقلّ من سنة واحدة. بالإضافة إلى مصاريفي الخاصة والتي قد تبلغ ثلاثين يناً أو أكثر في الشهر الواحد. لذلك لا أحتاج أكثر من مئة يّن في الشهر، أردفت قائلة، وأوضحته أنّه حتّى في الشهر الفائت، وهو أكثر أشهر السنة كساداً، استطاعت أقلّ الفتيات حظاً من زميلاتهما أن تجني ستين يناً، أمّا هي فقد حظيت بتسعين لقاءً وجنت من المال أكثر مما جنته كلّ الفتيات الأخريات. وبما أنها تنال نسبةً محدّدة لقاء كلّ زبون فإنّ

ربحها الشخصي يزداد بنسب تفوق تلك التي يجنيها رب عملها باعتبار عدد الاحتفالات والأمسيات التي تشارك فيها. بإمكانها إذن أن تنتقل بين أمسية وأخرى ساعة يحلو لها أو تشاء. فما من فتاة غيشا تعمل في هذا المنتجع أرغمت على تحديد عقد عملها وظلت غارقة في الديون».

في صباح اليوم التالي استيقظت كوماكو باكراً.
«لقد أيقظني حلم: كنتُ أرتبُ منزل المرأة التي تُعلّم فنُ الورود». كانت قد أزاحت منضدة الزينة الصغيرة في اتجاه النافذة فعكست مرآتها، في ضياء الشمس الخريفية، منظر أوراق الشجر الحمراء التي تكسو الجبل.

لم يكن صوت يوكو، هذه المرة، الذي نادى على كوماكو من وراء الباب: ذلك الصوت المثير الذي ينقبض له القلب قليلاً. لا. لقد أحضرت ابنة ربّ العمل الصغيرة الكيمونو الذي ترتديه كوماكو خارج أوقات عملها.

«والفتاة الأخرى، أين أصبحت؟» سأل شيامورا.

رمقته كوماكو بنظراتٍ حادة.

«إنها تقضي وقتها في المقبرة، هناك، هل تراها؟ عند طرف ساحة التزلج: انظر: هناك حقل حنطة سوداء، والمقبرة بمحاذاته إلى الجهة اليسرى».

بعد رحيل كوماكو، خرج شيامورا في نزهة بين أنحاء البلدة.

كانت فتاة تلهو برمي كرة قبالة جدار أبيض في فيء سفينة متقدّمة؛
وكانت ترتدي هاكاما جديداً من الفلانيّة لونه أحمر موشى بالبرتقالي.
حفظ شيامورا بتلذذ تلك اللوحة المبهجة التي رأى فيها الصورة
المثالية للخريف.

لا بدّ أنّ تلك البيوت المشيّدة جميعها على طراز العهد القديم
كانت موجودة هناك في الحقبة التي شهدت روّحات وغدوات أسياد
المقاطعات الريفية الاقطاعيين على طريق الشمال. سقائف مائلة تكاد
تلامس الأرض، وأروقة خارجية طويلة، نوافذ وطيّئة ولكنها طويلة
في الطبقة العليا مكسوّة بالورق: لا يتعدى ارتفاعها ذراعاً واحدة؛
وستائر من أسلٍ مُسدلة من أطراف السقائف.

حائطٌ خفيضٌ من الطين تكلّله نجيليّات خريفية عالية ودقيقة كأنّها
تنحني بجلالٍ لثقل زهراتها وعلى طول سويقاتها تنبثق وريقاتٌ نصليّة
دقيقة وصلبة كأنّها فوّارة ماء.

لمَحْ يوكو تفترشُ حصيرة من القشّ على قارعة الطريق تطرق
الفاصولياء اليابسة تحت أشعة الشمس. وكانت القشور اليابسة تنشقّ
عن حبيبات تتقاذز أمامها مثل قطراتٍ من ضوء.

لا بدّ أنّها لم تره بسبب الوشاح الذي عصبت به رأسها. كانت
جائئة على ركبتيها، مستقيمة الجذع وقد باعدت قليلاً ما بين ساقها
مُرتديةً هاكاما أهل الجبل. وكان يُصاحبُ طَرَقَها المنتظم للقشور
المنثورة أمامها انشاد أغنية خافت: أغنية تُنشد بصوتها الجليّ والعميق
حتّى يكاد يُفعم السامع شجناً، صوتها الموحى بغموضٍ يهزُّ الروحَ
كأنّه يتناهى من حيث لا أحد يدري أين.

«الصَّبِيَّةُ والجُدُجُ، الفراشةُ
والجراد، زيز الحصاد وصرَّار الليل
تُحْلِبُ الجبال.

أي رفرقة هائلة تلك التي تُغادر شجرة الأرز في ربح المساء! كما
يقول الشاعر. مِنْ غابة الأرز الصغيرة التي يستطيع شيامورا أن يراها
من نافذته، كانت جحافلُ من اليعاسيب تهرعُ مجدداً، مُطَوِّفة
متراقصة لمَقْدِمِ المساء في حمية متصاعدة، كأنها مُسَّت بالحمى
والاستعجال.

وعلم شيامورا أثناء تصفّحه لدليل المنطقة الجبلية الذي ابتاعه في
طوكيو لتمضية الوقت قبل انطلاق القطار، أن ثمة درباً ضيقاً،
بمحاذاة إحدى قمم السلسلة الجبلية، يتعرّج بين بحيرات ومستنقعات
خلل منظرٍ رائع، وأن تلك المنطقة الرطبة تتميز بأنواعٍ من النباتات
الصرودية ذات المنافع العجيبة. تأتي سُرْبَة من اليعاسيب الحمراء،
أيام الصيف، لتلهو بينها هائثة جليلةً وتحطُّ على قُبْعَتِكَ أو كُمِّكَ أو
على إطار نظارتِكَ، ولا تشبه اليعاسيب الهائجة والمسرعة التي تحيا
على مشارف المدن، كما لا يشبه الغيمُ الشفيفُ النُقْعَ الأسن.

كان الرقصُ المدومُ لتلك اليعاسيب التي يراها، أقرب إلى رقص
مجازيب أو ممسوسين: إذ بدت في حمية الهياج، كأنها تودّ أن تصد
غشاوة المساء الذي راح يُدْجِي غابة الأرز رويداً، متفانية في صراعها
مع الليل الوافد، مع الغروب.

ذلك أن الشمس هوت خلف الدُرى الشاهقة، مُنَوَّرةً، في قبسٍ
أخير، شلال الأوراق الحمراء على امتداد السفوح المترامية.

«الانسان كائن هش، ألا تعتقد ذلك؟ قالت له كوماكو في صبيحة ذلك اليوم. كانوا كأنهم عُجنوا عجنًا، كما قيل لي. الجمجمة، العظام، كل شيء فيهم كان محطماً. لو أن دباً سقط من العلو ذاته لنجا دون أن يُصاب حتى بكسر». كانت تحدثه عن حادثة جرت في الجبال مؤخراً وذهب ضحيتها بعض المتزلجين، وكانت تشير بإصبعها إلى المكان، أعلى الصخور، هناك حيث «أفلتوا وسقطوا». وها شيامورا يقول في سرّه لو أنّ الإنسان له قساوة جلد الدب وأثانة فروته لكان عالمه مختلفاً بالتأكيد: ألا يحبّ الانسان من خلال بشرة جلده الناعمة ومن خلال رقبته ورهافته؟ ولم تلبث هذه الخاطرة الغريبة، هو الساهم في منظر الجبل الغسقي، أن أثارت لديه رغبة عاطفية ملحة في أن يداعب بشرة إنسان.

«الصبيّة والجُدُج، الفراشة...»

مجدّداً تلك الأغنية... يسمعها بصوت فتاة غيشا رديئة الأداء يصحبها عزفٌ على الساميسن كلما أراد أن يتناول طعام العشاء في ساعة مبكرة نسبياً.

إذا كان الدليل الذي قرأ بعضه لا يتضمّن سوى بعض الارشادات العملية كالوقت الذي تستغرقه الرحلات، والمسالك التي ينبغي اتباعها ومواضع الفنادق وكلفة الإقامة فيها... إلخ فإنه على الأقل يدع لقارئه فرصة أن يتخيّل التفاصيل الأخرى التي لا تردّ فيه. كان شيامورا يعود من تلك الجبال عندما تبدأ السويقات النابتة باختراق قشرة الثلج المتبقية، في الموسم الذي تعرّف فيه إلى كوماكو. وها أصبح، في موسم السباقات الخريفية، يستعيد في أعماقه نداء

تلك المرتفعات التي تسلقها منذ عهد قريب. مُتَبَطَّلًا، كان يستطيع أن يقضي أوقاته كما يحلو له. إلا أن سُكنى الجبل لها أحكامها لأن رياضة تسلق المرتفعات بدت له مثال الجُهد المبذول مجَّاناً، ولذلك كان يهوى التسلق كأنه مفتونٌ على الدوام بسحر الوهم.

عندما تكون كوماكو بعيدة عنه، لا يتوقف لحظة عن التفكير بها. وعندما يرى أنها قريبة منه تصبحُ رغباته التائفة للممس جلد، لتحسُّس جلد إنسانٍ رقيق وناعم، أقرب إلى رغباتِ حلمية منها إلى شهوة جسدية، تُصبحُ حينئذٍ أشبه بذاك الذي توقظه في أعماقه فتنة القمم الشاهقة. أيكون ذلك لاحتاسه المفرط بالأمان؟ أيكون ذلك لأن جسده في الأثناء يصبحُ ألوفاً وحمياً؟ لقد أمضت كوماكو ليلتها السابقة في رفقة، والآن، إذ يجد نفسه وحيداً في غرفته، لا يسعه إلا أن ينتظر قدومها. يخالجه إحساس اليقين بأنها ستأتي إليه دون أن يُرسل في طلبها. لهنهات، أصغى شيمامورا إلى صياح مجموعة من التلميذات في رحلة. ثم راح يغلبه النعاس فنام باكراً.

في الليل سمع حفيف مطرة مباغتة لم تدم طويلاً، كما يحدث عادةً في مثل ذلك الموسم.

وعندما فتح عينيه في الصباح رأى كوماكو، مُتقنة المظهر، جالسة وراء منضدة وطيئة تقلَّبُ صفحات مجلة. كانت ترتدي كيمونو عادياً وبسيطاً.

«هل استيقظت؟ سألته بصوتٍ خفيض وقد أدارت وجهه نحو برفق.
- ماذا تصنعين هنا؟»

وتلفت شيامورا مجيلاً أبصاره في أنحاء الغرفة على عجل . تُراها
جاءت أثناء الليل دون أن يدري؟ تناول ساعته من تحت الوسادة :
السادسة والنصف .

«أراك مبكرةً هذا اليوم !
- ليس كثيراً . لقد سبقتني الخادمة وأحضرتِ الوَقْدَةَ» .

وبالفعل كان بخار خفيف يتصاعد من المغلاة أشبه بضبابية
الصباح . دنت كوماكو وجلست على طرف الفرش لتقول له بلطفٍ
إنَّ وقت النهوض قد حان ، تماماً كما تفعلُ الزوجة المثالية .

تمطى شيامورا في فراشه وتثاءب وشدَّ بيده على اليد التي ألقتها
على ركبته ، مداعباً أصابعها الدقيقة التي خشنها العزفُ على
الساميسن .

«أشعر بالنعاس ! لقد بزغت الشمس للتو ! قال متذمراً .

- هل كان نومك بمفردك مُريحاً؟

- كان جيّداً جداً .

- وشارباك ، في آخر الأمر ، لم تدعهما . . .

- آه ! صحيح ، إن لم تخني الذاكرة كنتِ تودّين أن يكون لي

شاربان .

- لا أهميّة لذلك . كنت أعلم جيّداً أنَّك لن تفعل . فأنت تبدو

دائماً حليق الذقن ناعمها وبشرة وجهك رقيقة مُزَرَّقة .

- وأنت أيضاً تبدين كمن حلق ذقنه حديثاً حين تزيلين تلك

المساحيق عن وجهك .

- ألم يكن وجهك أكثر امتلاءً بعض الشيء؟ كنت تبدو كطفلٍ
أثناء نومك، بخديك العففين وبشرتكَ الشاحبة وشاربيك الحليقين.
- كنتُ محبباً وظريفاً، أليس كذلك؟
- أوه! لا، ليس إلى هذا الحد!
- هيا أخبريني أنت: كنتِ تتأملين وجهي أثناء نومي، لا أعرف
جيداً إذا كنت أقبل بأن يتأملني أحدٌ ما أثناء نومي...»
أطرقت كوماكو قليلاً مُبتسمةً ثم لم تلبث أن أطلقت ضحكةً مدويةً
مثل نيران تُقَدَح من الجمر. أطبقت أصابع يدها بقوة على يد
شيامورا.

«لقد اختبأت في الخزانة الكبيرة! فما ارتابت الخادمة بشيء.»
- متى؟ هل اختبأتِ لوقتٍ طويل؟
- لثوانٍ فقط، بالطبع! لم تمكث هنا، دخلت ثم غادرت بعد أن
وضعت الوقود.»
وانفجرت كوماكو ضاحكةً لتلك الدعابة، واصطبغ وجهها بالحمرة
بغثةً متظاهرة بهبة حرٍّ لتُخفي ارتباكها، وشرعت تتروّح بطرف غطاء
الفراش.

«هيا، انهض، انهض، أرجوك!»
- الجو بارد جداً! قال شيامورا متلحفاً بالغطاء. هل استيقظ جميع
من في النزل؟
- وما أدراني أنا؟ لقد سلكتُ من الخلف.
- من الخلف؟
- بلى، لقد تسلّقت مباشرة من ناحية غابة الأرز.

- أيجاد درّب من هناك؟
- لا، ولكنّ المسافة أقصر».

رمقها شيامورا بنظرةٍ حائرة.

«لا أحد يعلم بوجودي هنا، قالت موضحة. لقد سمعت جلبةً في المطبخ ولكن لا بدّ أن باب المدخل لا يزال مغلقاً في مثل هذا الوقت.

- تبدين كطير مُبكر!
- ولم أستطع أن أنام.
- هل سمعت هطولَ المطر؟
- آه! أأمطرت إذاً؟ الآن أدرك لماذا كان العشبُ مُبتلاً لا كالمعتاد:
لم يكن مجرد ندى إذاً... حسناً سأغادرك، نوماً هنيئاً».

نهض شيامورا من فراشه في قفزة مباغته ممسكاً يد كوماكو بشدةٍ، وقادها برفقته إلى النافذة ليرى من أين جاءت. عند منتصف المنحدر الذي يخترقُ العشب المتطاوّل والعلّيق، يوجَدُ دغلٌ شائكٌ من الخيزران القزم الذي يُطلقُ قضبانه في كلّ اتجاه. وعلى مقربةٍ من مطلق النافذة، أحواض جنيّة خضار تتراصف فيها أثلّام اللّفت والبطاطا السكرية والكرات والبطاطس. رُكنٌ من جنيّةٍ عادية جدّاً تطالع شيامورا ولاول مرةً بتلاوين الخضرة العذبة المختلفة وكأنها لمعت حديثاً في الصبيحة المنعشة.

خلال عبوره الرواق في طريقه إلى الحمام التقى البوّاب، الذي كان يرمي الطعوم للأسماك الحمراء في الحوض.

«واضح جداً أن البرد يشتدّ، قال له الرجل . إنها تأكل من غير شهية» .

مكث شيامورا هنيهةً يراقب ديدان القزّ المجفّفة اليابسة تطفو على سطح المياه كأنها حروفٌ مبهمه .

استحمّ وعاد إلى غرفته حيث كانت كوماكو في انتظاره، غضةً وناصعة مثل صورة .

«كم أود لو يكون لي ركنٌ كهذا أنصرف فيه إلى أشغال الخياطة!»

وكان واضحاً أن الغرفة قد نظّفت ورُتبت فيما شمس الصباح السخية تغدقُ عليها دفقاً من أشعتها تصل حتّى أطراف حاشية الحصر البالية بعض الشيء .

- أتجيدين الخياطة؟

- إنه سؤال مهين! من بين جميع أفراد عائلتي كان من نصيبي أنا أن أقوم بالأعمال الأكثر مشقة . وأحسب الآن، حين أعود بذاكرتي إلى الوراء، أن سنوات صباي تلك كانت الأسوأ في حياتي كلها» .

كان صوتها محايداً كأنها تحدّث نفسها، ولم تشتدّ نبرتها قليلاً إلّا حين قالت له :

«لقد رأيتني الخادمة . وأبدت امتعاضها ثمّ سألتني متى أتيت إلى الغرفة . وأحسست بالحرج ! - ولكن ماذا أفعل؟ لن أهرع إلى الخزانة كلّما جاءت! والآن يجب أن أغادر . لقد بددتُ قسطاً لا يستهان به من الوقت حتّى الآن ولديّ الكثير لأصنعه . ولأنني لم أنم جيّداً هذه الليلة صممت على غسل شعري بالشامبوان وينبغي أن أفعل ذلك في

وقتٍ مبكر جداً حين أصمّم على غسل شعري، إذا أردت أن يجفّ قبل أن أقصد المزيّن. وإلاّ لما استطعت أن أنجز كلّ هذا قبل وقت الغداء حيث ارتبطتُ بموعد عمل. كما أرسل في طلبي إلى النزل، هنا، ولكن لن أستطيع المجيء: لقد تأخروا في طلبهم وكنتُ ارتبطتُ بموعدٍ آخر. كذلك الأمر لن أستطيع أن أراك هذه الليلة: إنها ليلة السبت ولديّ ارتباطات عديدة.

ومع ذلك، بدا أنها لن تذهب برغم كلّ الكلام الذي قالته. وكلّ ما في الأمر أنها لن تغسل شعرها، لن تفعل وحسب.

أمسكت بيد شيامورا وقادته برفقتها نحو الجنيّة الخلفية، ولم تنس أن تحمل، في طريقها، صندلها وجوري التابي المبتّلين التي كانت دسّتهما تحت حافة الرواق قبل أن تدخل.

كان دغلُ الخيزران القزم الذي استطاعت أن تفسح لها طريقاً بين أعواده المتشابكة أثناء صعودها، يسدّ عليها الطريق كحاجز منيع، فأنحدرا من طريق الجنيّة، مُستدّلين بخير الشلال الهادر، حتّى وصلا إلى الجرف العالي عند غابة أشجار الكستناء. بين الأشجار كانت تتردّد أصوات أطفال يتنادون فيما بينهم. وعلى التراب أعداد كبيرة من ثمار الكستناء التي تساقطت عن الأغصان فغطّاها العشب. كسرت كوماكو بكعبها عدداً من تلك القشور ذات البرائن وأخرجت منها ثمراتٍ ضئيلة الحجم.

وقبالتهما، على السفح المنحدر للضفة الأخرى، كانت قنازع الكايا الفضية اللون تترجّح ببياضها المشرق في غمرة ضياء الصباح. تفتّحُ باذخ لبهاءٍ نادر، لكنّه البهائم الذي يُشبهه في هشاشته وسرعة زواله

ذلك الصفاء الباهر والشفافية المذهلة في سماء الخريف المنورة .

«هلاً عبرنا إلى الضفة الأخرى؟ اقترح شيامورا . وعندئذٍ بإمكاننا أن نصل إلى قبر الخطيب» .

في لمح البصر استطاعت كوماكو أن تنحني ثم تقف مجدداً وفي الأثناء ، تلقى شيامورا حفنة من ثمار الكستناء على وجهه . لم يستطع أن يتجنب الرمية التي أحدثت له خدوشاً في جبينه .

«أتريد أن تسخر مني؟ قالت له في البداية . ثم أضافت :

- ترى ما الذي قد يدفعك للذهاب إلى المقبرة؟

- ولكن ما الداعي إلى غضبك هذا . . . قال شيامورا .

- لم تكن رمية غضب . كل ما في الأمر أنني لا أطيق الناس الذين يفعلون كل ما يخطر لهم دون أن يفكروا في الآخرين ولو للحظة واحدة . أنا أرى أن الأمر مقصود .

- ولكن أي أمر؟ قال شيامورا بشيء من الخجل .

- لماذا سمّيته خطيبي؟ ألم أخبرك ، وبالتفصيل ، أنه لم يكن خطيبي؟ ولكن أنت ، بالطبع ، لا بد أنك نسيت كل شيء!»

لا ، في الحقيقة ، لم ينس شيامورا شيئاً على الإطلاق ، لا بل كان بإمكانه القول ، دون أن يكذب ، إن ذلك الرجل ، الذي يُدعى يوكيو ، لا يزال يُثقلُ عليه بذكره . ولكن المؤكد هو أن كوماكو لا تستطيع احتمال أي حديث عن يوكيو . فمن الجائز أنها لم تكن خطيبته ، ولكن ذلك لم يحل دون أن تُصبح فتاة غيشا بقصد توفير بعض أكلاف علاجه . وأن تكون ردة فعلها متعمدة و«جديّة» فتلك

هي البداة عينا في نظر شيامورا.

وهو نفسه لم تبدر منه أي بادرة غضب، حتى بعد تعرّضه لرشقة الكستناء. أمّا كوماكو التي مكثت طويلاً ترمقه بنظرات مشدوّهة، فقد أحسّت بأن مقاومتها تلين. فتأبّط ذراع شيامورا قائلة:

«أنت رجل طيّب ومُستقيم، أليس كذلك؟ رجل طيب بالفطرة... وثمة ما يكدرك.

- أولئك الصبية يترصدوننا من أعلى الأغصان، قال.

- وما الضير في ذلك؟ أنتم، أهل طوكيو، تعقدون الأمور. حياتكم ليست إلا ضجيجاً وفوضى، تحيون في هياج مُحطّم مشاعركم ويجعلها نثاراً.

- كلّ شيء يتحطّم نثاراً، أجابها شيامورا مُطرقاً.

- حتى الحياة، الحياة نفسها، لا تدوم طويلاً، قالت كوماكو متممة لعبارة شيامورا. والمقبرة، هل نذهب إلى المقبرة؟
- أقصد...

- رأيت، أنت نفسك لا تريد، في صميم أعماقك، أن تذهب إلى هناك!

- ذلك أنك جعلت من الأمر مُشكلة...

- لأنني لم أذهب إلى المقبرة، ولو مرة واحدة. صدقاً، ولو مرة واحدة ووحيدة. أحياناً ألوم نفسي الآن وقد أصبحت أستاذة الموسيقى هناك هي أيضاً. وأحياناً أخرى أجد أن الألوان قد فات وما عاد يُجدي أن أبدأ الآن. ففي ذهابي بعد انقطاع شيء كثير من الخبث.
- ألا تعقدين الأمور أكثر مما أفعل بكثير؟

- وكيف ذلك؟ في مواجهة الأحياء لا يمكنني أبداً أن أكون في حالة كاملة وثامة من الصديق مع الذات، هذا صحيح. ولكن أريد على الأقل أن أبدو صادقةً وصريحةً معه، الآن، وقد أصبح في عالم الأموات».

كانا يتابعان سيرهما مُتمهلين فاجتازا غابة الأرز حيث بدا الصمتُ يرشّح قطراتٍ مدلاةً منعشة وعذبة. سارا بمحاذاة خطّ السكة الحديد أسفل ساحة التزلّج، ومن هناك سرعان ما أفضيا إلى المقبرة: بضع عشراتٍ من القبور القديمة المنهوكّة بفعل تقلّبات الجو، مُبعثرة في أنحاء ربوةٍ جرداء، كأنّها جزيرة صلعاء وضيقّة وسط بحرٍ من حقول الأرز؛ وحده النُصب التالف لـ «جيزو»، حارس الطفولة يقف هناك. وما من وردة واحدة.

ثم بغتةً، بدا من خلف أجمة نابتة عند قدمي «الجيزو» رأس يوكو وكتفاهما. وإذا التفتت نحوهما بوجهها الجامد والرصين كقناع، حدّجت الوافدين بنظراتها الحادة. فبادر شيامورا إلى تحيّيها بإشارة عفوية عاجلة من رأسه، ثم وقف صامتاً. كوماكو هي التي تكلمت.

«ألا تعتقدين أنك أبكرتِ بعض الشيء يا يوكو؟ كنتُ أعترم الذهاب إلى المزيّن قبل أن...»

رَعْدُ أسود عصّف بهم وكاد يوقعهم أرضاً وابتلعت الجلبّة عبارة كوماكو. كان ذلك قطار بضائع انبثق مسرعاً بمحاذاة مَخْلَفاً صخبه الهائل.

«يوكو! يوكو!» صاح بملء صوته شابٌ يلوح بقبعته وقد انتصب واقفاً على حافة باب مفتوح في وسطِ عربة سوداء .

«سايشيرو زعقَ صوتُ يوكو مُجيباً . سايشيرو!»

كان لصوتها تلك النبرة المؤثرة والرخيمة إيّاها، ذلك الصوت الذي يخترق كيائك بالكآبة لروعته الموجهة، كأنها تنادي بلا رجاءٍ مسافراً ما نأت به السفينةُ إلى عرضِ البحر، النبرة نفسها التي أطلقها صوتها في كنفِ الليل والثلوج، عندما نادى من عربة القطار على ناظر المحطة، عندما توقّف خارج النفق .

عبر القطار وإذ رُفِع الستار الأسود الذي أسدله بغتة، انقشعت ألوان الحنطة السوداء لامعةً وندبةً في الجهة المقابلة من خطوط السكة الحديد: حقلٌ من الورود البيضاء التي تعتلي سويقاتها الحمراء وبثها السكينة وصفاء السريرة .

لقد أثار حضورُ يوكو المباغت دهشة كوماكو وشييامورا فلم يلحظ أحداً منهما اقتراب قطار البضائع . إلا أن عبوره الصاخب أتاح لهما في المقابل أن يتهاكأ دهشتهما تلك . وبعد أن تضاءلت جلبة القطار مُبتعداً، لم يبق مُجدّداً إلا صوت يوكو، بتموجاته التي تشبه أخلص ما في الحب، يتردد في أذنيه .

«إنه أخي، قالت وهي تتبع القطار المبتعد بعينيهما . قد يكون من الأفضل إن أذهب إلى المحطة . . .

- ولكنّ القطار لن ينتظر! قالت كوماكو ضاحكةً .

- ربّما كنت على حق . . .

- أنتِ تدركين بالطبع أنني لم أقصد هذا المكان لزيارة قبر يوكيو» .
فوافقت يوكو بحركة خاطئة من رأسها وبدت في حيرة من أمرها
ثم ركعت أمام القبر.
ومكثت كوماكو واقفةً تُراقبها .

كان شيامورا قد أشاح بوجهه عنهما وراح يتأمل نُصْبَ «جيزو»
الذي يمتلك ثلاثة وجوه مستطيلة وزوجين من الأذرع بالاضافة إلى
ذراعيه المشبوكين فوق صدره .

«يجب أن أذهب إلى المزين» ، قالت كوماكو مجدداً ليوكو قبل أن
تبتعد على ممرٍ ترابي مرتفع بين حقول الرز .

إنها عادة قديمة في بلد الثلوج أن يُجفّف الرزّ بربط رُزمه ، رؤوسها
إلى الأسفل ، إلى قضبان من الخيزران أو الخشب ، تُنصَّبُ كمسندات
بين شجرتين . وفي ذروة موسم الحصاد تصبحُ المسندات محمّلةً
بكمياتٍ من الرزم بحيثُ تبدو حيثما كانت كجدرانٍ عالية من الرز
الأخضر .

على طول الدرب الذي سلكه شيامورا وكوماكو في طريق عودتهما
إلى البلدة كان المزارعون منهمكين بالحصادِ وبتعليق محاصيلهم على
المسندات . كانت فتاة ترتدي الهاكاما الخشن تحمل رزم السبلات
وبوتائر منتظمة مصحوبةً بحركةٍ من الوركين ترمي بها إلى
أعلى فيتلقفها رجلٌ على الممر الترابي المرتفع فيُفرّج سويقات الرزمة
إلى قسمين ثم يعلّقها على طرف قضيب . كانت حركات العاملين شبه
آلية ، بفعل العادة ، متناسقة ومتابعة لا شوب فيها .

انتزعت كوماكو رزمة صغيرةً من الكوم وراحت تهددها بين ذراعيها كأنها تروّز جوهرة».

«أنظر كم هي ثقيلة! قالت. وكم هي ناعمة الملمس! وكم تختلف عن محصول العام الماضي!»

كانت كوماكو قد أغمضت عينيها كمن يريد أن يُديم لذته، فعبّرت سربة من عصافير الدوري فوق رأسها.

حين ابتعدا قليلاً طالعهما، بمحاذاة الدرب، مُلصقٌ كان لا يزال معلقاً على أحد الجدران: ٩٠ سنّاً(*) يومياً بالاضافة إلى وجبات الطعام. للنساء: ٤٠٪ أقلّ.

أمام منزل يوكو، عند طرف الحقل المنخفض قليلاً الذي يُباعد ما بين الطريق وبينه، كانت رُزَمٌ مشابهة مكْدَسَةٌ فوق مُسْنَدَاتٍ عالية صفّ طويل منها يُسدل ستاراً كثيفاً بين أشجار الكاكي، من أمام الحائط الأبيض الذي يسوّر الجنيّة حتى مدخل الدارة المجاورة؛ وصفّ آخر يمتدّ، وفق زاوية مستقيمة، على طول حافة الحقل قبالة الجنيّة، وقد تُرِكَت فُتْحَةٌ عند الزاوية للعبور من خلالها. كان ذلك أشبه بمسرحٍ مُرتجلٍ صغيرٍ أُقيمت جنباته من سبلات الرزّ الناصج بدل الحُصَرِ المدلاة التي تستخدم عادةً لمثل هذه الغاية.

كان القلقاسُ في الحقلِ، بسويقاته الصلبة وأوراقه الخشنة القاسية، لا يزال في أوج نضارته. أما الدهليّات والورود فقد أنهكها الذبول. كما احتجبت بركة اللوتس، وأسماكها الحمراء، خلف ستار

(*) عملة يابانية صغيرة.

المسندات الذي حجب أيضاً نافذة عليّة دود القزّ حيث كانت كوماكو تُقيم.

عبرت يوكو من الفتحة بين الرزم المعلقة، وأحنت رأسها بحركة خاطفة برّمة:

«هل تحيا وحيدة؟ سأل شيمامورا وأنظاره تتبّع القامة المحنية الظهر.

- لا، أحسب أنها لا تحيا وحيدة؟ أجابت كوماكو بنبرة لا تخلو من الحدة. إنه لأمر محزن حقاً! سأستغني عن المزيّن هذا اليوم. أنت تحشر أنفك في ما لا يعينك، وكانت النتيجة أننا أفسدنا عليها زيارة المقبرة.

- كم أنت معقّدة فعلاً!... وما الفظاعة في أن نذهب إلى المقبرة وأن نلتقي بها هناك؟

- لن تدرك أبداً معنى ما يمثله ذلك في عيني... سأعود لاحقاً، إن استطعت، لأغسل شعري. وقد يكون ذلك في ساعة متأخرة، ولكنني سأعود بالتأكيد».

عند الساعة الثالثة فجراً، استيقظ شيمامورا على ضجّة بدت له كأنها جلبة باب يُقتحم من الخارج، ولم يلبث أن تلقى على صدره كل ما في جسد كوماكو من ثقل.

«قلتُ أنني سأعودوها أنذا. أليس كذلك؟ قلتُ أنني سأعودوها قد جئتُ. أهذا صحيح أم لا؟»

لم يكن صدرُها يعلو ويهبط من جراء لهاثها المتسارع فحسب بل وبطنها أيضاً.

«لقد أفقدك السكرُ وعيك

- ألم أقل لك؟ قلت سأعود. وهاأنذا. أتيت.

- حسناً، اتفقنا: لقد قلت لي.

- كنتُ لا أبصرُ شيئاً في طريقي إليك. لا شيء على الإطلاق.

هذا الصداع.

- وكيف ارتقيتِ المرتفع؟

- لستُ أدري. لا أعرف كيف».

كانت ترخي ثقل جسمها متهاكةً فوق صدره، وخصوصاً بعد أن انقلبت على ظهرها واستلقت في استرخاء تام. حاول شيامورا بارتباك أن يرفع ثقلها عنه وهو لا يزال بين اليقظة والنوم، غير أنه ترنح ثم عاد فوق بطوله على الفراش وقد استند رأسه إلى شيء شديد السخونة.

«لكنَّ جسمك يلتهبُ سخونة!»

- حقاً؟ إنه إذن وسادة جمر! فحذارٍ من الحريق.

- مَنْ يدري؟ مَنْ يدري؟ من الممكن أن أحترق!» قال شيامورا

مغمضاً عينيه وقد أحسَّ بأوار يسري في كيانه ويكتنف رأسه كأنه احتدام مباغتٍ لحيوية مفرطة.

ما أن تناهت إليه أنفاسُها المتقطعة المتسارعة حتى استعاد وعيه يُخالجه إحساسٌ غامضٌ بالنوم. وتراى له أنه يقف هناك لا يحرك ساكناً في انتظار ثأرها منه، دون أن يعرف ما هو بالضبط.

«لقد قلتُ ونفّذتُ . لقد جثتُ، قالت، وبدا واضحاً مقدار الجهد الذي بذلته لتركيز أفكارها وعباراتها . والآن سأغادر . سأعودُ إلى المنزل لكي أغسل شعري؟» .

دبّت إلى الطاولة وشربت بنهم كوباً كبيراً من الماء .

- لا أستطيع أن أدعكِ تغادرين وأنت على هذه الحال، قال شيامورا معترضاً .

- بلى، بلى، سأغادر . إنهم ينتظرون عودتي . ولكن أين منشفتي؟»

نهض شيامورا وأشعل النور .

«لا! لا تفعل! لا، لا!»

وغطّت وجهها بكفيها وأطرقت .

كانت ترتدي كيمونو مزركشاً برسوم ذات ألوان فاقعة بمثابة منامة وفوقه زنار الأوبي العادي . وكان المنديل الأسود المعقود حول الياقة يُخفي أطراف الكيمونو الداخلي . وبفعل المسكرات التي تناولتها كانت بَشَرَتها متوهجة لامعة حتى باطن قدميها العاريتين فحاولت أن تُخفيهما بأناقة فاتنة وقليل من الإغواء .

أما حوائج الاستحمام الخاصة بها فكانت كوماكو قد رَمَت بها أرضاً فور دخولها . فالمنشفة والصابونة، والأمشاط، كانت كلّها مبعثرة على أرضية الغرفة من الباب إلى طرف الفراش .

- اقطع لي هذا . لدي مقصّ .

- ما الذي سأقطعه؟

- هذا! قالت وقد أشارت بإصبعها إلى الربط التي تشدّ تسريحتها العالية على الطريقة اليابانية. أردت أن أقطعه بنفسي ولكنني لم أستطع: فأصابعي لا تمثل لمشيئتي. فقلتُ في نفسي لماذا لا أطلب منك أن تساعدني في أمر كهذا».

عمد شيمامورا إلى إبعاد خصل الشعر بعناية ثم قطع الرُّبْط واحداً تلو الآخر في حين راحت كوماكو تهزّ رأسها لكي تتهدّل الخُصْلُ الطليقة على ظهرها. وبدأ أنها استعادت بعض هدوئها.

«كم الساعة الآن؟ سألت.

- الثالثة.

- لا، أحقاً؟ إياك وشعري.

- ولكن كم عددها هذه الرُّبْط؟ لم أرَ مثل هذا العدد في حياتي!» قال شيمامورا متعجباً دون أن يتوقّق عن قطع الرُّبْط.

كانت لفّة الشعر المستعار التي تسند تسريحتها ساخنة من الجهة التي تلامس الرأس.

«أيعقل أن تكون الساعة الآن الثالثة فجراً؟ قالت في استغراب. وأنا التي وعدتهن أن أرافقهن إلى الحمام! لا بدّ أنني غفوت بعد عودتي إلى البيت. فجئتُ ونادينني وتساءلن عما حلّ بي.

- أنتظرنكِ؟

- في الحمام العمومي. إنهن ثلاث. لقد أرسل في طلبي للمشاركة في ست سهرات هذه الليلة ولم أشارك إلا في أربعٍ منها. والأسبوع المقبل سيكون حافلاً بالعمل لأنّ السياح يفدون بالآلاف لمشاهدة شجر القيقب - شكراً، شكراً جزيلاً».

كانت كوماكو قد استقامت في جلستها لتسرح شعرها الطليق
فارتسمت على ثغرها ابتسامة حياء:

«أبدو الآن في مظهر مضحك، أليس كذلك؟» ولكي تتمالك
خجلها انحنى ولّت لفة الشعر المستعار.

- يجب أن أغادر، قالت. ليس من اللائق أن أتأخر عليهن. لن
أعود هذه الليلة.

- هل أنت واثقة أنك ستبصرين جيّداً أثناء سيرك؟
- أجل، أجل.

ولكن ما أن نهضت حتّى تعثرت قدماها بأذيال الكيمونو.

قبل الساعة صباحاً، وعند الثالثة فجراً: لمرتين في يومٍ قصير
واحد اختارت أن تزوره في أوقاتٍ غير مألوفة. «ليست عادية جداً
هذه الحكاية» كان شيامورا يردّد في سرّه.

لن يلبث الزائرون أن يتوافدوا للتمتع بمشهد أوراق شجر الخريف. وقد زين مدخل النزل لهذا الغرض بأغصان القيقب.

وكان يحلو للبواب الذي أشرف كطاغية على انجاز هذا العمل أن يصف نفسه بأنه طير مهاجر. فهو في الحقيقة، كغيره من الزملاء، يعمل في المنتجعات الجبلية من الربيع إلى الخريف، إلى أن يحين موعد توافد الناس لمشاهدة أوراق شجر الخريف، وبعد ذلك يعود إلى المنطقة الساحلية لقضاء فصل الشتاء. وسيان عنده أن يعود إلى الموضع نفسه أم لا، وتدفعه كبرياؤه التي يستمدّها من مخالطة الزبائن الميسورين في المنتجعات المشرفة للمنطقة الساحلية إلى احتقار مراسم الاستقبال التي يُقيمها النزل احتفاءً بالزبون. وفي محطة القطار يسلك سلوكاً غامضاً كشحاذٍ تتنازعه الحيرة ينتقي الوافدين الجدد ويدنو منهم دون أن يكفّ لحظة عن فرك يديه ارتباكاً.

«هل ذقتها مرّة من قبل؟ سأل شيامورا العائد للتو من نزهرته وأشار إلى ثمرة أكيبى أشبه برمانة كان يحملها في يده. إذا كنت تحبّها فبإمكانني أن أحضر لك بعضاً منها من الجبل».

ورآه شيامورا يُعلّق ثمرة الأكيبى كما هي على غصن قيقب يزّين المدخل . كانت تلك الأغصان التي قُطعت حديثاً، طويلة جداً حتى تدلّت أُماليدها القرمزية اللامعة من أطراف السقيفة بوريقاتها المصقولة ذات الاتساع المذهل . وكأنّ المدخل كلّه قد نورته جُمرات متوقّدة .

كانت يدُ شيامورا لا تزال تحفظ نواة ثمرة الأكيبى النفاذة عندما لمح يوكو جالسةً أمام الموقد في غرفة المكتب . وكانت زوجة صاحب النزل قُبالتها تُسخّن «الساكي» في مغلاة نحاسيّة وتُخاطب الفتاة التي تهزّ رأسها بحركاتٍ متتالية لتُجيب عمّا يُقال لها . كانت ترتدي كيمونو حريريّاً، بسيطاً قاتم الألوان، وكأنّه غُسل وكُوي للثوّ.

«هل تعمل هنا؟ سأل شيامورا البوّاب بلا مبالاة .

- أجل يا سيّد . إنّ وجودكم هنا بمثل هذه الكثرة، يتطلّب عدداً إضافياً من المستخدمين .

- مثلك أنت، أليس كذلك؟

- بالضبط . ولكنّ تلك، من بين فتيات أهل المنطقة، تبدو فتاةً

استثنائية . إنها آنسة، إذا جاز لي القول .»

ولكنّ في الأغلب أن يوكو تلازم عملها في غرفة الخدمة ولا تخالط الزبائن . والواضح أنّه كلّما ازدحم النزل بالوافدين الجدد لوحظ التصاعدُ في نبرة أصوات النساء اللواتي يعملن على خدمتهم، إلّا أن شيامورا لم يسمع نبرة يوكو العذبة النفاذة . وعندما أخبرته الخادمة التي تعني بغرفته أنّ من عادة يوكو أن تغني أثناء استحمامها قبل أن تأوي إلى الفراش، كان عليه الإقرار أنّ هذا ما فاتهُ أيضاً .

منذ أن علم شيامورا بوجود يوكو في الدارة، لم يفارقه الشعور بشيء من الضيق دون أن يعرف سبباً لذلك. فقد كانت تُخالجه مشاعر غريبة تُثنيه عن استدعاء كوماكو إليه. إحساسه بشُغورٍ ما. لم يُصبح حضور كوماكو في حياته أقلَّ جمالاً بل أصبح خاوياً ولا طائل فيه، وذلك برغم يقينه أنها تكرّس له وحده كلّ حبّها. شغورٌ. والجهْدُ الذي تبذله واندفاعها للحياة يؤلمانه، ينالان منه في الصميم. كان يُشفق عليها كما لو أنّه يُشفق على ذاته.

ومهما التمعت أمارات البراءة فيهما، فشيامورا يعلمُ حقَّ العلم أن عيني يوكو قادرتان على كشفِ أعماقٍ ما تُخفيه المظاهر. ودون أن يدركَ على وجهِ الدقّة كيف ولماذا، كان شيامورا يشعر هو أيضاً بميلٍ نحوها.

كانت كوماكو غالباً ما تأتي لزيارته من تلقائها ولذلك لم يكن مُرغماً على استدعائها.

وعندما ذهب شيامورا ذات يوم إلى الوادي للتمتّع بمشهد أوراق القيقب، عبرت به السيّارة من أمام دارها. ولما سمعت هدير المحرّك وأدركت أنّه لا بدّ أن يكون هو، هرعت لتراه. «أما أنت، قالت له فيما بعد مُعاتبة، فلم تلتفت إلى الوراء! يا لبرودتك! يا لقسوة قلبك حقاً!».

أمّا هي فكانت، من جهتها، تغتنم كلّ سانحةٍ لزيارته، مهما ضاق بها الوقت، سواء حين تأتي إلى النزل أو حين تقصّد الحمام.

وعندما تلبّي دعوةً لمجالسة الزبائن كانت تتعمّد أن تصل قبل الموعد بساعةٍ على الأقلّ لكي يُتاح لها أن تمكث في غرفته إلى أن تصعد الخادمة لاستدعائها. حتّى أنها كانت تجدّ أحياناً ذريعةً ما للتغيّب لبعض الوقت خلال الأمسيّة، فتصلح من زينتها أمام المراة وتبتعد: «يجب أن أعود إليهم، كانت تقول، إنه العمل. العمل دائماً والعمل أيضاً».

وتكاد تكون عادة لديها أن تنسى شيئاً ما في غرفته: وشاحها، مثلاً، أو علبة أرياش الساميسن، أو أي شيء آخر.

«يا لها من حياة! حين عدتُ إلى المنزل ليلة أمس، لم أجد ماءً ساخناً لصنع الشاي. وبينما كنتُ أقلبُ الأواني والحوائج في المطبخ عثرت يدي على فضلات طعام الفطور. كانت باردة. وكلُّ شيء بارد! هذا الصباح لم يأت أحدٌ لاستدعائي فاستيقظت عند العاشرة والنصف في حين كنتُ مصمّمةً على المجيء لألقي عليك تحية الصباح عند السابعة صباحاً!»

كانت تحدّثه بمثل تلك الأمور أو إذا ابتغت التنويع، فعن النزل الذي التقت فيه الزبون الأول، ثمّ التالي ثمّ الذي يليه، مُستغرقةً في سرد تفاصيل ارتباطاتها لليوم، نهراً وليلاً. وكلُّ ذلك في استعجالها الذي لا ينتهي.

«سأعود فيما بعد، كانت تقولُ له تكراراً بعد أن تشرب كوبَ ماء قبل أن تغادر. إلّا إذا استحال علي أن آتي. هناك ثلاثون زبون، ولسنا سوى ثلاث. فقد يطرأ عملٌ إضافي».

وما أن تهَمَّ بالمغادرة حتَّى تقولَ مجدداً:

«يا لهذه المهنة! إنهم ثلاثون ونحنُ ثلاث فتيات. والأدهى أن إحداهما هي الأكبر سنّاً والثانية هي الأصغر سنّاً من بين فتيات الغيشا اللواتي يعملن في المنطقة، ولذلك أجدني الأكثر انهماكاً. أيُّ شحّ هذا! إنهم مجموعة سياح في رحلة منظّمة أو شيء من هذا القبيل... ثلاثون زائراً يحتاجون ست فتيات على الأقل. ولكن صبراً! سأذهب الآن. أشرب كأساً ولن أعدم وسيلةً لتلقيهم فنون العيش!»

كانت الأمور تجري على ذلك النحو وتكرّر يوماً بعد يوم. وكلّ ما تستطيع كوماكو أن تمنّي نفسها به، حين يلحّ عليها السؤال عن مصير كلّ هذا، هو أن تلوذ بالفرار، أن تهرب وتختبئ في مكانٍ ما. غير أنّ تلك الغشاوة الشفيفة من اليأس والحيرة، ما كانت لتجعلها إلا أكثر إغواءً وإثارة.

«إنّ الأرضيّة الخفية في الرواق تطلقُ دائماً. ومهما حاولت أن أجعل خطواتي خفيفةً ومتأنيةً فإنّ هناك دائماً من يسمعي فتناديني إحدى الفتيات من المطبخ قائلة: «ما الأمر يا كوماكو، «غرفة ورود الكاميلية» أيضاً؟ لم أحسب أبداً من قبل أنّه سيتوجب علي ذات يوم أن التفت إلى ما ينال من سُمعتي!

- إنها بلدة صغيرة!

- صغيرة جداً؛ إنّه موضع مثالي لثرتهم! كلّهم يعلمون بالأمر.

- لكنّها عادة سيئة، سيئة جداً! وينبغي ألا تترك الأمور على

غاربها.

- في مثل هذه النواحي البائسة من العالم يكفي أن تلوك الألسن

سمعتك فتكون نهايتك قد أوشكت! قالت موضحةً، لكنها أرفقت كلامها بابتسامة مفعمة بالركة وهي ترفقه بنظراتها. وما الأهمية في كل ذلك؟ في مهنتي لا يصعب أن أجد عملاً أينما حللت.

لم يكن في استطاعة شيامورا المتبطل، والرجل الذي ورث ثروته عن أبيه أن يدرك معنى تلك النبوة الصريحة، وتلك التلقائية في التعبير عن المشاعر، عن أكثرها عفوية وبساطة.

«حيثما أذهب، لن يختلف الأمر عما هو عليه هنا؛ ما باليد حيلة».

ربما كان ما تقوله صحيحاً، إلا أن هذا لا يبدل شيئاً من إصرار شيامورا على اكتشاف المرأة الحقيقية التي تحتجب تحت مظهر اللامبالاة الذي تبديه.

«ولم الشكوى؟ أردفت كوماكو قائلةً. فبأية حال، النساء، وحدهن، يعرفن كيف يكون الحب».

اصطبغ وجهه بحمرة خفيفة، فأطرقت كوماكو مغضيةً.

كانت ياقة الكيمونو المنشأة حاسرة بعض الشيء فبدأ عُنقها وبياض ظهرها المقوس العاري حتى الكتفين. جمال كثيب بعض الشيء لتلك البشرة المخضبة بالمساحيق، كأنها تحتدم بالحياة تحت غلالة الذرور البيضاء، فتذكر قليلاً بنسيج صوفي، أو ربما، بفروة حيوان.

«في عالم مثل هذا...» ولم يكمل شيامورا عبارته كأن رعدة سرت في كيانه للشعور الذي يكتنف الكلام.

حاولت كوماكو أن تخفف عنه وقالت ببساطة:

«لظالما كان العالمُ على ما هو عليه». ثمَّ أردفت قائلةً بعد أن رفعت رأسها: «أما كنت تدري؟» سألت وهي ترمقه بنظرات ثابتة.

وإذ سترت بحركتها تلك ما بدا من ظهرها العاري، احتجب الأحمر الحريريّ للكيمنو الداخلي عن نظراته المُسترقّة.

كان شيمامورا قد ترجم «فاليري» و«الان»، بالإضافة إلى عددٍ من المباحث الفرنسية حول الرقص والتي نشرت خلال العهد الذهبي للباليه الروسي. وكان عازماً على إصدار ترجماته على نفقته الخاصّة في طبعة فاخرة ومحدودة: كتابٌ لن يُجدي الرقص الياباني في شيء، على الأرجح، إلّا أنّه، إذا قُيِّض له أن يُنشر، فسيجزّي شيمامورا بعض الارتياح. فقد كان يتمتّع سلفاً باللذة الهازئة التي سيجبه بها نفسه حين يتمّ له ذلك. ومَنْ يدري؟ فربّما نُسج عالم أحلامه الرقيق خلواً من الوهم، عالمه الضيق الكئيب حتّى العذوبة، سعيّاً وراء تلك اللذة الهازئة وحسب. لا شيء، في الحقيقة، لا شيء على الإطلاق يحثّه على القيام بشيء، ولا سببٌ لديه، إذ يَنعَمُ بملاذ رحلته، يدفعه لاستعجال أي شيء.

كان احتضار الحشرات وموتها، مثلاً، يستنفدان قسطاً من أوقاته الشاغرة. وكان كلّ يومٍ جديدٍ يحمل معه، في اشتداد برد الخريف، مزيداً من الحشرات الميتة التي تسقطُ على ظهورها في البداية ولا تستطيع أن تنقلب، فتهتاج وتتخبّط ثمّ تموت. وذات مرّة رأى نحلة، كانت عاجزة عن الطيران، تحوم قليلاً ثمّ تهوي، وتحاول تكراراً ثمّ

تهوي وتموت . وكان شيامورا يرى أنها ميتة هائثة تلك التي يسوقها
تبذل الفصول . إلا أنه حين يراقبها عن كثب ، كان يرى قوائمها
وزبانياتها تهتز في صراعها المؤثر ، في صراعها الأخير من أجل الحياة .
وكم كان مصرعها رحباً ، واسع الأرجاء ، تلك الحشرات الميتة .
الضئيلة الحجم : الحصائر الثماني التي تغطي أرضية غرفته !

كان يحدث أحياناً ، إذ يلمّ بعض الحشرات الميتة لرميها خارج
الغرفة ، أن تراوده خاطرة عابرة بشأن أولاده الذين خلفهم في
طوكيو .

وعلى الشبكة المعدنية التي تغطي نافذته علقت فراشات ليل ،
ساكنة بلا حراك ، ثم بعد وقت ، سقطت مثل أوراق يابسة . وبعضها
مكث جاثماً على الحائط ثم لا يلبث أن ينزلق ويسقط . وإذ يقف
شيامورا متأملاً حشرة ميتة في راحة يده ، تستغرقه الأفكار العميقة
التي لا نهاية لها حول الثراء الباذخ لتلك الحيوانات الهشة وجمالها اللذين
إلى زوال .

ثم حان الوقت الذي تنزع فيه الشبيكات من أطر النوافذ وتخفت
جلبة الانشاد يوماً بعد يوم ، وتتباعد مواقيت الصرصرات الحادة
 وأنواع الطنين المختلفة والحفيف الخافت لجنس المجنّحات الهشة .

كانت صُهبة الصدا ودكنة المسوح المقطبة ، تكسوان رويداً سفوح
الجبال ، وما عادت القمم لتتألق ، في الغروب العاجل ، بغير ألوان
الحجر الرمادية الباردة .

كان النزول لا يزال غاصاً بالزائرين الذين توافدوا هرعاً لمشاهدة
غابات شجر القيقب .

«أعتقد أنني لن أستطيع المجيء لاحقاً. هناك أمسية يُقيمها أهل البلدة».

كان ذلك ما قالته كوماكو قبل أن تغادره، وأصبح بإمكانه أن يسمع صخب المحتفلين في قاعة المآدب يتخلله صياح النساء الحادّ. كان الاحتفال، على ما يبدو من صخبه، على أشده، عندما فوجيء شيامورا بصوت، كأنه انبعث من تحت مرفقه، ويسأله بنبرة عذبة: «أتسمح لي بالدخول؟» فانفض للمباغثة. كانت يوكو تقف هناك. «لقد أوكلت إليّ كوماكو أن أسلمك هذه».

ومدّت يوكو يدها بالرسالة كأنها مجرد ساعي بريد. ولكنها استدركت في اللحظة الأخيرة أصول اللياقة، فسارعت إلى الركوع قبل أن تسلّمه الرسالة. وخلال انهماكه لثوانٍ في بسط الورقة المطوية مرتين كانت يوكو قد غادرت. ولم يتسنّ له حتى أن ينبس بحرف واحد.

«أمسية حافلة وصاخبة. الشرابُ سيل».

كان ذلك كلّ ما تضمّنته الرسالة التي اكتُتبت دون اعتناء على قصاصة ورقٍ وبيدٍ تغالب السكر.

ولم تنقض عشر دقائق حتى جاءت كوماكو بنفسها:

«هل أحضرت لك شيئاً؟»

- أجل.

- حقاً؟ قالت وفي عيناها بريقٌ مُكرٍ وابتهاج. آه، لو تدري كم أنا سعيدة! ذلك الساكي الرائع! لقد قلتُ لهم إنني ذاهبة لأطلب المزيد

من الساكي ثم تسللت إلى هنا. لكنّ البواب رآني. سيّان عندي وما عدتُ أبالي بقطعة الأرضية الخشبية. فلينمّوا ما طابت لهم النيمة. تَبّاً! ما أن أصل إلى هذه الغرفة حتى أشعر بأنني ثملة. تَبّاً وتَبّاً! سأعود إلى عملي.

- عقيمة وشهية حتى طرف الأظافر! قال شيامورا.

- الواجب يناديني. الشغل. العمل. هل قالت لك شيئاً؟ يا لفضاعة الغيرة! أتدرك فضاعة الغيرة؟

- مَنْ تقصدين؟

- سيقتل أحداً ما ذات يوم؟

- أهي تعمل هنا؟

- هي التي تتولّى إحضار الساكي. ثم تمكث هناك تحدّجنا بتلك النظرات المكهربة. عيناها، أحسب أنك مُعجَبٌ بعينيهَا... .

- لا بدّ أنّها تحسب أن ما تفعلينه عارٌ عليك.

- ولهذا السبب أيضاً رجوتها أن تسلّمك تلك القصاصة. ماء، أرجوك أعطني كوباً من الماء. ولنّ العار، أسألك؟ ولكن قبل أن تجيبني حاول أن تغويها قليلاً!

ثم استدارت ودنت من المرأة حيث وقفت مُسندةً كفيها بقوة إلى طاولة الزينة. «أتراني ثملة؟»

وبعد لحظات أبعدت طرف الكيمونو الطويل بحركةٍ من رِجلها وغادرت.

بعد انتهاء الاحتفال عاد الهدوء ليسودَ في أرجاء النزل. وكان

شيامورا يُصغي بأذنٍ ساهية فلا يسمع إلا جلبة نقل الأثاث والأواني
ناحية غرفة الخدمة. وخطر له في آخر الأمر أن كوماكو لا بد أن
تكون رافقت بعض المدعوين إلى سهرة أخرى. وفي تلك اللحظة
وقفت يوكو بالباب حاملة رسالة أخرى.

«قررتُ لا أذهب سامسوكان من هنا إلى «صالة البرقوق» أمر بك
ربما حين عودتي عم مساءً».

تكلّف شيامورا ابتسامة صفراء لشدة ضيقه من حضور يوكو.
- شكراً لك، قال لها. هكذا إذاً، أتأتين للمساعدة في الخدمة
هنا؟»

رمقت شيامورا بعينيها المتوقدتين. نظرات حادة جميلة شعر بأنها
تنفّذه إلى الأعماق. فتعاطم إحساسه بالضيق.

فلمجرد أن يرى أمامه تلك الفتاة التي كلما التقاها أثارت في أعماقه
مشاعر دفينّة، كان شيامورا يشعر بما يُشبه الضيق، بقلقٍ غامضٍ لا
يعرفُ سبباً له. فهي تبدو له، في سُحنة الوقار التي لا تفارق وجهها،
وكأنها تقفُ دائماً عند أشدّ العقْدِ غموضاً وإشجاءً في مأساةٍ عظيمة.

«أحسبُ أنهم يستغلّون وجودك هنا على أفضل وجه.
- لستُ بذاتِ نفعٍ كبير.
- ألا تجدين أنه من المستغرب أن ألقاك مراراً؟ المرّة الأولى كانت
أثناء سفرك في صحبة ذلك الفتى، وعند توقّف القطار تحدّثتِ إلى
ناظر المحطّة عن شقيقك، أتذكرين؟
- أجل.

- وقيلَ لي إنَّك تحبين الغناء أثناء استحمامك قبل أن تأوي إلى فراشك.

- وكيف عرفت ذلك؟ أياكون القصدُ من ذلك أنني أسيء التصرف؟»

كان في روعة ذلك الصوت ما يُذهل.

يُخالجني شعورٌ بأنني أعرفك جيداً.

- آه! حقاً؟ الآنَّك سألت كوماكو؟

- كوماكو؟ كوماكو لا تتحدَّث عنك. وأحسبُ أنها تتجنب الخوض في أي محادثةٍ بشأنك.

- أدركُ ذلك، بلى، قالت يوكو التي لم تلبث أن استدارت قائلةً: «إنها فتاة طيبة، كوماكو، ولم تحظ بحياة سعيدة. عاملها بلطف».

كان كلامُها لا يخلو من بعض الانفعال والتأثر وصوتها يتهدج قليلاً.

- ماذا أصنع لأجلها؟ ليس في طاقتي أن أصنع شيئاً، صدَّقيني، قال شيامورا وقد بدت له موشكةً على الارتجاف لشدة توترها وارتباكها. ثم أغضى قبل أن يفتنه البرقُ الذي سيومض من ذلك الوجه الصارم.

«الأجدر بي أن أعود في أسرع وقت إلى طوكيو، قال مبتسماً.

- أنا أيضاً أريد الذهاب إلى طوكيو.

- متى؟

- ذات يوم، لا أعرف متى بالضبط.

- وهل سأراك هناك، في طوكيو حين أعود إليها؟
- بل يسرني أن أراك».

وإذا أربكه ما تضمّنته عبارتها تلك من وقارٍ شديدٍ برغم نبرتها
العادية التي لم تُخرج عن نطاق المألوف، سارع شيامورا إلى القول:
«هذا طبعاً إذا كانت أسرتك لا تمنع.

- ليس لديّ من الأسيرة سوى شقيقي الذي يعمل في السكّة
الحديد، أجابت. أنا أفعل ما يحلو لي.
- ألدك ارتباطات في طوكيو؟
- لا.

- أحسب أنك أخبرت كوماكو بهذا الأمر!
- كوماكو؟ علاقتي بها ليست ودّية. ولم أكلّمها. بهذا الشأن».

كانت نظرات دامعة تلك التي رمقته بها، ومنّ يدرى؟ ربّما كانت
أمانة على استسلامها الوشيك؟ وكان شيامورا، مفتوناً بها يرى أنها
ذات جمالٍ غامض ومُريب. ولكنّ في الوقت نفسه كانت تغمره
مشاعر الحنان نحو كوماكو. أليس رحيله في رفقة تلك الفتاة الغريبة
الاطوار إلى طوكيو، كما لو أنّه يُخطفها، نوعاً من الكفّارة، من العقاب
الذي يفرضه شيامورا على نفسه لكي يعتذر إلى أقصى ما في
الاعتذار، لكي يسأل، إلى أقصى ما في السؤال، غفران كوماكو؟

«ألا يُخيفك أن ترحلي بمفردك في رفقة رجل؟

- ولم أخاف؟

- ألا ترين أنّ في الأمر بعض المخاطرة، كأنّ تصلي إلى طوكيو دون

أن يكون لديك مكانٌ تقيمين فيه أو حتى مجرد أي فكرة عما قد تفعلينه هناك؟

- بإمكان المرأة أن تتدبّر أمورها في مطلق الأحوال. أكدت له بصوتها الذي تصدح فيه رنة التلهف العذبة. وإذا رفعت عينيها وحدّقت في عيني شيامورا، سألتها: «ألا تريدني أن أعملَ لديك كخادمة؟».

- ماذا؟ هيّا! أتقولين: خادمة؟

- أجل. ولكن لا أريد القيام بالأعمال البيّنة.

- وخلال إقامتك السابقة في طوكيو كيف كان عملك؟

- كنتُ ممرضة.

- ممرضة في مستشفى أو كتلميذة في معهد التمريض؟

- كنت أظنّ ببساطة أن المهنة قد تستهويني.

ابتسم شيامورا، فقد وجدَ في كلامها ما يبرّر تلك العناية الفائقة التي أحاطت بها ابن أستاذة الموسيقى أثناء رحلتها في القطار.

«أما زلتَ تريدان أن تكوني ممرضة؟ سألها في حيرة.

- لا، ليس بعد.

- ولكن ينبغي أن تُصمّمي على خيار ما. إذا لا يُعقل أن يترجّح الأمرُ إلى الأبد. فالمرء لا يستطيع أن يحيا دائماً في حالة من التردّد.

- التردّد؟ لكنني لست متردّدة على الإطلاق. المشكلة ليست هنا!

وكانت تضحكُ حقّاً، كأنّها تستعين بالضحك لدفع اتهام شيامورا عنها.

ضحكة واثقة وعذبة، كصوتها الذي يبدو على الدوام مكتنفاً

بأماكن بعيدة لامتناهية، كأنه منبثق من العزلة. ضحكة ليست مدوية أو قوية، بل كأنها بعد أن تنطلق وعبثاً تقرع باب قلب شيامورا تعود إلى كنف الصمت.

«لا أرى في الأمر ما يُضحك.

- بلى، بلى. فهناك رجلٌ واحد استطعت أن أبذل له كلَّ الرعاية فعلاً، قالت موضحةً فيما مكث شيامورا مجدداً في حالة ذهول. والآن أصبحت عاجزة عن بذل ما بذلته، أردفت يوكو قائلةً بصوت خفيض.

- أفهم ذلك، قال مُرتبكاً لإحساسه بالمفاجأة. يزعمون أنك تزورين المقبرة باستمرار.

- هذا صحيح.

- ولن يكون في حياتك المتبقية من تبذلين له العناية؟ ومن تزورين قبره؟

- أبداً. على الإطلاق.

- إذاً كيف يسعك أن تغادري المقبرة وتهجري القبر للذهاب إلى طوكيو؟

- أنا آسفة، ولكن أتوسل إليك: دعني أرحل برفقتك.

- كوماكو تقول إن غيرتُك فظيعة. ألم يكن الشاب خطيبها؟

- يوكيو؟ لا، غير صحيح. كذب. غير صحيح!

- ولكن بلى، أنت لا تحبين كوماكو؟ لماذا؟

- كوماكو... همت تقول وكأنها تخاطب شخصاً آخر في الغرفة

فيما نظراتها المتوقدة ترمق شيامورا بشتات. كوماكو، عاملها بلطف!

- لا أستطيع شيئاً لأجلها.

كانت عيناها مليئتين بالدمع ، وفيما تكتُم نحيبها مَعَسَت بِقَدَمِهَا
فراشةً صغيرةً فوق الحَصيرة .

«تقول كوماكو أنني سأصبح مجنونة!» قالت بنبرة خاطفة قبل أن
تغادر الحجرة .

مكثَ شيامورا لبعض الوقت لا يتمالك رعدةً سرت في أوصاله .
ثم نهض وفتح النافذة ليرمي الفراشة الميتة . فوقعت عيناه على كوماكو
مُترنحةً من السكر تُبادلُ أحد الزبائن أحاديث اللياقة المهنية . كانت
منحنية إلى الأمام حتى تكاد تفقد توازنها ، كأنها تبذل ما في وسعها
للتملص من أمسية أخرى . كانت الغيوم تحجب السماء كلها . فغادر
شيامورا غرفته لكي يستحم .

كانت تُحدّثها بصوتٍ خفيضٍ مُفعمٍ بالرقّة وحنان الأمومة وتنزّع
عنها ملابسها لتغسلها . صوتُ أمّ شابةٍ شجيّ النبرات رقيقها لا يبدّل
الغناء من رَقَّتِه شيئاً :

أترى هناك ، هناك ، هناك
ثلاث شجرات أرز ، ثلاث شجرات إجاص ،
مجموعها ستّ شجرات ، أتراها؟
تحتها أعشاشُ غربان
وفوقها أعشاشُ الدواري .
أ يكون لديها أغنية جديدة :
هاكامايري

إيتشو، إيتشو، إيتشويا(*)

لم تكن الأغنية سوى دَوّارة كتلك التي تنشدها الفتيات الصغيرات
أثناء لعبهنّ بالكرة، إلّا أن يوكو أضفت على الترنيمة العبثيّة إيقاعاً
مُتسارعاً وحيّاً ما جعل شيامورا يسأل نفسه إذا كانت يوكو الأخرى
التي رآها ليست سوى فتاةٍ في حلم.

واصلت ثغثغتها الحنون مع الطفلة وألبستها ثيابها ثمّ، يداً بيد،
غادرتا الحمام. مكث شيامورا لبعض الوقت كأنّ تمّوج الصوت لا
يزال يصدح في الأرجاء كالصدى المتطاوّل الذي يخلفه نغم المزمّار.

على الأرضية المصقولة للرواق العتيق رأى شيامورا علبةً لآلة
ساميسن تركتها هناك إحدى فتيات الغيشا: بدت في عينيه كتابوتٍ
صغير يُجسّد عبّرةً ذلك الخريف المتريّث الغارق في أعماق سكّناّت
الليل. وما أن دنا منه شيامورا قليلاً ليقرأ اسم صاحبة العلبة حتى
خرجت كوماكو بغتةً من المكان الذي تصدر عنه جلبة غسل الأواني.
- ماذا تفعل؟

- أكانت ستقضي الليل هنا؟ سأل شيامورا.

- من تقصد بـ «كانت»؟ لا تكن غيبياً! أوتظنّ فعلاً أننا نحمل
هذه الآلات معنا حيثما ذهبنا؟ إننا نتركها في النزل حيث تبقى أحياناً
مركونةً فيه لأيام طويلة.

(*) إيقاع نغمي يُحاكي انشاد الطيور ويعني حرفياً: «مئة متر نحو المقبرة، ومئة
أخرى، ثمّ مئة وها قد وصلنا».

كان جوابها مصحوباً بضحكاتٍ لا تتما لكها ولكنها سرعان ما
أغمضت عينيها وبدأ وجهها مقطباً مشدود القسما .

«هلاً رافقتني إلى النزل؟

- لستُ مرغمة على العودة، أليس كذلك؟

- بلى، يجب أن أذهب . لقد غادر الجميع إلى أمسياتٍ أخرى .

لذلك ليس علي أن أمكث لوقتٍ طويلٍ هنا حيث لديّ من القاه .

غير أنهم سيعاودن القيل والقال إذا خطر هنّ مثلاً أن يصطحبني إلى
الحمام في طريق عودتهن ولا يجدني في المنزل» .

وبرغم ترنحها لشدة السكر استطاعت أن تهبط الطريق نحو البلدة

برشاقة وخفة .

«- لقد أفلحت جيداً في أن تدفع تلك الصغيرة، يوكو، إلى

البكاء! قالت له معاتبة .

- لقد لاحظت أنها مُحتلة العقل قليلاً؟

- وأنت، أيستهويك مثل هذا النوع من الملاحظات؟

- ولكن، أنسيت أنك أنت من قال هذا؟ والحقيقة أنها لم تذرف

دموعها إلا عندما تذكرت قولك، وهناك ما يجعلني أعتقد أنها بكت

حقداً عليك وليس لما أحسّت به من الأسى .

- آه! هكذا إذاً، يروفي هذا التفسير .

- بآية حال، بعد أقل من عشر دقائق كانت في الحمام تغني بصوتٍ

ولا أعذب .

- لطالما استهواها الغناء في الحمام .

- لقد أوصتني أيضاً وبوقار لا يوصف أن أعاملك بلطف .

- يا لغبائها؟ ولكن ما حاجتك لأن تخبرني كل هذا؟
- ولماذا تسألين؟ وأنت لماذا تغضبين ما أن يرد ذكرها في أحاديثنا؟
- ألا تشتهي أن تناها؟
- أرايت، مثل هذا صنيعك! مع أنني لم أقل شيئاً يدفعك إلى مثل
هذا الكلام.

- أنا جادة فيما أقول، قالت كوماكو بإلحاح. عندما أراها أشعر
كأنها عبء يثقل كاهلي ولا أستطيع التخلص منه. مهما قلت، على
الأقل هذا ما أشعر به. وإذا كنت تكن لها شيئاً بالفعل فحاول أن
تنظر إليها جيداً ولو مرة واحدة: وعندئذ ستدرك معنى كلامي.

وإذ فرغت من كلامها وضعت كوماكو يدها على كتفه وانحنت
قليلاً ثم صرخت بغتة:

«لا، لا! ليس هذا!... فلو أنها وقعت على أحدٍ مثلك فربما
نَجَّت من الجنون. هذا العبء، هلاً أزحته عن كاهلي؟

- ألا تبالغين بعض الشيء؟
- أنت تحسب أنني ثملة وأتكلم جزافاً، ولكن هذا غير صحيح.
لو أنني أطمئن إلى أنها أصبحت بين أيدي أمينة، وأني، أخيراً، سأقدر
أن أواصل عيشي الضئيل هنا مُتحررة من عبئها، لكان ذلك منتهى ما
أرتضيه من العيش!
- كفى!

- أوه! دعني وشأني!»

كانت قد ابتعدت عنه راكضة ثم ألقت بنفسها على باب منزلها
المغلق.

«ربما حسبوا أنك لن تعودى هذه الليلة .
- لا بأس . أعرف كيف أفتحه» .

طقطق الباب العتيق وأصدر أزيزاً عندما رفعته كوماكو قليلاً
لتحرير المزلقة كيما تفتحه .

«ادخل لترافقني إلى الباب الداخلي .
- أنسيّت كم الساعة الآن .
- وما الفرق؟ كلهم نيام» .
مكث شيامورا متردداً .

«ولاً رافقتك أنا إلى النزل .
- سأعودُ بمفردي ، لا داعي لذلك .
- ولكنك لم ترَ غرفتي بعداً!»

دخلا واجتازا عتبة الحجرة حيث ينام أفراد الأسرة كلهم فوق
مرتبات دقيقة فرشت على الأرضية في كل اتجاه: أخيلة مكومة فوق
مرتباتٍ عتيقة خيطة من القطن الريفي الخشن . كانوا هناك ، تحت
كُمة المصباح الشائطة في مواضع منها ، الأب والأم وخمسة أولادٍ أو
ستة ، أكبرهم في السادسة عشرة على الأكثر . وبرغم ما قد يثيره ذلك
المشهد من إحساسٍ بالفقر المدقع فإن ثمة ما يوحى ، وراء المظهر ،
بدقي من العافية الزاخرة بالحياة ، كامنة في انتظار أن تطلق .

وإذ لفحت وجهه أنفاسُ النائمين الحارة ، أراد شيامورا أن يعود
أدراجه نحو الباب فأغلقت كوماكو على مهل وسارت قُدماً حتى طرف
الحجرة دون أن تُداري وقع خطواتها . فتبعها شيامورا على رؤوس

أصابع قدميه مُسرِعاً ينقل خطواته في حذرٍ بين الوسادات التي استلقت عليها رؤوس الأولاد النيام. كان يشعر بضيقٍ غريب وقد أطبق على صدره.

«انتظر، سأصعدُ لأشعل النور.

- لا، شكراً. سأتدبّر أمري».

وراح يصعد درجات السلم في العتمة المطبقة. وفيما كان يلتفت إلى الوراء وقعت عيناه على دكة السكاكر مباشرةً بمحاذاة غرفة نوم العائلة.

في الحجرات الأربع المفرطة في بساطتها التي تتألف منها الطبقة العليا، كانت الحصائر أكثر من بالية.

«أعترف أن المكان أوسع من أن يُخصّص لسكن شخصٍ واحد،
«قالت كوماكو.

كانت الحواجز الفاصلة بين الحجرات قد نُزعت، وعند طرف الغرفة، بعيداً جداً عن الأبواب المتحركة ذات المربعات الورقية المصفرة والمفضية إلى الرواق الخارجي، كان فراش كوماكو يبدو مستوحداً وضئيلاً. في الحجرة الداخلية أكوام من الأثاث المنهوك والحوائج العتيقة التي لا يمكن إلا أن تكون مُلكاً للعائلة المضيضة. وعلى الإطار البارز علقت كيمونوات كوماكو المخصّصة للمناسبات. وكان المشهد في مجمله يذكر شيامورا بجحرٍ غريبٍ أو ثعلب.

بعد أن جلست كوماكو على طرف فراشها الصغير، ناولت شيامورا أريكتها الوحيدة. ثم انحنت قليلاً قبالة المرأة وقالت:

«أرى لوني قرمزيًا! ألهذا الحُدَّ أفرطت في الشراب؟»

وراحت تنقر صفحة المرآة بإصبعها لبعض الوقت.

«خُذ! هذه يومياتي.

- أحسبُ أنها مجلّد ضخم». قال شيامورا وهو يزن الرزمة بكفه.

كانت قد فتحت علبة كرتون عبثت بالسكاثر حتى الحافّة.

«بما أني أدسّها في كمّي أو تحت الأوبي عندما يقدمونها لي، فقد تجد بعضها مدعوكاً، لكنّها سليمة. وللعوض لديّ من كافّة الأنواع. تشكيلة كاملة.

وفيما كانت تتابع كلامها راحت ترجّ العلبة قليلاً لكي يتسنى لشيامورا اختيار التبغ الذي يعجبه.

«ولكن ليست لديّ أعواد ثقاب، فاعذري. لقد أقلعت عن استعمالها بعد إقلاعي عن التدخين.

- لا بأس، شكراً. وكيف تتدبّرين أمور الخياطة؟

- أحاول أن أزاول الخياطة من وقتٍ لآخر، ولكنّ توافد السيّاح في موسم القيقب بات يستنفد أوقاتي كلّها!»

وفيما كانت تتابع كلامها مالت قليلاً لتُبعد أدوات الخياطة والقماش من أمام الخزانة.

كانت قطعة الأثاث المصنوع من خشب صقيل وعلبة الخياطة المزركشة باللكّ الأحمر اللتان احتفظت بهما من عهد إقامتها في طوكيو، تبدوان هناك كما كانتا في العلّة التي تشبه صندوقاً من الورق

العتيق . إلا أنّها إذا وضعتا في تلك الشقة ذات الحجرات البائسة في الطبقة العليا من منزل ريفي جداً، لم تُضفيا على بؤس المكان إلاّ المزيد من مظهر التنافر.

كان يتأمل الشريط الذي يتدلّى من الحائط فوق وسادتها.

«هذا لكي أطفئ النور عندما أقرأ في الفراش» قالت له موضحةً وقد أمسكت بالشريط وجذبتة نحوها لكي تشرح له كيف يعمل .
وبرغم كلّ ما أبدته من براعةٍ في دور سيّدة الدار اللطيفة والبارعة في مجاملة الضيوف، فإنّها لم تُفلح، مع ذلك، في التغلّب على بعض الضيق الذي أصابها.

«يبدو لي أنّك تقيمين في الحجر الذي لا يلائم طباعك تماماً كأنثى الثعلب في حكاياتنا الخرافية: فترُفك يُصبحُ خرافياً في كنفِ هذا الفقر.

- بلى، بالضبط.

- وتعتزمين قضاء أربع سنوات هنا؟

- لقد مضت سنة منها تقريباً، والسنوات الأخرى ستمضي بسرعة» .

كان إحساس شيامورا بالخرج يتعاظم أكثر فأكثر. ماذا يقول بعد؟ وبدا له أنّه يسمع أنفاس أفراد الأسرة النائمين في الطبقة السفلى. فنهض لكي يُنهي زيارته.

راحت كوماكو التي لم تغلق الباب وراءه، تحدّق في السماء.

«لقد بدأت تهبّ نسائم الثلج، قالت. إنها نهاية أوراق القيقب» .

ثم اجتازت بدورها عتبة المنزل مُرددةً في كنف الليل أبيات شعرٍ
حفظتها من مسرحية كابوكي (*) :

لأننا هنا وسط الجبال
يتساقط الثلج ولم تتساقط بعدُ أوراق القيقب كلها
فتمنّى لها شيامورا ليلة طيبة .

«- انتظر لحظة . سأرافقك إلى النزول . حتى الباب ، وليس أبعد! .
مع ذلك ، رافقته إلى غرفته .

«هيا استلقِ في فراشك ، قالت له ثم غابت لبعض الوقت وحين
عادت كانت تحمل بيديها قدحين من الساكي مُترعين .

- قدح صغير ، قالت فور دخولها . سنشربُ قدحاً صغيراً .

- ألا ينامون في هذا النزول؟ أين وجدتِ هذا؟

- أعرف أين يضعون الساكي .»

لا بدّ أن كوماكو شربت أثناء سكبها الشراب من البرميل . فقد
عاودتها حالة السكر ، وبعينها شبه المغمضتين راحت تتأمل السائل
المسكر يسيلُ على يدها .

«ومع ذلك ، ليس مُمتعاً أن تشرب في العتمة!»

(*) يُعدُّ مسرح الكابوكي ، إلى جانب النو والجوروري ، من الأنواع الكلاسيكية
في المسرح الياباني . ازدهر في القرن التاسع عشر ، وما زال يُلاقى إقبالاً
شعبياً كبيراً .

تناول شيامورا طائعاً القدح الذي قدّمته له وشرب.

كانت مثلُ تلك الكميّة القليلة من الساكي لا تُسكره في العادة؛ ولكن ربّما كان ذلك بسبب البرد الذي أحسّ به في طريق عودتهما. لذلك ما أن شرب قدحُه حتى ساءت أحواله. دُوار وغثيان ورعدة سرت في أوصاله وشحوب. أغمض عينيه وتمدّد على الفراش الوطنيّ. فهرعت كوماكو قَلِقَةً واحتضنته بين ذراعيها فسرت حرارة جسمها في جسمه المريض ومنحت شيامورا إحساساً طفولياً بالراحة والأمان.

كانت تحتضنه بين ذراعيها بالحنوّ المتردّد والخجول الذي قد تبديه في احتضان طفلها أمّ صغيرة لم تُرزق ولداً من قبل. كانت تسند رأسه بساعدها وتدني وجهها منه كأنها تهدّد طفلاً نائماً.

«أنت لطيفة وطّيبة.

- أنا؟ لماذا؟ ماذا فعلت؟ وماذا أكون؟

- لطيفة وطّيبة.

- لا يجدر بك أن تسخر مني» قالت وقد أبعدت وجهها قليلاً، ساهية النظرات. ثمّ راحت تهدّده برفق، وتصاحب حركاتها عباراتٌ قصيرة متقطعة كانت ترددها في شبه ابتسامة كأنها لا تبسّم إلا لنفسها.

«لستُ لطيفة ولا طيبة - كما ليس من السهولة في شيء أن أراك هنا. - الأحرى أن تعودني إلى منزلك. - لطالما أردتُ أن أرتدي كيمونو مختلفاً كلّما أتيتُ لزيارتك، وفي آخر الأمر لم يبق لديّ ما أرتديه. أما هذا فقد استلفته لليلة. إذا! أنت ترى جيّداً أنني لستُ،

أنني لستُ على الإطلاق كما تقول!»

مكث شيامورا صامتاً.

«إذاً، ما اللطف الذي تراه فيّ؟ أردفت قائلةً وقد هدّجت اللهفة صوتها عندما التقيتُك لأول مرةً قلت في سرّي أنني لم ألتقي من قبل رجلاً منفراً مثلك. الآخرون لا يتكلّمون أبداً كما تكلمت أنت. ولا يقولون الكلام الذي قلته. فكرهتُك، كرهتُك!

أشار شيامورا موافقاً.

«والآن، قالت، ربّما تدرك سبب امتناعي عن التلميح بهذا الشأن؟ فعندما يصل الأمر بامرأة ما إلى البوح بمثل هذه الأشياء، فهذا يعني، صدقاً، أنها وصلت إلى أقصى ما في وسعها. - على هذا النحو تكون الأمور على أحسن ما يرام. - حقاً؟»

اكتنفهما الصمتُ معاً: هي، التي بدت غارقةً في أنظارها، وشيامورا الذي يتلذذ بحرارة جسدها المتوقد فيجعل من وطأة حضورها الأنثوي بهجةً للحواس.

- امرأة ممتازة! قال.

- ماذا؟

- امرأة ممتازة.

- يا لغرابة أقوالك!»

كانت قد أدارت رأسها كأنها تريد أن تتخلّص من دغدغةٍ يُسببها ذقن شيامورا المتكّيء على كتفها.

ثمّ بغتةً، ودون أن يعرف لماذا، رفعت رأسها قليلاً وأسندت
جذعها بمرفقها، وقالت مغيظةً مُرتعشة الصوت:

«امرأة ممتازة، إذا؟ ما الذي تقصده بقولك؟ ما الذي تقصده؟»

حدّجها شيامورا بنظراتٍ ثابتة دون أن يجيب.

«اعترف: لهذا السبب جئت! أنت تسخر مني! ولا تبالي!»

كانت ترمقه بعينين متوقّدتين وقد احتقن وجهها غضباً وسرت
رعدة عنيفة في كتفيها. إلّا أنّ ذلك السعير ما لبث أنّ خبا بغتةً
وأعقبته دموعٌ غزيرة بلّلت وجهها الممتقع.

«أكرهك! أوه! كم أكرهك!»

«وإذ تقلّبت مبتعدةً عنه، غادرت كوماكو الفراش وجلست على
الأرضيّة وقد أولته ظهرها.

عندما أدرك شيامورا أيّ خطأ اقترفه أحسّ بما يُشبه الطعنة في
الصميم. فمكث مُستلقياً، صامتاً مغمض العينين عاجزاً عن
الحراك.

«أوه! ما أكبر الضغينة في قلبي» أسرّت إلى نفسها بصوتٍ خفيض
وقد ألقت برأسها على ركبتيها منتحيةً فبدا جسّمها مكوماً مثل كرة.

وعندما ذرفت كلّ ما في مقلتيها من دموع، مكثت هناك، تنقبُ
الحصيرة، بعصبية ظاهرة، بواسطة دبّوس فضيّ كانت قد انتزعته من
تسريحتها العالية. وبعد هنيهات غادرت الحجرة.

لم يكن شيامورا قادراً على اللحاق بها. فقد كانت محقّة في

إحساسها العميق بالمهانة . . .

إلا أنها ما لبثت أن عادت أدراجها، حافية القدمين متأنية في مشيتها لكي لا تحدث أي جلبة .

«ألن تذهب إلى الحمام؟ سألت من وراء الباب بصوتٍ خجول وثاقب .

- إذا شئت

- أعتذر، قالت أيضاً، لقد أخطأت» .

وحين رأى شيامورا أنها لا تريد أن تدخل، التقط منشفة وخرج إلى الرواق حيث مشت أمامه مطرقة كأنها جانحة تقتادها الشرطة .

وما أن دخلا إلى الحمام حتى سرى الدفء في كيانها فاستعادت بشاشتها، لا بل بهجتها، وبدت كعادتها مُقبلَةً على الحياة زاخرةً بالنشاط والحيوية حتى أنها حين عادا إلى الغرفة لم يشعرا أنها في حاجة إلى النوم .

عند الصباح استيقظ شيامورا على صوتٍ يتلو نصّاً من نصوص النو، فلم ينهض بل مكث لبعض الوقت مُصغياً .

التفتت كوماكو التي كانت جالسةً قبالة المرأة، وابتسمت له .

«ضيوف صالة البرقوق» . لقد استدعوني بعد الاحتفال الأول،

ألا تذكر؟

- أليسوا هواة الـ «نو» المسافرين؟

- بلى .
- هل تساقط الثلج ؟
- أجل .

نهضت لتفتح النافذة .

«أنها نهاية موسم أوراق القيقب» قالت .

كانت النافذة تطلّ على سماء رمادية تتساقط منها، نديفات كبيرة الحجم، كأنها أزاهير الفوانيا البيضاء، تهرع إليهما في صمت متناغمٍ وعذبٍ كأنه خرافة . استسلم شيامورا لتلك الصورة، شاغراً من الداخل كما يكون الشغور من داخل بعد ليلة بيضاء .

كان هواة الـ «نو» يصاحبون إنشادهم بقرعٍ على الطبول .

فاستغرقت ذكري ذلك الصباح السالج ، في أواخر العام المنصرم ، والتفت نحو المرأة . كان تساقط الفوانيا الباردة البيضاء يرسمُ في غزارته المتزايدة ما يشبه الهالة المتراقصة حول قامة كوماكو التي تمسح عنقها بفوطةٍ خلل ياقة الكيمونو الحاسرة .

مرةً أخرى أحسّ شيامورا بروعة تلك البشرة النظرة المتعافية ، تلك البشرة البضة والنقية التي تذكّر بنقاء الغسيل الذي يُنشرُ في الهواء الطلق . لا ، لم يكن وهماً من أوهامه أن يرى فيها صورة المرأة التي لا تستطيع إلا أن تشعر بالمهانة العميقة حيال بذاءته ؛ فما استطاع إلا أن يرضخ للحقيقة التي أفعمته حزناً وأسىً .

كان الجبل الذي بدا كأنه يوغلُ مبتعداً إذ بهت ألوان الخريف الصهباء ، قد استعاد ألقه وشموخه تحت الثلج .

أما أشجار الأرز المشحة بغلالة شفيفة بيضاء فكانت تنبت،
شاهقةً، من الأرض المكسوة بالثلوج، لا كتلةٍ معتمة ومتداخلة، بل
منفردة، كل شجرة وظلّها البارز بوضوح.

في الثلج يغزل الخيطُ، وفي الثلج يُنسجُ . والثلجُ هو الذي يغسلُ النسيجَ وينظفه . الصُّنعةُ كُلُّها، بدايةً وختاماً، من الثلج . «نسيج شيجيمي لم يوجد إلا لأنَّ الثلج موجود : فبالإمكان القول إن الثلج هو أصلُ الشيجيمي» ، كما كتب أحدهم منذ زمنٍ سحيق .

لا تنهمك أيادي النساء طوال الأشهر المثقلة بثلوج الشتاء، في بلد الثلوج، إلا بالغزل والنسيج ، وتحويل محاصيل الحقول المترامية على سفح الجبل من القنب إلى قماشٍ خفيف . وكان شيامورا الذي يعرف جيّداً قيمة ذلك القماش ، يبحث في حوانيت طوكيو القديمة عن قِطْعٍ منه لصنع كيمونوات الصيف . وقد أتاحت له صلاته العديدة في عالم الرقص أن يكتشف دكاناً لبيع الملابس العتيقة الخاصة بمسرح الـ «نو» ، واتفق مع صاحبه على أن يكون هو، شيامورا، أوّل من يعلم بوصول قطعة من الشيجيمي الأصلي حالما تقع بين يدي التاجر .

يُحكى أنَّ في الأزمنة الغابرة كانت أسواقُ الشيجيمي التي تُقام بعد ذوبان الثلوج، أي في فصل الربيع عندما تُنزع الشبكيّات الواقية عن نوافذ الشتاء، تستقبل، أناساً يفدون من مختلف المناطق بغية

شراء ذلك القماش النادر، ومن بين هؤلاء تجار الحواضر الأثرياء الذين يقصدونه من إيدو وناغويا أو أوساكا، وكانت لهم مقصوراتهم الخاصة في النُّزل التي تستقبلهم حسب التقاليد. وكان شبَّان المنطقة كلّها بالطبع يهبّطون من السفوح البعيدة بنتاج أشهر العمل الستة الأخيرة. وعندئذ تسود أجواء احتفال حقيقي، فتُعرض في صفوفٍ متراصفة على دكّ البائعين بضائعٌ من كلّ نوع، ويعلو صراخ البائعين الجوّالين، وتُقامُ العروض التمثيلية المختلفة التي يتخلّق الشبَّان والشابات حولها مُحْتَشِدِينَ. كانت أثواب القماش المعروضة تحمل قصاصات ورق كُتِبَ عليها اسم صانعها وعنوانه، ذلك أنّ نهاية الاحتفال تشهدُ مسابقةً لاختيار أفضل انتاج وأكثره اتقاناً. كما أنّ الاحتفال مناسبةٌ للبحث عن طالب زواج ملائم. فالفتيات اللواتي يتعلَّمن أشغال النسيج منذ الطفولة، يُنجزن أفضل انتاجهنّ بين سن الرابعة عشرة والرابعة والعشرين. بعد ذلك يفقدن رشاقة الحركة، وفيها تكمن قيمة نسيج الشيجيمي، التي كانت هنّ من قبل. لذلك تكونُ المنافسةُ على أشدها بين الفتيات اللاتي يعملن بكدٍّ يوازي شغفهنّ طوال الأشهر التي يمكنن فيها حبسات الثلج، أي من الشهر العاشر عندما تبدأ أشغال الغزل، إلى القمر الثاني عندما يتمّ التبييض في الحقول والمروج والجنائن التي يكسوها الثلج.

بعض كيمونوات شيامورا صُنعت من القماش الذي نسجته تلك الأيدي الأنثوية نحو أواسط القرن الماضي على الأرجح، وقد اعتاد هو أيضاً أن يرسلها «للتنظيف»^(*) بواسطة الثلج. وبرغم المشقة التي

(*) للتنظيف والتبييض مفردة واحدة في النصّ، والمؤدى العربي هو إياه. فأكثراً =

يتكبّد غاسلُ تلك الأنسجة القديمة، بعد أن كَسَتْ أجساداً كثيرة، فَحَسْبُهُ أن تترأى له فتيات الجبل المنهكات بنسجها لكي يشعر بالحاجة الملحة لأن تُبَيِّضَ حسبَ التقاليد المتبعة في بلد الثلوج حيث صنعَ القماش وحيث عاشت النساجات العذراوات. ولمجرّد أن يتخيّل ذلك القنب الأبيض الممدود على الثلج والممتزج به لكي يتورّد تحت أشعة الشمس المشرقة، كان شيامورا يشعر بزخم ذلك الإحساس بالطهارة، ليس فقط بأنّ كيمونواته قد خلّفت هناك وخمّ الصيف وودنسه، بل كأنّه هو أيضاً قد تطهّر منها. قد لا يكون البتّة في إحساسه ذاك أكثر من إفراطٍ في ميوله العاطفية التي لا مسوغ لها، لأنّ العملية كلّها تتمّ بواسطة مَغسلٍ متخصص في طوكيو، ولا شيء يؤكد على الإطلاق أن الكيمونوات تُغسلُ فعلاً «بواسطة الثلج» على الطريقة القديمة.

كان الغسلُ «بواسطة الثلج» يتمّ منذ عصور وعصور على يدِ أناسٍ محترفين: فالنسّاجون أنفسهم ليسوا معنيين بذلك. كان غسلُ الشيجيمي الأبيض يتمّ عند الفراغ من نسجه أما القماشة الملوّنة فتُنجز فوراً على الإطار، وقطعة تلو القطعة أثناء عملية النسيج المتواصلة. وأكثر المواسم ملائمةً لمثل تلك الأعمال توافقُ أشهر القمرين الأوّل والثاني. وهكذا كانت المروج والجنائن تتحوّل في تلك الأوقات من السنة إلى مشاغل غسلٍ وتنظيف.

يعمد المنظّفون أولاً إلى نقع الخيط أو القماشة في مياه ممزوجة

= استخدام الأولى حيث مؤدى القول يفيدُ شأناً عملياً. والثانية حيث يفيدُ «الطهارة» التي تلائم مغزى التأمل في كلام شيامورا. (م.ع).

بالرماد طوال ليلة كاملة. وفي الصباح يتم غسلها بالمياه النقية ثم تُعصر جيداً وتُنشَرُ عندئذٍ فوق الثلج طوال النهار، ثم تعاد الكرة يوماً بعد يوم. وفي آخر الأمر، حسب ما كان قرأه شيامورا مؤخراً، وحين يُصبح النسيج ناصع البياض ويتلقّى لمسات شمس الصباح الحمراء، يتجاوز المنظر حدودَ أي وصف. «وعندئذ، يُضيف المؤلف القديم، يتوافد كلّ سكّان الأرياف الشمالية لتأمله». وعندما يُصبح بياضه بياضاً لا شوب فيه، يحلّ الربيع: فقد كان ذلك أمانة حلول الربيع في بلد الثلوج.

والحال أن منتجع المياه الحارة كان يُحاذي المنطقة التي يُنتج فيها نسيج الشيجيمي، نحو سافلة مجرى الشلال حيث تتسع أطراف الوادي بعض الشيء. كانت، في الحقيقة، على مقربةٍ حتى أن شيامورا لو أراد لاستطاع أن يراها من النافذة. وعلى طول الطريق التي تخترق الوادي، أصبح لكلّ بلدةٍ من البلدات الصغيرة التي تقام فيها أسواق الشيجيمي محطة للسكّة الحديد. فلم تفقد المنطقة، في عصر الازدهار الصناعي، موقعها وأهميّتها في إنتاج النسيج.

ولأن شيامورا لا يزور بلدَ الثلوج لا في موسم الصيف عندما يرتدي عادةً كيمونواته المصنوعة من نسيج القنب، ولا في فصل الشتاء، عندما تُنسج قماشة الشيجيمي التي تستهويه كثيراً، لذلك لم يسبق أن تطرّق في أحاديثه مع كوماكو إلى هذا الموضوع. وحتى لو فعل، فماذا عساها تقول ممّا لا يعرفه؟ ثم إنه ليس من طراز أولئك الناس الذين يُبادرون إلى البحث والتنقيب عن بقايا حرفةٍ شعبيةٍ قديمة.

ولكن عندما سمع صوت يوكو تُنشد الأغنية الطفولية في الحمام،
خطر له فجأة أنها لو عايشَت تلك الحقبة، منذ عهدٍ سحيقة،
لأنشدت آنذاك كما تنشد الآن، منكبةً على عملها ترمي المكوك بين
حركتين مزدوجتين للمغزل. ولبدا له صوتها مصاحباً لإيقاع حركات
النساجة كما تصوّرَها له مخيلته.

إن ألياف قنب الجبال الأدق من خيط الحرير الطبيعي لا يُمكن
تصنيعها على ما يبدو إلا في مناخ رطب لا يحلّ إلا مع تساقط الثلوج.
ولذلك يُعتبر الشتاء بلياليه المتطاولة في بلد الثلوج الموسم الملائم
لأشغال النساج المختلفة. ولا يغفل خبراء العصور القديمة عن تفسير
ما يشيعه ذلك النسيج من إحساس بالطراوة، على أنه الأثر الذي
يُخلّفه التناغم التام بين مبدأي النور والظلمة المتوالين؛ فالنسيج الذي
يُنسج في برد الشتاء يحفظ شيئاً من نداوته حتّى في أشدّ أوقات الصيف
قيظاً. بلى، وكوماكو كوّنت، هي أيضاً، من لعبة المبدأين إياهما:
كوماكو التي علّقته بالوثاق الأشدّ، بطراوة تلك الروح وحرارة كيائها
التي تفوقها أثراً.

ومع ذلك لا بدّ أن تخبو جذوة الحبّ الذي يعتمل في كيان امرأة
بلد الثلوج إذا خَبَت جذوتها هي، فلا تخلف في هذا العالم أثراً يدوم
كنسيج الشيجيمي! فعلى الرغم من أن القماش هو الأكثر هشاشة من
بين المنتجات الحرفية الأخرى، إلا أن الشيجيمي الجيّد، إذا توفّرت
له العناية الصحيحة يُحافظ على متانته ورونق ألوانه لنصف قرنٍ من
الزمن على الأقل، ولا يبلى تماماً إلا بعد مضيّ عقود طويلة. كانت
تلك الأفكار تراوّد شيامورا مستغرقاً في تفكيره حول هشاشة الصلات

الحميمة بين البشر، وأمدّها الزائل الذي لا يدوم في الوجود دوامَ قطعة نسيج، عندما طالعتّه بغتةً صورة كوماكو وقد أصبحت أمّاً: كوماكو التي رزقت أطفالاً من صلب رجلٍ آخر سواه! فمكث مذهولاً، لا يتمالك اضطرابه، وأجال نظراته الساهية في الأرجاء من حوله. لا شك، بلى، لا شك في أنّ الإرهاق هو السبب. . .

منذ أن أصبح يمدّد فترة إقامته هناك، كان السؤال الذي يتردّد دائماً: هل نسي زوجته وأولاده. إلّا أنّ السبب الحقيقي في تربيته ليس رغبته في أن يبقى إلى جانب كوماكو أو عجزه عن الابتعاد عنها: بل، ببساطة، لأنّه اعتاد على انتظار زياراتها المتتالية، كان يدرك ذلك جيّداً، كما يدرك أيضاً كلّما عرّض نفسه لإغراءات الاندفاع المتواصلة، ألحّ عليه السؤال عن مصادر الاخفاق فيه، عن التقصير لديه والذي يُثنيه عن العيش، كما تحيا هي، بكلّ ما في العيش من كثافة وامتلاء. كان يمكث هناك، إذا صحّ القول، كيما يتأمل برودته، في غمرة عجزه التامّ عن إدراك سرّ نجاحها في التنكّر لذاتها، في بذل كلّ شيء دون أن تُعطى، في الحقيقة، أيّ شيء في المقابل. ولذلك بات يسمعها ومن أعماق قلبه، كوماكو، كجَلْبَةٍ مكتومة، كثلج يتساقط بصمت على بساط الثلج، كصدى يُنْهَكُ لفرط ما يتردّد بين جدران غرفة خاوية. وبات يدرك أنّه لن يستطيع أن يدلّل نفسه إلى الأبد وأن يستسلم، على هذا النحو، لهدوء من يدلّله.

وإذ مكث شيامورا مُنْحنيّاً فوق وقدة الجمر التي وضعت في غرفته مع الثلجة الأولى، خطر له أنّه، ما أن يُغادر هذا المكان فالأغلب أنّه لن يعود إليه ثانية. كانت المغلاة العتيقة التي استعارها من صاحب

الزل، وهي عبارة عن نُحْفَةٍ صنعت باليد في طوكيو، مُرْصَعَةٌ بالفضة ونقوش أزهارٍ وطيور، تُصدرُ حفيفاً خافتاً أشبه بهبوب النسيم بين الصنوبرات. حتَّى إِنَّه يستطيع التمييز بين صوتين مختلفين: حفيفُ النسيم الجبليّ الذي يتلاعب بأغصان الشجر وهو الأقرب، وحفيفُ يتناهى من بعيد. وآخر، يحمله الحفيفُ الأبعد، كأنه أكثرُ بُعداً، هو رنينُ جرسٍ تكاد لا تسمعه الأذن. أيسمعه حقاً؟ أو أنه لا يسمعه؟ أصغى شيامورا. ومن البعيد البعيد، هناك، حيث يقرع الجرس، تراءت له بغتةً قدمان ترقصان: قدما كوماكو التي ترقصُ على إيقاع رنين الجرس البعيد. فكفَّ شيامورا عن الاصغاء. يجب أن يرحل. لقد آن أوانه.

وفي تلك الأثناء خطر له أن يزور بلد الشيجيمي، ظناً منه أن رحلته تلك قد تسهّل له مغادرته المنتجع الجبليّ إلى الأبد.

كان شيامورا لا يعرفُ أيّ بلدة من بين البلدات المنتشرة في الوادي ينبغي أن يختار. وبما أن وسائل النسيج الحديثة ما كانت لتشير اهتمامه اختار أن يغادر القطار في محطة بدت له منعزلة وشبه مهجورة. ثم سار بعض الوقت قبل أن يصل إلى ما بدا له الشارع الرئيس في بلدة لا بدّ أنها كانت ذات يوم مركزاً لتوزيع البريد.

على جانبي الطريق كانت تتراصف سقائف متقدّمة جداً، وتسندها ركائز مظلّلة ممّرات مسقوفة مزدوجة حيث يسلك العابرون عندما تراكم الثلوج ويصبح عبور الشارع مستحيلاً كانت تشبه بعض الشيء تلك السقائف المائلة المنصوبة في العراء والتي يستخدمها تجّار إيدو القدماء لعرض بضائعهم. أمّا الممرّات التي تمتدّ من عمق

السقائف متراصفة ومتصلة من بيت إلى آخر فكانت تحاذي الشارع من جانبيه. ولكي تُزال الثلوج المتراكمة على السطوح المتلاصقة، يعمد الأهليون إلى رميها في الشارع، أو الأخرى إلى تكديس الثلج فوق جدار من الجليد الذي لا يني يزداد ارتفاعاً طوال أيام الشتاء وقد حُفرت فيه أخاديد أو شبه أنفاق تخترق الشارع بالعرض لكي يُتاح للناس العبور من جهة إلى أخرى.

لم تكن البلدة حيث تقيم كوماكو، في منتجع الينابيع الحارة، لتشبه تلك البلدة وإن كانت هي أيضاً ذات طابع جبلي لا يختلف عن سائر أنحاء بلد الثلوج: فالبيوت في بلدة كوماكو متباعدة ومحاطة بمساحات خالية. لم يرَ شيمامورا من قبل مثل تلك الشبكة من الممرات المسقوفة التي تمتد بمحاذاة الطريق وعبرها كأنها درع تقي المنازل جُرف الثلوج، فاستثارت فضوله فسلكها. كانت الممرات تحت السقائف معتممة ولاحظ أن الركائز التي تسندها بدت مهترئة من أسافلها. وراح في غمرة الظلال الداجية، ناحية البيوت المعتممة، يتخيل ليالي مواسم الشتاء الطوال، حيث أقام جيلاً بعد جيل، أجداد أهل البلدة وساكنوها.

ترأت له الفتيات، جيلاً بعد جيل، يُزاولن الحرفة وينسجن إلى الأبد، سجينات الثلوج المتراكمة. وأدرك أن الحياة التي عشقها لم تكن مُشرقة وناصعة كنسيج الشيجيمي الذي ينضج نقاءً ونداوة والذي نسجته بأيديهن الحاذقة. فقد أوضح مؤلف الكتاب القديم الذي قرأه شيمامورا، وبعد أن ألمح إلى نص قصيدة صينية. أن صناعة نسيج الشيجيمي، ونظراً لجور القوانين الاقتصادية وحجم

الجهد المبذول في نسج كل قطعة منه، لا يمكن أن تكون عملاً مجزياً. فلا يمكن إلا أن تكون مجرد حرفة عائلية ولا يستطيع أي حرفي في هذا المضمار أن يستخدم عمالاً من خارج أسرته.

هكذا هلك كل الأيدي المغفلة بعد كدّها المشابر، ولم يبق إلا صنيعها: ذلك الشيجيمي النادر الذي يُشبع نزوات بعض الخبراء المرهفين أمثال شيامورا، لنداوته العذبة التي تحفظ الجلد من قيظ الصيف. وبدت له تلك الخاطرة، برغم بساطتها، أشبه باكتشاف جوهريّ مثير. فالعمل الذي يبذل القلب فيه غاية شغفه أين يودع مغزاه ومتى؟ ولمن سيهب شجاعة الكدّ إياه، واندفاعه الإلهام إياه؟

على رَسْم طريق البريد التي عرفتْها عصور أخرى، كان شارع البلدة الرئيس، يترامى، وفق خطّ مستقيم، عبر البيوت المتباعدة أكثر فأكثر ليصل، بلا ريب، إلى بلدة كوماكو وينابيعها الحارة. وهنا أيضاً كانت السطوح المبنية من قَدَدِ تنوء بثقلِ الحجارة التي يعرفها جيداً

وإذ لاحظ أن ركائز السقائف تُلقى ببعض ظلالها على الأرض أدرك شيامورا أن النهار شارف عصره. لم يبق هناك ما يراه فاستقل قطاراً أوصله إلى محطة أخرى حيث وجد بلدةً مشابهة. فمشى في ممرّاتها وتوقف، حين أحسّ بالبرد، ليلتهم طبقاً من الاطريّة في حانوتٍ متواضع عند ضفة نهر لا بدّ أن يكون امتداداً لمجرى الشلال الذي يتدفّق من المنتجع. ثم رأى على الجسر، جمهرةً تبتعدُ من الرؤوس الحليلة في صفّين أو ثلاثة: راهبات بوذيّات ينتعلن جميعهن صنادل من القشّ، وعلى ظهور بعضهن تدلّت قُبعة مستديرة مقرّنة وقد جُذلت من القشّ هي أيضاً. لا بدّ أنهن في طريق عودتهن إلى

الدير بعد طوافٍ، كما يخلق الغرابُ قبل أن يهبط إلى عشه .

«إنه موكب طوافٍ حقيقي!» قال شيامورا

فأجابت المرأة صاحبة الحانوت :

«الدير هناك، على السفح . أحسبُ أنه طوافهن» الأخير . فما أن تساقط الثلوج حتى يصبحهن أسيرات الدير لا يبارحنه» .

فوق الجسر تعلو قمة الجبل يدجّيها المغيبُ وقد توجهها أولُ الثلج ببياضه .

ما أن تساقط أوراق الشجر التي تعصف بها الرياح الباردة العتية، في بلد الثلوج، حتى تصبح النهارات مروحةً لتلاوين الرماديّ غائمةً يكتنفها الصقيع . كأنّ الثلج في الهواء . وتبيضُ حلقة الجبال المحيطة إذ تكسوها الثلجة الأولى ويُسمّيها الأهلون آنذاك «قبة القمم» . وعلى طول الساحل الشمالي يجأر بحر الخريف ويهدر، كذلك الجبال هنا، في وسط البلاد، مُطلقةً تأوهاتٍ كأنها قصفُ رعدٍ بعيد . ويُسمّيها الأهلون «ضوضاء الأعماق» . وقبة القمم وضوضاء الأعماق، حسب الكتاب القديم الذي قرأه شيامورا، يُنذران بحلول موسم الثلوج الكثيفة ويسبقانه بوقتٍ قصير .

وإذ شهد تساقط النديفات الأولى، في ذلك الصباح عندما أيقظه غناء الـ «نو»، راح شيامورا يسأل نفسه إذا كان الهدير المنذر بالثلوج قد سمع في أنحاء الساحل والجبل . الآن حواسه قد تصفّت لذول إقامته في رفقة كوماكو الأنثوية وحدها؟ وأصبح مجرد التفكير في تلك الأصدااء كافياً لأن يسمع ضوضاء قصفٍ هائلٍ في باطن أذنيه .

«أحسبُ أنَّ الثلوج تسدّ منافذ الدير كلّها طوال أيام الشتاء . كم عددهنّ؟

- عددهنّ كبير، قالت المرأة .

- وبماذا ينشغلن لتمضية الوقت، كلّ الوقت الذي يقضينه حبّسات الدير والثلوج؟ ألا ترين أنّه من الأفضل أن ينهمن بنسج الشيجيمي؟»

واكتفت المرأة بأن تردّ بابتسامة على سؤال الغريب .

في المحطة مكث شيامورا ينتظر القطار نحو ساعتين . كانت شمس الشتاء الخجولة قد غربت وبدت السماء الداجية صافية الاتساع حتّى كأنّ نجومها لمعت حديثاً فتألّقت ببريق لم تعهده من قبل . أحسّ شيامورا بالصقيع يُجمّد قدميه .

عند وصوله إلى منتجع الينابيع الحارّة كان شيامورا قد نسي تماماً لماذا غادره وما الذي كان يبحث عنه في رحلته تلك . فاستقلّ سيارة أجرة أعادته، على الطريق نفسه، إلى البلدة . وفيما كانت السيّارة تعبر شارعها الرئيس لمحّ أنواراً لامعة عند غيضة الأرز، فسرت في كيان شيامورا دفقات من الإحساس بالدفع والطمأنينة . كيكومورا : مطعم كيكومورا، وأمام الباب وقفت ثلاث أو أربع فتيات غيشا يتبادلن أطراف الحديث . عبرت السيّارة مسرعةً إلّا أنّه وجد، في العبور الخاطف، متسعاً لأن تراءى له كوماكو في صحبتهنّ، ثمّ أصبح لا يرى سواها .

خفّف السائق من سرعته فلا بدّ أنّه يعرف، هو أيضاً، شيئاً عن حكايتهما .

أدار شيامورا وجهه لينظر عبر الزجاج الخلفي . كانت آثار
العجلات ظاهرة على الثلج لامعة تحت أنوار النجوم السائرة نحو
البعيد، هناك، حيث تتلاشى وتغيب.

كانت السيارة تسير على مهل بمحاذاة كوماكو. وفجأة أغمضت
عينها وارتمت على السيارة التي تابعت سيرها على مهل، فيما تشبّثت
المرأة بمقبض الباب وقفزت واقفة على المرقاة.

بدت كوماكو حين ألقت بنفسها على السيارة في وثبة لبوة كأنها
تستجيب لاندفاع لا شعورية أو صبيانية، إلا أن اندفاعتها تلك لم
تفاجيء شيامورا بل أثارت لديه إحساساً بالارتياح العميق، كأن يداً
داعبته بلمسة دافئة وغامرة. ولم يُصدَم لا للمخاطرة ولا لشذوذ ذلك
التصرّف المفاجيء. فعندما رفعت كوماكو ذراعها من فوق الباب
لكي تقف جيّداً على المرقاة انحسر كم الكيمونو حتى مرفقها فبدأ
الأحمر الفاقع للكيمونو الداخلي الذي التمع على الزجاج المغلق قبل
أن يسكب دفاه الساطع في قلب شيامورا المرتعد برّداً.

ثم التصق وجه كوماكو بالزجاج.

إلى أين ذهبت؟ قل لي! إلى أين ذهبت؟ صرخت من وراء الزجاج
المغلق.

- احترسي! ستقعين!« صرخ شيامورا مجيئاً.

إلا أنها كان يعلمان تماماً أن الأمر ليس أكثر من لعبة. لعبة حنان.

وإذ فتحت كوماكو الباب ارتمت على المقعد في اللحظة التي
توقفت فيها السيارة عند أول الدرب الصاعد في اتجاه الجبل.

- إلى أين ذهبت؟ أخبرني!

- باه! ..

- إلى أين؟

- لم أقصد مكاناً محدداً... كنتُ في نزهة».

ولاحظ ببعض الدهول أنها جمعت أطراف الكيمونو الطويل كما
تفعل فتيات الغيشا المحترفات.

مكث السائق منتظراً دون أن ينبس بكلمة، وكان على شيمامورا أن
يقرَّ بغرابة موقفهما، جالساً في سيارة أجرة لا تستطيع أن تقلَّهما إلى
أبعد من المكان الذي وصلا إليه.

«لنترجل! قالت كوماكو ممسكةً بيده. برّررر! يا للبرد الشديد!
أصابعك مجمدة! لماذا لم تصحبني في نزهتك؟
- أعتقد أني كان ينبغي أن أفعل؟
- يا لغرابة أطوارك!»

كانت تضحك جَذِلَةً وتسرعُ في تسلُّق الأدراج الحجرية التي
تفترشُ الدربَ المدرَّجَ في سلام هاوية.

«لقد شاهدتُ رحيلك... كانت الساعة قد تجاوزت الثانية...
لا بل عند الثالثة تقريباً... أليس كذلك؟
- بالضبط.

- لقد هرعت إلى الخارج عندما سمعت محرك السيارة ركضتُ
خلفها. ولكن حتى إنَّك لم تلتفت؟
- ألم ألتفت؟

- لا . لم تلقِ ولو نظرةً خاطفةً إلى الوراء . لماذا؟»

كان إلحاحها يفاجئ شيمامورا .

«ألم يخطر لك أنني ربّما كنتُ أراقب رحيلك؟

- لا، أبداً .

- إذاً، أتدرك الآن قصدي!« ثمّ، جذلةً من الأعماق، مبتسمةً
وسعيدة، التصقت به . «لماذا لم تصحبني في نزهتك؟ تُبقيني هنا ثمّ
تعود إليّ مُحمّداً الأوصال . لا يروقني هذا على الإطلاق!» .

ثمّ فجأة تناهى إليهما رنينُ ناقوس الخطر الذي يُقرعُ بضربات
مُتسارعةٍ إيذاناً بالخطر .

فالتفتا ليستطلعا الأمر .

«إلى الحريق! إلى الحريق!»

«ثمة حريق!»

- النيران تشتعل هناك!»

وبالفعل كانت باقّة من الشرور واللهيب تستعرُ ناحية البلدة عند
طرفها السفلي .

أطلقت كوماكو ثلاث أو أربع صرخات تعجّب وشدّت على يد
شيمامورا .

كانا يشاهدان لسانَ لهب ينبجسُ بغتةً من عمود الدخان الكثيف
ثمّ ينقضُّ ملامساً السطوح المجاورة .

«أين الحريق؟ سأل شيمامورا . . . يبدو أنه قربَ منزل أستاذة

الموسيقى . . .

- لا .

- أين إذاً؟

- أعلى قليلاً، ناحية المحطة .

انبثق عمود لهب مفاجيء فأضاء السطوح .

- إنه مخزن الشرائق! إنه المخزن، أترى؟ الذي يحترق هو مخزن

الشرائق! .

وإذ أسندت وجهها إلى كتف شيامورا ردّدت مراراً: «المخزن!

المخزن يشتعل! المخزن!»

كانت النيران المحرقة هناك تستعر . ولكن من على التلّة حيث كانا يقفان بدا الحريق المتوقّد تحت السماء المرصعة بالنجوم مجرداً من أي طابع فجائعي وأشبه بنيران ابتهاج بريئة . ومع ذلك كانا يدركان ما تولده النيران من مشاعر الهلع حتّى تراءى لهما أنّهما يسمعان طقطقة السعير الملتهم . فطوّق شيامورا كتفي كوماكو بذراعيه .

«لا شيء يدعوك إلى الخوف! قال بارتباك، محاولاً أن يهدئ من

روعها .

- أوه! لا، أوه! لا، أوه! لا»، ردّدت وهي تهزّ رأسها بعنفٍ قبل

أن تنفجر باكياً . وكان وجهها الذي داعبته يدُ شيامورا، ضامراً فيما غصّنت الرعشة جبينها العنيد .

لا بدّ أنّ مشهد الحريق هو سببُ انتحابها ولم يسع شيامورا لمعرفة

سبب آخر لاضطرابها المفاجيء . إلّا أنّها، على غرار انتحابها

المفاجيء، لم تلبث أن كُفّت عن البكاء بَغْتَةً وأفلتت من طوق ذراعيه بحركةٍ من جسمها:

«يُقامُ عرضُ سينمائي في المخزن هذا المساء. ولا بدّ أنه يغصُّ بالحاضرين... سيكون هناك جرحى... وقتلى... ومحروقون!»

هرعا في اتجاه التزل حيث سمعا جلبةً وصياحاً: كان النزلاء يحتشدون على شرفات الطبقتين الأولى والثانية التي تنيرها الأضواء المتدفقة من الأبواب المفتوحة خلفهم. وعند أطراف الحديقة بدّت في بقعة الضوء الذي يُسلّط من أعلى، أو ربّما، الذي تعكسه النجوم، أخيلةٌ داكنة للأقحوان المنهوك الذابل كأنها ظلالٌ مستوحدة. حتّى إنّ شيامورا حسبَ لوهلةٍ أنها انعكاسات لهب الحريق. ومن وراء المسكبة انبثقت ظلالٌ ثلاثة أو أربعة أشخاص. ولمحا البواب في عداد الراكضين نحو السلام.

«أهو مخزن الشرانق؟ سألت كوماكو حين دنوا منها.

- أجل، إنه المخزن! أجل، أجل!

- جرحى؟ أئمة جرحى؟ سألت بصوتٍ يتهدّج قلقاً.

- يحاولون الآن إخلاء المكان. لقد اشتعل الفيلم وفي ثوانٍ معدودة

اشتعل المكان. هذا ما بلغني في اتصال هاتفي. ولكن انظروا، قال وهو يُشير بذراعه متابعاً طريقه. يبدو أنهم يُلقون بالأولاد واحداً تلو الآخر من أعلى الرواق!».

«ما العمل؟» سألت كوماكو وقد وجدت نفسها هارعة في أثر الهارعين وشيامورا يتبعها. ثم راحت تهبط الأدراج راكضةً.

عندما وصلا إلى أسفل السلم اشتدَّ بهما القلق. كان عمود النيران المرتفع يحجب الرؤية فوق السطوح، فيما ناقوس الخطر يُطلق رنينه الذي يزداد تسارعاً وإلحاحاً.

«احترس، الأرض زلقة هنا، مُجمّدة! قالت فجأة وقد توقفت لثوانٍ ملتفتةً نحو شيامورا. لا تقلق، سأتدبّر أمري. بإمكانك أنت أن تمكث هنا. أما أنا فينبغي أن أكون هناك تحسباً فقد يكون هناك جرحى من أهل البلدة...».

وبالفعل لم يكن لدى شيامورا ما يدفعه لمتابعة طريقه. فقد فارقتة اندفاعته الأولى. وإذ خفض عينيه لاحظ أنه يركضُ بمحاذاة خط السكة الحديد.

آه! المجرة... إنها رائعة!» صاحت كوماكو إعجاباً فيما تواصلُ ركضها أمامه وعيناها شاخصتان في السماء.

المجرة... عندما نظر إليها شيامورا، هو أيضاً، تراءى له أنه يسبح في عبابها لفرط ما بدت له قريبة في تألقها المومض وكأنها جذبتة إليها. أكان الشاعر باشو(*) مفتوناً بمثل هذا الاتساع المشع، الباهر، الذي وصفه بأنه فُلْكُ الدعة فوق بحرٍ هائج؟ ذلك أنها كانت تميلُ بعقد قبتها، مباشرةً فوق رأسه، حاضنةً الأرض الداجية في

(*) Bâscho (١٦٤٤ - ١٦٩٤) أحد أبرز شعراء الهايكو اليابانيين، من مدرسة «دانرين» (Danrin).

كنفها النقي، المُطلسمِ الخلو من أي انفعال. صورة نقيّة وفي
متناول الإدراك لبهجة حسّية مُخيفة، أحسّ شيامورا تحت وطأتها
لهنّيات أنّ خياله ينفصمُ إلى ظلالٍ متعدّدة بعددِ النجوم المومضة،
بعددِ ما يشتمل عليه ذلك النور الحليبي من شذرات فضيّة
وانعكاساتها البارقة خلف الغيوم، حتّى إنّ كلّ قطرة منها، مهما بدت
متناهية الصغر، تشرق بأنوارٍ تذوب في لاتناهيها، لشدة ما كانت
السما صافية، صفاءً وشفافية لا يُدرکہما تصوّر. كان شيامورا مفتوناً
لا يسعه الإغضاء عن ذلك الوشاح اللامتناهي، تلك الغلالة التي لا
حدودَ لشفافيتها، والتي نُسِجت بلطائف اللامنتهى.

«انتظريني! انتظري! صرخ شيامورا يُنادي كوماكو التي سبقته.

«تعال بسرعة!» صاحت متابعَةً ركضها في اتجاه سفح الجبل الذي
تسندُ وراءه غلالة المجرة المضيئة. وتراءى له تحت ضياء النجوم
المنعكسة فوق الثلج أنّه يرى البطانة الحمراء للكيمنو الداخلي وقد
رفعت طرفه وألقته على ذراعها التي تترجّح عالياً أثناء ركضها
السريع.

حاول شيامورا أن يلحق بها فانطلق مُسرِعاً وراءها. إلّا أن
كوماكو أبطأت قليلاً وأمسكت بيده، فأفلت طرف الكيمنو وراح
ينسحب على الأرض.

«أتريد أن تأتي أنت أيضاً؟»

- أجل.

- بسبب الفضول، دائماً! قالت وأمسكت مجدداً بطرف الكيمنو
الذي ينسحب على الثلج. هيّا عُدْ إلى النزل، وإلّا لاكتنا السنة
الناس...

- بضعة أمتار أخرى .
- إنك تقترِف خطأ جسيماً . فسيلوموني لأنني اصطحبتك إلى مكان الحريق !» .

رضخ لرجائها بحركةٍ من رأسه وتوقف عن الركض ، إلا أنها أبقت يدها على ذراعه دون أن تمسكها متابعَةً ركضها .
«انتظري في مكان ما ، لن أمكث طويلاً هناك ، قالت لاسترضائه . سألحقُ بك . ولكن إلى أين ؟
- حيثما شئت .

- إذا! . . . دعنا نلتقي هناك ، على مقربة . . .»

ثم هزّت رأسها بعنفٍ وقالت :

«لا ! لا أريدك أن تمكث هنا ! هذا يفوقُ احتمالي !»

وارتمت بقوة بين ذراعيه حتّى إنّه تراجع خطوة أو خطوتين لشدة ما التصقت به . وعلى جانب الطريق ، خلفه استطاع أن يرى برغم الظلام صفّاً من نباتات الكرات التي لم يطمرها الثلج .

وكان كلام كوماكو سيلاً من العبارات التي تلقاها شيامورا صامتاً :

«لماذا أطلقت عليّ مثل تلك النعوت ؟ أوه ! لماذا تعمّدت أن تُسمِعني تلك العبارة المقيّنة ؟ امرأة ممتازة ! بعد أن صمّمت على الرحيل . . . لماذا ؟»

عاودت شيامورا صورة كوماكو راكعةً على البوريّة تغرّز دَبّوس الشعر الفضّي اللامع في الأرضيّة الخشبية بضرباتٍ حانقة يائسة .

«لقد أبكيتني . وعندما عدتُ إلى منزلي بكيتُ أيضاً . كم أخشى

الفراق. ولكن، أتوسّل إليك، ارحل! ولن أنسى ما حييتُ أنك أبكيّتي».

وإذ أدرك أنّ الغلطة البسيطة التي اقترفها، والتي لم تكن أكثر من سوء فهم، قد سبّبت لها الأذى وبرّحت كيائها من الأعماق، من أعماق ما في أنوثتها، لم يستطع شيامورا لوهلة إلا أن يستفزع الفراق كما لم يشعر من قبل.

في تلك الأثناء تناهت إلى مسامعها صيحة أطلقها المحتشدون، هناك، قرب الحريق، أعقبها على الفور أجيجٌ مباغتٌ لللسنة اللهب التي تطايرت منها باقاتٌ شرّ وتناثرت في الفضاء.

«أرأيت! النيران تستعر أكثر فأكثر!».

هرعت كوماكورا كضّة تكادُ قدماها لا تطآن الأرض المكسوة بالثلوج. فبرغم ضآلة جسمها ورقته كانت من طينة أولئك الذين يتحمّلون المشقّات، فكّر شيامورا الذي نال منه الاعياء لمجرّد رؤيتها، وما لبث أن توقف لشدة ما أنهك الركضُ جسمه المائل إلى البدانة. ولكن لحسن الحظ سرعان ما تعبت كوماكورا هي أيضاً وتوقفت لتنتظره وما أن دنا منها حتّى تهالكت بجسمها عليه.

«عينان تدمعان، قالت واللهاث يُقطّع كلامها: إنه الصقيع».

كانت عينا شيامورا دامتّين أيضاً يحرقهما وخزُّ البرد فيما التهبت وجنتاه. كان يُطبق أجفانه تكراراً ليزيل تلك الغشاوة الرقاقة قبل أن تسيل دموعاً على خديه. إلا أن أجفانه المطبقة في نصف إغماضة لم تحل دون التماع المجرة مجدداً في عينيه.

أتسطع كلّ ليلة كما تسطع الآن؟

- المجرة؟ إنها رائعة، أليس كذلك؟ لا، في العادة لا تكون ساطعة كما هي الآن. فليست كل الليالي بمثل هذا الصفاء».

وبدا ذلك الفلك المومض الذي يوغل في اتجاه سيرهما وكأنه يغمر رأس كوماكو بالضياء.

كان أنفها الأقنى قليلاً يبدو أقل بروزاً، أما حمرة شفيتها الوافرة فكأنها فشّت في وجهها كله. أيعقل أن يكون ذلك النور المذهل الذي تعدى السماء مُعتماً كأحلك ما تكون العتمة؟ والحق أن شيامورا ما كان ليصدق ذلك. أيمن لليل أن يكون أحلك مما يكون في ضوء القمر، كما في تلك الليلة، عندما كان الدرب المنجم يسطع بوضوح كما لا تسطع الليالي القمرية؟ ومع ذلك ما كان يسعه إلا الاقرار بأن اللمعان الحافل للمجرة لا يُلقى بأية ظلال على الأرض، وتضفي أنواره الطيفية على وجه كوماكو مظهراً غريباً كأنه قناع قديم يتراءى من خلاله عنصرٌ أنثوي طاغٍ!

وإذ رفع عينيه مجدداً نحو قبة الضياء العملاقة، شعر شيامورا مجدداً بذلك العناق الذي تطبق به السماء المومضة على الأرض.

تماماً مثل شفقٍ لامتناهٍ كأن المجرة تغدق عليه بالضياء قبل أن تتبدد خلف حدود الكون. وسرت برودة ذلك الصفاء قشعريرةً في كيانه، كأنها ذبذبة انتشاء مكث من جرّائها في غمرة الدهول والافتتان في وقتٍ معاً.

«عندما تغادر، قالت له كوماكو مستأنفة سيرها، عندما تغادر سأستعيد سلوكي اللائق».

كانت تحاول أثناء سيرها أن تصلح تسريحتها التي شعثها الركض.

وبعد قليل استدارت نحوه :

«ماذا تفعل؟ أرجو أن لا تكون مصمماً على المكوث هنا؟»

كان شيامورا واقفاً يرمقها بنظرات ثابتة .

- أوه! هلاً انتظرتني؟ وبعد ذلك نعود إلى غرفتك...» .

ثم أشارت إليه بيدها اليسرى واستأنفت ركضها، ثم ما لبث خيالها الضئيل أن تلاشى في العتمة كأنَّ الجبل ابتلعه . لثوانٍ فيما كان شيامورا يتبعها بنظراته، تراءت له القمم المسنَّنة كأنَّها تمزَّق غلالة المجرة الباذخة التي طالعه لمعانها المومض من جديد عند أعلى القبة، في عمق السماء، مُخَلِّفةً الجبال غارقةً في عتماتها الراكدة .

اختفى طيفُ كوماكو خلف بيوت الشارع الرئيس، عندما انعطفت من هناك مُتَابِعَةً ركضها، فاستأنف شيامورا سيره للحاق بها .

كان صياح أجشٍّ، هيه هوه! هيه أوه! يوقَّع خطى رجالٍ يجرون مطفأة حريق في الشارع الرئيس، تتبعهم جمهرة من الراكضين لم يلبث شيامورا أن انضمَّ إليهم عند المنعطف .

مطفأة أخرى تقترب من ورائه، فانتحى جانباً مفسحاً لها في الطريق، ثم سار خلفها .

مطفأة حريق قديمة، يدويّة الاستخدام، مضخةٌ مضحكة تجرّها جمهرةٌ من الرجال بواسطة حبلٍ تتبعها على الجانبين جمهرة أخرى من الناس للمساعدة . حتّى إنّ المطفأة على ضخامتها، كانت تبدو ضئيلة الحجم وسط ذلك الحشد الهائل من الناس .

كانت كوماكو قد انتحت جانباً، هي أيضاً، مفسحة في المجال لمرور المطفأة، وعندما رأت شيامورا وسط الحشد هرعت لتنضم إليه. كان الناس ينتحون من طريق المضخة في تقدّمها البطيء ثم ينضمّون إلى الجمهرة التي تتبعها كأنها تجذبهم إليها. وكان شيامورا وكوماكو وسط ذلك الحشد المتراكم صوب الحريق مجرد شخصين مُغفلين تقودهما الجمهرة حيثما تشاء.

«في آخر الأمر صمّمت على المجيء! بدافع الفضول، أليس كذلك؟»

- بالطبع! وتلك المضخة البائسة المضحكة! لا بدّ أنها صنعت منذ قرنٍ من الزمن، في الأقل.
- في الأقل، بلى. ولكن احترس لئلا تقع.
- إنها لمزلة حقاً.

- ألم تشهد العاصفة الثلجية من قبل، عندما تكنس رياح الصقيع الثلوج المسفة طوال ليالٍ بأكملها! يجب أن تشهد مثل تلك العواصف! ولكنك تؤثر ألا تخوض المخاطرة بالطبع! خلال العاصفة تهرع الأرانب وطيور التدرج إلى البيوت بحثاً عن ملاذ.

كانت تخاطبه بنبرة انفعال كمن عيل صبره، وكأنّ صوتها يُصاحب إيقاع الصياح المتناهي من المقدّمة ووطء الأقدام الهارعة من الخلف، ومن الجانبين، وسط تلك الجمهرة التي كان شيامورا مُنقاداً إلى إيقاعها ووجهة سيرها.

كان الجمعُ قد أصبح على مقربةٍ من مكانِ الحريق، فسمع أزيز النيران المستعرة وشوهدت ألسنة اللهب تنبثق على بُعد أمتار. تشبّثت كوماكو بذراع شيامورا. وبدت البيوت الوطيئة والمعتمة وكأنّها بين

شهيق وزفير إذ تنبثق أخيلتها تارةً في وهج النيران، وتلوذ تارةً أخرى
بحلك الليل إلى جانب الطريق. كانت مياه المطافئ تتدفق على
قارعة الطريق، فاحتشدوا أمامها سدّاً بشرياً منيعاً وصلباً. وكان
الدخان المتصاعد يُشيع رائحة الحرير المحروق.

كانت الأفواه تتناقل الخبر في صباح يتردد بين الجموع: بلى،
اندلع الحريق في آلة العرض؛ بلى، لقد ألقوا بالأولاد من أعلى
الرواق، بلى، بلى. لا، ليس هناك جرحى؛ لا، لقد شاء حسنُ
الطالع أن يكون المخزن خالياً من الشرائق أو أكياس الرز. وبرغم
تلك الأصوات التي ترتفع أحياناً، كان صمتٌ لوجوم سائداً على
مشهد الحريق المأسوي الذي وقف الجميع حياه مذهولين كأن ضراوة
النيران تُسكت الأصوات وتعصر القلوب وتزيل معايير النسب
والمقارنة. لم يكن للواقف هناك إلا أن يُصغي إلى غطيط النيران
الرهيبة وجلبة المطافئ اليدوية.

ومن حين إلى آخر، يصلُ وافد جديد من أهل البلدة وينادي
أحد الأقرباء، فيعلو صوتٌ، من هنا وهناك، فتتنادى الأصوات لثوانٍ
ويتبادل الناجون صياح الابتهاج الذي أعقب القلق. وحدها تلك
الأصوات كانت تُضفي على المشهد بعض الحياة والحركة. حتى
ناقوس الخطر توقف رنينه.

ابتعد شيامورا عن كوماكو، خشية أن يرى في صحبتها، واندس
خلف تلة من الصبيان لم تلبث النيران المستعرة أن أرغمتهم على
التراجع قليلاً. كانوا يخوضون في الثلج الذائب مخلفين وراءهم مزيجاً
موحلاً من الثلج والمياه الموطوءة بألف قدم.

تراجع الصبية إلى حدود الحقل الذي يُحاذي عرض مخزن

الشرائق، وكان معظم المحتشدين الوافدين من جهة الشارع يتجمعون هناك.

لا بدّ أن النيران اندلعت عند مدخل المبنى حيث بدا السقف والجدران محترقة تماماً وقد التهمها الحريق حتى منتصف القاعة فيما كانت الركائز والعوارض الخشبية تواصل احتراقها البطيء، فالمخزن المشيد على غرار! إهراء ضخم مبني من الخشب: ركائزه وجدرانه وأرضيته وسقائفه. لم يكن الداخل المتأجج عابقاً بالدخان. وبدأ أن الحريق الذي كان يلتهم السقف قد أخذ برشقات مياه المطافئ ولكن النيران ما زالت تستعرُ كامنة تنبجس ألسنة لهب هنا وهناك وتشتدّ إلى أن مُحاصرها رشقات المطافئ الثلاث. وأحياناً في غمرة انهماك العاملين على إخماد الحريق تخطى الخراطيم أهدافها فتتجاوز رشقات المياه أعلى الحائط ويبدو قوس الماء مُعلّقاً لثوانٍ في الفراغ، مُترجّحاً قبل أن يتبخّر ويتساقط، في الناحية المقابلة، قطرات صغيرة لا تراها العين. وإذا تضرب زحّة المياه بؤرة السعير يتصاعدُ عمودٌ مدوّمٌ من الدخان الأسود مصحوباً بباقات شررٍ متوقّدة.

كانت باقات الشرر وألسنة اللهب المتطاولة ارتفاعاً تُعيد أنظار شيامورا إلى قبة المجرة التي حجبها الدخان المتصاعدُ لهنيئات، ثم انقشعت فبدت رقاقة صافية تتألق أنوارها المعقودة في الجهة المقابلة حيث تتناثر القطرات المتألّثة لزخات المطافئ، حين تُخطىء هدفها وتتطاير في الفضاء، وتمتزجُ بوميضها البعيد.

كانت كوماكو قد انضمت إليه ولا يعرف منذ متى. كانت يدها تبحث عن يده متلمّسةً فالتفت نحوها دون أن يُخاطبها: كانت تتأمل النيران التي يُضفي وهجها المتماوجُ مزيداً من الإنفعال على وجهها

المتورّد قليلاً والمشدود القسّيات . سرت في كيان شيّامورا رعشة
انفعال عميق . كانت تسريحتها قد تشعّث قليلاً وتنتفض رقبتهـا
الحاسرة على وتائر لهاثها المتلاحق . كانت أصابع شيّامورا ترتعش لهفةً
للمسها، حتّى أحسّ بالعرق يَرتطب راحتيه . إلّا أن يد كوماكو كانت
أشدّ سخونة . ودون أن يدرك لماذا، أحس شيّامورا بفراقٍ وشيكٍ
بينهما، وبأن شيئاً ما يحتمّ عليهما ذلك الفراق .

فجأة استعرت النيران بضراوةٍ على طول الدعائم والعوارض
الخشبيّة عند المدخل، فلم تلبث المطافئ أن صوّبت نحوها زخّات
خراطيمها فتصاعد منها البخارُ مصحوباً بأزيز وطقطقة فانهار قسمٌ من
هيكل البناء وتهدّم .

علّت صيحةٌ من بين صفوف المحتشدين إذ رأت عيونهم الشاحصة
جسمَ امرأةٍ يهوي في المحرقة .

كان الرواق الداخلي الذي شيّد خصيصاً لتسهيل استخدام المخزن
كصالة للعروض السينمائية أيضاً، لا يوازي في ارتفاعه علو طبقة
عاديّة، ولم يستغرق الجسم الذي سقط منه سوى بضعة أعشار من
الثانية قبل أن يرتطم بالأرض . إلّا أن جميع المحتشدين رأوه .
وسجّلت كل العيون الشاحصة سقطتها القاتلة في أدق تفاصيلها .
وكأنّ الوقت علّق بغتةً وامتزج بالحركة الغريبة لذلك الجسم المجرد
من الحياة، أشبه بدمية، وقد هوى محوّمًا في الفضاء . من الواضح أنّ
الفتاة المسكينة كانت فاقدة الوعي . وقد أفضت بها سقطتها إلى
الارتطام بالأرض في مكانٍ بين الحريق المستعر مجدداً عند المدخل
وبؤرة النيران المضطربة عند طرف المبنى الخلفي . وكانت المياه قد
بلّلت كلّ شيء في الداخل، لذلك لم يحدث الجسم المرتطم بالأرض
أي تناثر للغبار أو الرماد .

صَوَّبَتْ إِحْدَى الْمَطَافِي زَخَّةَ مِيَاهٍ مَقْوَسَةً نَحْوَ الْجَمْرِ وَالْانْقَاضِ
فَاغْرَقَتْهَا حَتَّى بَدَأَ فَجْأَةً جِسْمُ امْرَأَةٍ كَأَنَّهَا انْبَثَقَتْ مِنْ دَفْقِ الْمِيَاهِ . هَكَذَا
جَرَتْ الْمَأْسَاءُ . ظَلَّ الْجِسْمُ أَفْقِيَاءً فِي سَقَطَتِهِ فِي الْفَرَاغِ فَتَرَجَعَ شِيَامُورَا
خُطْوَةً إِلَى الْوَرَاءِ بِحَرَكَةٍ عَفْوِيَّةٍ دُونَ أَنْ يُثِيرَ فِيهِ الْمَشْهَدُ أَيَّ شُعُورٍ
بِالْهَلَعِ : فَقَدْ كَانَ يَرَى إِلَى كُلِّ ذَلِكَ وَكَأَنَّهُ مَجْرَدُ خِرَافَةٍ وَوَهْمٍ . وَلَمْ
يَلْبَثِ الْجِسْمُ الْمَسْجَى أَنْ فَقَدَ مَا بَدَأَ عَلَيْهِ مِنْ تَصَلُّبٍ أَثْنَاءَ السَّقْطَةِ
وَأَصْبَحَ مَفْرَطاً فِي لِيُونَتِهِ وَرَقَّتِهِ حَتَّى أَنْ زَوَالَ مَقَاوِمَتِهِ الْحَيَّةِ الَّتِي جَعَلَتْ
مِنْهُ أَشْبَهَ بِدُمِيَّةٍ قَدْ نَحَتْ الْفَارِقَ الَّذِي كَانَ يُبْقِيهِ بَيْنَ الْحَيَاةِ
وَالْمَوْتِ وَإِذْ سَرَتْ فِي بَقَايَاهُ رَعِشَةٌ مَا فَلَأَنَّهُ يَخْشَى تَشَوُّهَا قَاتِلًا :
الْخَشْيَةُ مِنْ أَنْ تُفْقِدَهُ الْأَضْرَارُ الْمُحْتَمَلَةُ : رَأْساً أَوْ رَكْبَةً أَوْ وَرْكَاءَ ، أُنَاقَةً
قَوَامَهُ الْمَثَالِيَّةَ

إِلَّا أَنْ الْجِسْمَ الْمَمْدَدَ عَلَى الْأَرْضِ حَافِظٌ عَلَى وَضْعِيَّتِهِ الْأَفْقِيَّةِ كَمَا
كَانَ أَثْنَاءَ السَّقْطَةِ .

أَطْلَقَتْ كُومَاكُو صَرْخَةً مَدْوِيَّةً وَقَدْ غَطَّتْ وَجْهَهَا بِرَاحَتَيْهَا . أَمَّا
شِيَامُورَا فَمَكَثَ شَاخِصاً فِي الْجَسَدِ الرَّاقِدِ .

مَتَى أَدْرِكُ أَنَّهَا يُوَكُّو؟ بَدَأَ لَهُ أَنْ صَرَخَ الْجَمْعُ تَزَامِنَ مَعَ صَيْحَةِ
كُومَامُو فِي الْأَثْنَاءِ لِمَحِ اخْتِلَاجِ رَبْلَةِ السَّاقِ لَدَى يُوَكُّو الْمُدَّةِ عَلَى
الْأَرْضِ .

لَقَدْ اخْتَرَقَتْهُ صَيْحَةُ كُومَاكُو مِنَ الصَّمِيمِ إِلَى الصَّمِيمِ ، أَمَّا
الْاخْتِلَاجُ الَّذِي هَزَّ سَاقَ يُوَكُّو قَدْ أَحْلَى الرِّعْشَةَ فِي كِيَانِهِ وَسَرَتْ فِي
أَوْصَالِهِ حَتَّى أَصَابَعَ قَدَمِيهِ . كَانَتْ مَشَاعِرُ الْأَسَى الْغَامِضَةِ تَعْتَصِرُ
قَلْبَهُ .

كَانَتْ السَّاقُ تَرْتَعِدُ بِاخْتِلَاجَاتٍ ضَعِيفَةٍ فَلَا يَرَاهَا النَّازِرُ مِنْ بُعْدٍ .

وما أن همدت حتى رفع شيامورا عينيه يتأمل الجسد المغطى بالكيمنونو الأحمر حتى الوجه .

كان الكيمنونو حاسراً إلى ما فوق الركبة ، فقد سقطت يوكو على ظهرها وظلت ممددة فاقدة الوعي بلا حراك باستثناء تشنجات ربلة ساقيها اللاإرادية . إلا أن ذلك السكون في جسم يوكو، لم يوقظ في روع شيامورا أي صورة للموت . وهو نفسه لا يعرف لماذا . كان يتأملها كأنها في حالة تحوّل ، أو في مرحلة انتقال ، من شكلٍ مألوف لحياة الجسم إلى شكل آخر .

كانت بعض الألواح الخشبية لا تزال تحترق فوق رأس يوكو . وكانت نظرتها العذبة ، تلك النظرة التي تحترق كيائك ، أسيرة أجفانها المطبقة . ذقنها المدبب إلى أعلى كأنه استكمالٌ لسمتِ العنق ، أما انعكاساتُ اللهب الحمراء فتوشي وجهها الشاحب بألوانٍ مُراقصة .

لم يستطع شيامورا أن يتمالك تأثره العميق عندما أعادته الذكرى إلى الأنوار المدهشة المبعثرة هناك في أعلى الجبل وقد انعكس بريقها على ملامح يوكو المثيرة ، في مرآة النافذة الغسقية أثناء رحلة عودته للقاء كوماكو . حتى السنوات التي شهدت علاقته بها والأشهر التي قضّاها إلى جانبها بدت له ساطعة هي أيضاً وكأنها نُورٌ ببريق ذلك المصباح البعيد . فانتابته مشاعر الأسى التي لا تُسمى وأثقل الحزن صدره .

كانت كوماكو قد ابتعدت عنه راکضة صوبَ الحريق فيما علّت صيحتها المدوية وغطت عينيها براحتيها وامتزج صراخها بصراخ المحتشدين في المكان . كان كيمنونو الغيشا الطويل يسحبُ على الأرض خلفها وهي تركضُ مُتعثرةً بين نُقع الماء وركام الدعائم شبه

المرمّدة التي تعترض طريقها.

وفي آخر الأمر استدارت نحوهم حاملةً يوكو بين ذراعيها؛ كان الجهد الذي تبذله يمدّد وجهها ويشدّ قسماته فيما بدا وجه يوكو الذي يترجّح على ساعدها خلواً من أي تعبير، هادئاً، وأبيض وساكناً كما الوجوه التي تفارقها الروح.

كانت كوماكو تتقدّم، كأنها تحمل أضحيةً أو ربّما جمل عقابها، ولا تبالي بالأنقاض التي تعترض سبيلها.

هرع الحشدُ إليها وتحلق الجميع حولها بصراخهم المستعاد:

«تراجعوا! ابتعدوا!»

كان ذلك صوت كوماكو الذي تنهى إلى سمع شيامورا.

«ستصبح مجنونة! مجنونة! مجنونة!» وسمع أيضاً تلك العبارة تتردّد بعد صراخ كوماكو.

ولكن عندما همّ بالتقدّم نحو الصوت الذي تنهى إليه كأنّه الهذيان، تحلّق الرجال حولها مُحاولين انتزاع يوكو من ذراعيها، فصدّوه في تدافعهم حتّى كاد أن يفقد توازنه وترنّخ. خطا خطوةً إلى الوراء لكي يستدرك سقطته، وإذ مال بجذعه إلى الخلف رافعاً رأسه انسكبت المجرّة في أعماقه يَصْحَبُها دويٌّ مُذهل.

ياسوناري كواباتا.

هو أكبر روائي اليابان وأعظمهم شهرةً. ولد في «اوزاكا» عام ١٨٩٩ وتخرج من جامعة طوكيو عام ١٩٢٤. ولم يلبث أن استرعى انتباه الأوساط الأدبية والنقدية منذ صدور مجموعته القصصية الأولى «راقصة إيزو» التي صدرت لأول مرة عام ١٩٢٥، ثم توالى أعماله الروائية الأخرى التي ترجمت إلى عدد كبير من لغات العالم. نال جائزة نوبل للأدب عام ١٩٦٨. وفي ١٦ نيسان (إبريل) عام ١٩٧٢ انتحر كواباتا في الثالثة والسبعين، وهو في ذروة مجده الأدبي.

له مؤلفات روائية عديدة نُقل بعضها إلى العربية:

«بلد الثلوج» (١٩٤٨)، «غمامة لقالق بيضاء» (١٩٥٢)، «ضجيج الجبل» (١٩٥٤)، «البحيرة» (١٩٥٩)، «الجميلات النائيات» (١٩٦٠)، و«كيوتو» و«حزن وجمال» وأستاذ لعبة الغو» (١٩٧٢)، وراقصة إيزو حزينان ١٩٩٠.

كان كواباتا يقول: «يكفي غصن شجرة، إذا كان مرسوماً باتقان، لكي يسمع صوت الرياح». ولعل هذه النزعة الحسية الحادة هي التي تجعل من أعمال كواباتا أقرب إلى رسوم مصوري الشرق الأقصى. هناك دائماً تلك الصور الشاعرية التي تتلاشى ولا يبقى منها سوى الخط الحاد، بالغ القسوة أحياناً.

بلد الثلوج

S.P300



1 4 3 9 6 6

المعرفة